الدكتور محمد محمود حجازى
كلية أصول الدين
ومؤلف كتاب التفسير الواضح

الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم

١٣٩٠ — ١٩٧٠

يطلب من
دار الكتب الحديثة
١٣ شارع الجمهورية بعابدين تليفون ٩١٦١٠٧
لصاحبها توفيق عفيفى عامر

هذه هى الرسالة التى قدمت إلى كليـــة أصول الدين ـ جامعة الأزهر
فاستحقت ـ بحمد الله ـ الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى . . .

مطبعة المندى
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة

إهـــداء

إلى الذين يبحثون عن الحق والنور حتى كان ضالتهم المنشودة

.. الذين يتلون القرآن الكريم حق تلاوته ...

ويتدبرون آياته فيزيدهم الله إيماناً على إيمان

إلى إخوانى المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها

أهدى كتابى هذا .. والله أسأل أن يجنبنا الزلل ويهدينا إلى الحق ..

محمد محمود حجازى

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستهديه وأتوكل عليه ، وصلاة وسلاماً على حبيبه المصطفى محمد المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الهدى وأعلام اليقين .

وبعـــــد :

فإن القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ومعجزته الدائمة الباقية التى تحدّى بها الخلق جميعاً ، وخاصة العرب فعجزوا مع أنهم أهل الفصاحه والبيان بل لقد سجد بعض أئمتهم على كفره وشركه لبلاغة القرآن الكريم ، وقوة نسجه وجزالة أسلوبه وفخامة تركيبه حتى قال حينما سمعه من الرسول : والله لقد سمعت كلاما وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وما هو بقول البشر .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ... ﴾ ٢٤ سورة البقرة .

وإن الكلام عن إعجاز القرآن الكريم ونواحيه ليس بالأمر السهل الهين الذى ينتهى فى رسالة أو كتيّب .

ولقد راعنى وأنا أكتب « التفسير الواضح » هذا النسق العجيب فى سور القرآن وترتيبها فى المصحف فهذه سورة مدنية بجوار سورة مكية ، وهذه سورة مدنية وسط عدد من السور المكية .. وهكذا .

ثم إذا نظرت إلى نفس السورة وآياتها نجد العجب العجاب تجد السورة وقد جمعت آيات متعددة ، وإن تكن متناسبة ومتلائمة، ولكنك تجد السورة تتحدث عن موضوع خاص ، فإذا قرأت غيرها تجدها تحدثت هى الأخرى عن نفس الموضوع ولكن بشكل خاص ونسق يلتئم مع جو السورة التى قيل فيها.

هذه ظاهرة استرعت البحث والنظر أما السابقون فتخلصوا من هذا بالقول بالنسخ فالآية المتأخرة نسخت المتقدمة وهكذا .

وأما نحن فقد هدانا الله إلى القول بنظرية « الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم » .

* * *

لهذا كانت تلك النظرية جديدة على الأسماع فرفضها البعض وحاول منع نقاشها بجامعة الأزهر ، ولكن الحق يظهر دائما ، ولا بد أن يبدو الصبح لذى عينين وأما المنصفون المعتدلون فطالبوا بالدليل ، والبيان ، وضرب الأمثلة مع الحجة والبرهان .

ثم هم بعد ذلك طالبونى بتعميم الفائدة ، ونشر هذه الرسالة فأجبت الطلب والله المستعان؟

القاهرة : { ربيع الثانى ١٣٩٠ / يونيو ١٩٧٠

محمد محمود حجازى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين . أحمده سبحانه وتعالى. الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عِوَجًا ، قَيِّمًا لينذِرَ بأسًا شديداً من لدُنه ويبشرَ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبدا .

والصلاة والسلام على رسول الله أكرم خلق الله على الله . شرح صدره ووضع عنه وزره . ورفع له ذكره . وأيده بالمعجزة الباقية « أوَلَمْ يَكْفِهِم أنّا أنزلنا عليك الكِتابَ يُتْلَى عليهم »
صلى الله عليه . وعلى آله وعلى صحبه الأبرار .

وبعـــد :

فهذه رسالة أتقدم بها إلى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر لنيل الدكتوراه .

« وعنوانها : الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم »

والحق يقال: إننى لست من رجال هذه الأبحاث الدقيقة العميقة المتصلة بالقرآن الكريم ، ولكنها محاولة . ، دفعنى إليها حب البحث فى كل مايتعلق بكتاب الله، فإن أصبت فذلك الفضل من الله . . وإلا فهى محاولة . . . .

والله يهدى إلى الحق . وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

ربيع الثانى ١٣٨٦ هـ

يولية ــ و ١٩٦٧ م

محمد محمود حجازى

مُقَدِّمة

وفيها لماذا اخترنا هذا البحث

نزل القرآن الكريم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم منجما فى بضع وعشرين سنة تبعاً للحوادث والأحداث التى تعيشها الدعوة المحمدية ولأسرار وحكم إلهية .

يشهد لذلك قوله سبحانه وتعالى : —

فى سورة الإسراء آية «١٠٦» ﴿وقُرآناً فَرَقْناه لتقرأه على النّاسِ على مُكْثٍ ونَزّلْناه تنزيلاً﴾ وفى سورة الفرقان آية «٢٢» ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً !! كذلك لنثبّتَ به فؤادَكَ وَرَتّلْناه تَرْتيلا ولا يأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيراً﴾ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالآية أو الآيات ، يرشده أمين الوحى إلى موضعها من سورتها فيقرؤها صلى الله عليه وسلم على أصحابه . وعلى كتّاب وحيه ثم يأمرهم بكتابتها فى موضع كذا من سورة كذا بين كذا وكذا، كما ورد فى الحديث الصحيح .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوها على أصحابه مراراً وتكراراً فى صلاته وعظاته على هذا الترتيب . كما ثبت فى السُّنَن الصحيحة .

وكان يعارضه جبريل القرآن — ما نزل — فى كل عام مرة وفى العام الذى توفّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضه جبريل مرتين[1] بمعنى دارسه

(١) روى البخارى بسنده الصحيح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم =

كل ذلك على وفق الترتيب الذى عليه المصحف .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحفظونه على هذا الترتيب ، ويكتبونه عندهم ويقرأونه كذلك فى صلاتهم وعباداتهم ، وكان يأخذ بعضهم عن بعض ويسمع بعضهم عن بعض على هذا النحو من الترتيب ، القائم عندنا فى المصاحف بمعنى أن القراءة والحفظ لم يكونا على ترتيب النزول .

وانعقد إجماع الأمة على ذلك وقد حكى هذا الإجماع جماعة منهم الزركشى فى البرهان[1] ، — والسيوطى فى الإتقان[2] ، وأبو جعفر فى المناسبات إذ يقول ما نصه:

« ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيف — من الرسول صلى الله عليه وسلم من غير خلاف بين المسلمين » .

ولعل سائلا يسأل ما سند هذا الإجماع من النصوص الثابتة ؟

نعم . . . قد مر بك قريباً ما نقل فى الصحيح من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ السورة بتمامها . بل وعدة سور فى صلاته ، والصحابة شهود

= « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس . وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل . وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن .. »

قال الحافظ ابن حجر فى شرحه ص ٧٠ « وإنما دراسة بالقرآن لكى يتقرر عنده ويرسخ أنم رسوخ فلاينساه وكان هذا إنجاز وعده « سنقرئك فلا تنسى .. »

(١) ص ٢٥٦ البرهان للزركشى .

(٢) ص ٦٣ الإتقان للسيوطى .

على ذلك ومنهم الرواة ،وما ثبت من معارضة جبريل له كل عام فيما نزل ، وعارضه فى العام الذى توفى فيه مرتين .

وما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال :

كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شَخَصَ ببصره ، ثم صوّبه ثم قال :

« أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة : ﴿ إن اللهَ يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ... ﴾ ، ٩٠ ، و ٩١ من سورة النحل ومنها ما أخرجه البخارى رضى الله عنه عن ابن الزبير قال :

قلت لعثمان بن عفان ﴿ والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً وصيةً . لأزواجهم متاعاً إلى الحول غَيْرَ إخراجٍ ﴾ * ٢٤٠ من البقرة . نسختها الآية الأخرى ﴿ والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصْنَ بأنفُسهنَّ أربعةَ أشهر وعشراً ﴾ ٢٣٤ من البقرة .

قال ابن الزبير لعثمان : فلم تكتبها ؟ أو تدعها ؟ ! على معنى لماذا تكتبها؟ أو قال لماذا تتركها مكتوبة ؟ أى مع أنها منسوخة .

قال عثمان : يا ابن أخى لا أغير شيئاً من مكانه .

أفبعد هذا الحديث شىء ؟ ! .

عثمان الذى جمع القرآن الجمع الأخير على لغة قريش ولهجتها لا يستطيع — باعترافه أن يتصرف فيه لأنه لا مجال للرأى فيه .

واسمع مارواه مسلم عن عمر رضى الله عنه يقول :

ما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء أكثر مما سألته عن الكَلالَةِ .

حتى طعَن بأُصْبُعِهِ فى صَدْرى وقال : « تكفيك آيةُ الصيف التى فى آخر سورة النساء».

ألم تر إلى الرسول عليه السلام دلّه على وقت نزول الآية . وعلى موضعها بالضبط من سورتها بما لا يدع شكا فى أن الآيات القرآنية مرتبة ترتيبا توقيفياً من الله بواسطة جبريل ، وبُلِّغت لنا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفِظَها الصحابة على ذلك ودوّنوها بمنتهى الدقة والأمانة .

وكان جمع أبى بكر للقرآن عبارة عن وضعه فى صحف[1] منظمة فى مكان واحد، بعد أن كان مكتوبا فى عدة أماكن من الألواح والأحجار . واللخاف . والعظام ، وكان مع هذا محفوظاً كله للصحابة ، بمعنى أن هذا يحفظ كذا سورة ، وهذا يحفظ سورة كذا . وكذا ومع هذا لم يكتب أبو بكر — بواسطة اللجنة التى عينها — آية واحدة إلا بشهادة شهود فى مؤتمر عام مفتوح كان يعقد فى مسجد الرسول . على أن الآية مما كتبت فى حضرة الرسول أو حفظت فى عهده .

وكان جمع عثمان رضى الله عنه ، عبارة عن كتابة هذه الصحف فى عدة مصاحف تعتبر مراجع للمسلمين فى الأمصار ، والكتابة بلهجة قريش حتى لا يختلف القراء فى القراءات .

وكانت الكتابة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وإلى عهد عثمان كانت بلغة قريش ، وكانت القراءة

---

(١) ذكر الزركشى فى البرهان ص ٢٣٣ ج ١ ما رواه البخارى فى صحيحه فى باب فضائل القرآن ـ الحديث عن زيد بن ثابت .

مباحة فى عهد الرسول وأبى بكر بغير لغة قريش . ولما رأى عثمان خلاف القراء المفضى إلى النزاع ألزم الناس جميعاً أن تكون القراءة والكتابة بلهجة قريش، وساعده على ذلك شيوع لهجة قريش بعد ظهور الإسلام[1] .

وأما ترتيب السور فالأصح أنه توقيفى .

وسيأتى مزيد بيان لهذا ، عند الكلام على نزول القرآن وتنجيمه بما فيه الكفاية .

* * *

عرفنا أن القرآن الكريم نزل منجماً تبعاً للأحداث والظروف ، ثم هو فى المصحف على ترتيب آخر كما رأيت ؛ ولم يكن هذا الترتيب من صنع البشر بل كان توقيفياً من الله سبحانه وتعالى .

إذا كان الأمر كذلك فهل هنا اتصال ومناسبة بين آيات القرآن على هذا الترتيب فى المصحف، بمعنى هل هناك سر فى اتصال الآية بأختها فى السورة ؟ !!

الحقيقة أن هناك سراً ومناسبة بين الآيات فى السورة، لكن ليس إدراك

---

(١) ذكر الإمام الزركشى فى البرهان ص ٢٣٥ ج ١ أن الذى استبد به عثمان جمع الناس على قراءة محصورة والمنع من غير ذلك .

قال القاضى أبو بكر فى « الانتصار » : لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نصوص القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل مع تنزيل . ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ، ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد » انتهى .

هذا بالأمر السهل الميسور خاصة إذا عرفنا أن الآيات أنزلت فى أوقات متعددة، وأماكن متباينة ولظروف مختلفة ثم جمعت هذا الجمع الموجود فى المصحف .

والنجم تستصغر الأبصارُ رؤيتَه والذنب للطَّرْف لا للنجم فى الصِّغَر

ولقد كانت هذه الظاهرة القرآنية التى تعتبر من دلائل الإعجاز — كما ستعرف — عند ذوى الأبصار ـ سبباً فى أن يدعى بعض الناس على القرآن جهلا واستكبارا .

إنه كتاب لم يأت على نسق الكتب الموضوعية . . . . .

إذ ليست له مقدمة ، وليست فيه مباحث موضوعية . مرتبة . لها مقاصد وأغراض فى فصول وأبواب . . . .

وإنما كان القرآن مشتملا على عدة سور كل سورة منه احتوت على آيات متعددة كل آية فى غرض. فهذه للوعظ ، وتلك للزجر ، وهذه قصة ، وأخرى لحكم من الأحكام ، وأخرى لوصف الجنة أو النار ، وهكذا لا تجد رباطاً يربط بين الآيات ، ولا تجد غرضاً جامعاً يجمع الشتات .

وتلك لعمرى أفكار الصبيان أو أفكار المردة من الشياطين الذين اتخذوها سهاماً للطعن على القرآن الكريم .

وقد ذهب بعض علماء المسلمين — عن حسن قصد — إلى هذا ورأوا أنه لا ترتيب بين آيات القرآن ، وبالتالى لا ترتيب كذلك بين السور .

وحكموا أن ذلك ليس عيباً فيه .

وممن رأى هذا من القدامى العلامة عز الدين بن عبد السلام حيث قال فى كتابه — (مجاز القرآن) : « إن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض

ولكن يشترط ذلك إذا وقع الكلام فى أمر متحدٍ أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط . . .

ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه .

فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض[1] .

وقد رأى قريباً من ذلك الأستاذ محمد فريد وجدى فى مقدمة تفسيره حيث قال : إنه لا شىء فى عدم مراعاة القرآن قاعدة الكتابة البشرية لأنه لو كان على مثال الكتب الوضعية فى الترتيب والتبويب لكان كتاباً وضعياً لا سماوياً ، فالترتيب يقتصر سلطانه على كلام البشر ، ويجل عنه كلام الله . كما يجل البحر عن أن يحد بما تحد به الجداول .

وهذا جواب خطابى بالتسليم للاعتراض ، ومنع أن يكون هذا عيباً فى كلام الله كرأى العز بن عبد السلام . . . والحق كما سترى واضحاً على خلاف ذلك .

ولقد شجع هذا الكلام بعض المستشرقين وغيرهم فتبجّحوا وعدّوا هذا عيباً فى القرآن الكريم ، واضطراباً فى التأليف . وهذه شبهة لهم فى أن يقولوا إن القرآن ليس معجزاً ، ـ وليس من عند الله بل هو من وضع النبى محمد .

أما الرد السريع على نباح هؤلاء : فهو أن القرآن الكريم حينما نزل على

---

(١) من تفسير جزء عم للشيخ محمد المبارك عبد الله ص١٣ ط ـ صبيح ، من الإتقان للسيوطى ص ١٠٨ ط ـ مصطفى الحلبى ج ٢ ، من البرهان للزركشى ص ٣٧ ج ١ ط عيسى الحلبى .

العرب بلغة العرب ، وهم أعلم الناس بلغتهم ، وتحداهم تحدياً صارخاً بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة واحدة ، وقال لهم فى تحديه « لن تفعلوا » . ومع هذا عجزوا عجزاً تاماً .

تحدّاهم بأقسى عبارة لهم وفتح لهم الباب إلى أقصى الحدود ... ﴿...وادْعُوا شُهَدَاءَكم من دون الله . . . .﴾ ومع هذا عجزوا ثم وصفوه كما قال الوليد بن المغيرة بعد ما فكر وقدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . فقال : ﴿ إن هذا إلا سحرٌ يُؤْثَر ﴾ من سورة المدثر.

أرأيت إلى ما وصف العرب به القرآن مع أنهم أعداء للنبى والقرآن .

لم يقولوا : إنه مفكك . لم يقولوا : إنه على خلاف الكتب . لم يقولوا إنه ضعيف مهلهل : ولكنهم قالوا : عجباً إنه يفعل فعل السحر .

والحقيقة العلمية أن القرآن فى ترتيب آياته وسوره كما فى المصحف لم يخلُ من أسرار وحكم ، وإن خفيت على البعض ، رغم أنه نزل مفرقاً فى نيف وعشرين سنة لظروف وملابسات .

حقاً إن ترتيب المصحف على خلاف ترتيب النزول ، وتلك معجزة من المعجزات ، وصدق الله العظيم .

﴿ كِتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلَت من لَدُن حكيمٍ خبيرٍ ﴾ من سورة هود.

ولله در ولى الدين الملوى حيث قال : « قد وَهِمَ من قال : لا يطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة » .

وفصل الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة

ترتيبا [١] على أن القرآن الكريم ، وإن كان يجل عن مشابهته لكتب البشر ، فإننا مع هذا نجد فيه ما يشبه المقدمة .

إذ فاتحة الكتاب بالنسبة للقرآن تعتبر كالمقدمة بل هى من أروع المقدمات .

حيث اشتملت على أغراض القرآن الكريم جملة ، إذ تشمل التوحيد والتشريع والقصص . وكان افتتاحها بالحمد لتعليم الناس كيف يحمدون الله الذى أنعم عليهم بالقرآن والإسلام . ولا عجب فهو الرحمن الرحيم ، ثم ذكرتهم باليوم الآخر وما فيه ، ورسمت لهم طريق الخلاص بعبادة الله وحده والاستعانة به وحده ، وعلمتهم كيف يطلبون الخير من الله ، وما هو ؟ مع تذكيرهم بمن سبقهم من الأمم المغضوب عليهم والضالين .

أليست هذه مقدمة اشتملت على مقاصد القرآن العليا .

ثم تعال بنا إلى السور وآياتها أليست أشبه بالفصول والأبواب .

وإذا ثبت أن ترتيب المصحف على خلاف ترتيب النزول قطعاً ، فإذا خلا من الحكمة كان عبثا والعبث على الله محال .

فالقرآن كما هو معجز من جهة فصاحته وبلاغته ، ومن جهة أحكامه وتشريعه ، ومن جهة اشتماله على حقائق علمية بارعة فى خلق الإنسان والنبات والكون والسماوات ـ تكشف عنها الآيات البينات التى أنزلت على العربى الأمى ساكن مكة .

---

(١) تتمة الكلام ـ كما ورد فى الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٠٨ ـ فالمصحف على وفق ما فى اللوح المحفوظ ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر .

وقال الإمام الرازى فى سورة البقرة : ومن تأمل فى لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بفصاحته وشرف معانيه فهو معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته .

إن كان معجزاً من هذه النواحى كلها فهو معجز من ناحية ترتيبه ونظمه فى المصحف مع أنه نزل منجما وسبحان من هذا كلامه .

* * *

أعداء الإسلام يخدمون الإسلام من حيث لا يشعرون ، فهم كالنار تحرق العود والمسك ليذاع سره وتظهر مزاياه ورائحته .

لقد تكلموا عن القصص فى القرآن — وباليتهم لم يتكلموا — تكلموا فقالوا : إن القصة فى القرآن تكررت مراراً وبأساليب متعددة ، ففى المشهد الواحد يأتى القرآن فيقصه عدة مرات بأساليب مختلفة .

ألم تقرأ قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام يخاطب أهله حين رأى النار ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ من النار لعلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ القصص .

﴿ إذ قال مُوسَى لأَهْلِهِ . إِنِّى آنَسْتُ نَارً سآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لعلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ النمل .

﴿إِذْ رَأَى نَاراً فقال لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكم مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ على النَّارِ هُدًى ﴾ من سورة طه : ذلك مشهد واحد جاءت فيه عبارات متعددة .

فما هذا الاختلاف ؟ إنه دليل الاضطراب وعدم القدرة على التأليف .

ثم لم يكتفوا بهذا بل قالوا : إن القصص القرآنى يخالف التاريخ العام .

ومن عجائب القدر أننا نرى أن بعض العلماء الكبار من المسلمين ينسب

إليهم بعض أقوال تصلح سنداً للملاحدة والمستشرقين فى مطاعنهم [١] .

كما ورد فى البحر المحيط لأبى حيان عند الكلام عن الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قوله « والذى مرّ على القرية هو عزير . وقيل أرميا . وقيل : الخضر . وقيل : رجل من بنى إسرائيل غير مسمى ، وقيل : هو غلام لوط .

والقرية : هى بيت المقدس . أو قرية العنب . أو المؤتفكة أو دير هرقل إلخ » .

ويقول الإمام الرازى عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ ويُكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ ﴾ . واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى زمن الطفولة ، واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التى تتوفر الدواعى على نقلها ، فلو وجدت لنقلت بالتواتر ، ولو كان ذلك لعرفه النصارى لا سيما وهم من أشد الناس بحثاً عن أحواله ، وأشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلها ، ولا شك أن الكلام فى الطفولة من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب ، وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد . ولأن اليهود أظهروا عداوته ساعة ما أظهر ادعاء النبوة ، فلو أنه عليه السلام

---

(١) وإحقاقاً للحق إنهم لأماناتهم العلمية يعرضون كل الآراء بأمانة على أنها تُقُولٌ فقط ، وأمامهم فلهم رأيهم الذى لا يتنافى مع الحقائق الإسلامية . حقيقة رأينا عند كثير من المفسرين آراء خطيرة جداً كما فى قصة الغرانيق ، وقصة زينب بنت جحش ، وقصة داود وسليمان . . . . والرأى عندى فى أمثال ذلك أنها مدسوسات عليهم أو هم يحكون ما يروجه ـ ولو خطأ ـ أهل الكتاب بدون تعقيب .

تكلم فى زمن الطفولة وادعى الرسالة لكانت عداوته أشد ، ولكان قصدهم قتله أعظم، فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم .

أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فإنه لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة حد الزنا عليها ، ففى هذا دلالة قوية على كلامه فى المهد ... إلخ ما هو موجود فى تفسير الإمام الرازى .

ونقل عن الرازى فى تفسيره سورة غافر عند قوله تعالى : ﴿ يا هامان ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ المسألة الرابعة ... قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بنى إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً .

ونقل عنه فى تفسيره لقصة بلقيس وسليمان فى سورة النمل ما يلى :

المبحث الأول . . . الملاحدة طعنت فى القصة من وجوهٍ .

كيف خفى على سليمان حال مثل تلك المملكة العظيمة ؟ ! !

إلى غير ذلك . . . . .

* * *

ومسألة ربط القصص القرآنى بالتاريخ ربطاً محكماً .

فقد حاولوا الطعن على القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام ببيان مخالفات تاريخية فى قصص القرآن .

لقد تركز كلام الملاحدة والطاعنين على القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم فى نقطتين .

(١) ترتيب آيات القرآن وسوره مع اختلاف النزول .

(ب) تكرار الموضوع الواحد مع اختلاف العبارة والموضوع واحد. ومجال هذا فى الرسالة كبير وحظه عظيم . أما ترتيب الآيات والسور فيتحلى بالدراسة والبحث المنهجى .

* * *

ولقد ألفت كتب فى هذا الموضوع مثل :

نهاية التأميل فى أسرار التنزيل : (للزملكانى)

بدائع القرآن (لابن أبى الإصبع)

مناسبات ترتيب السور (لأبى جعفر بن الزبير الأندلسى)

نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (لبرهان الدين البقاعى) وهو كتاب مخطوط بدار الكتب ، ولعل أبعد الناس غورا فى هذا البحث من المفسرين .

العلامة الفخر الرازى فى تفسيره . وأبو حيان . وأبو السعود . والنيسابورى . وقد تدق المناسبة فلا يتنبه لها الفحول فيدخلون من باب التنظير ، والاستطراد وحسن التخلص .

وقد ذكر السيوطى فى الإتقان : أن الارتباط بين الآيات من جهة تعلق الكلام بعضه ببعض ، أو لكون الآية الثانية بياناً أو توكيداً . أو للتفسير أو المشاركة فى حكم أو الاعتراض . . . وقد يكون بينهما جهة جامعة كالتضاد أو التنظير أو الاستطراد أوحسن التخلص[1] .

وكما عنى المفسرون قديماً وحديثاً بربط الآيات بعضها ببعض عنى بعضهم بربط السور بعضها ببعض .

ذكر البرهان للإمام الزركشى ص ٣٦ ج ١ ما يأتى نقلا عن أبى بكر

(١) انظر ص ١٠٨ من الإتقان للسيوطى فهناك بحث هام ودقيق فى المناسبة .

ابن العربى فى سراج المريدين : ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة منسقة المعانى منتظمة المبانى ، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد . والظاهر أنه أبو بكر النيسابورى . عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه .

وسنضرب أمثلة قليلة لما نقول :

اقرأ معى أول سورة الإسراء ثم بعد آية واحدة فى الإسراء جاء قوله تعالى : ﴿ وآتينا مُوسَى الكِتَاب وجَعَلْنَاهُ هُدًى لبَنِي إسْرَائِيلَ ﴾ هل هنا مناسبة ؟

نعم إنها مناسبة دقيقة جداً يفسرها الزمن ، فالإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، وبيت المقدس مكان مقدس عندنا ، إذ هو القبلة الثانية للاسلام ، وثالث الحرمين فلابد من التعرض له ببيان الحقائق الدينية التى تتعلق به وخاصة عند اليهود ، حتى تتعلق به قلوب المسلمين فلا يتركونه للصليبيين ولا لليهود ، وليتذكر اليهود ما أنعم الله به عليهم قديماً ، على أن حادثة الإسراء من المعجزات الحسية التى تشبه معجزات موسى عليه السلام فى نوعها ، واختيار هذا الجزء بالذات من قصة موسى لوجه الشبه الدقيق بين الموقفين .

﴿ لِنُرِيَهُ منْ آياتِنَا إنَّهُ هُو السَّميعُ البصيرُ ﴾ .

﴿ وآتينا مُوسَى الكِتَابَ وجعلناهُ هدًى لبنى إسرائيلَ ألاَّ تَتَّخِذُوا من دُونِي وكِيلاً ﴾ وقد كان موقف قريش أشبه ما يكون بموقف اليهود فالكل كذب رسله .

واقرأ معى أول سورة طه وما فيها من نعم أنعم الله بها على نبينا صلى الله عليه وسلم وما ذكر فيها من مظاهر القدرة والعظمة الإلهية ﴿ الله لا إله

إلاّ هُو لهُ الأسماء الحُسنَى وهَلْ أتاك حَدِيثُ مُوسىٰ ﴾ .

تراه انتقل إلى قصة موسى عليه السلام ليذكر نعم الله عليه كنبي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وليثبت رسالة محمد بدليلين القرآن المعجز الذى أنزله: من خَلَقَ الأرض والسموات العلى ومن على العرش استوى ، ومن يعلم السر وأخفى لا إله إلا هو . وبما حواه القصص من علم بأخبار السابقين على لسان نبيّ أميٍّ . ولبيان أن الهدف واحد فى الرسالتين رسالة محمد ورسالة موسى ...

وانظر إلى ترتيب السور :

فها هى ذى سورة البقرة وسورة آل عمران .

ختم الأولى بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله .

ثم افتتح آل عمران بالإيمان بالله وبإنزال القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتب ثم الكلام على الله جل جلاله .

على أن المناسبة بين السورتين أعم وأوسع لاشتراكهما فى إثبات الألوهية عن طريق الأدلة الكونية ، وإثبات الرسالة عن طريق التنزيل ، وعن طريق القصص العلمى .

وهو يخاطب أهل الكتاب فيهما الأولى فى شأن اليهود، والثانية مع وفد نصارى نجران. وفى كُلٍّ فالقرآن كتاب الله مصدق لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليه .

وانظر إلى سورة المائدة والأنعام .

فختام المائدة أساس لبدء الأنعام ، وإن كانت المائدة مدنية والأنعام مكية اقرأ قوله تعالى :

﴿ لله مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ ومافيهنّ وهو على كلّ شىءٍ قَدِير ﴾ آخر المائدة .

﴿ الحمدُ لله الذى خلقَ السمواتِ والأرضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ﴾ .
أول الأنعام ، وانظر إلى سورة الكوثر بعد سورة الماعون .

الأولى فى إنسان مادى بعيد عن الإنسانية فهو أحط إنسان .

والثانية فى أشرف إنسان وأكرم خلق الله على الله .

رأينا أن علماءنا الكبار قد عنوا عناية كاملة . بتفسير القرآن الكريم تفسيراً جمع بين كل جهة فى الكلام من مطول إلى مختصر، ومن واسع تعرض للمذاهب الكلامية والعلمية وبيان آراء الفرق والمذاهب ، ومن ضيق اقتصر على البيان المطلوب ، والبعض نحا بتفسيره ناحية بلاغية ، وآخر نحا ناحية تشريعية ، وثالث نحا ناحية الأبحاث اللغوية ، والحمد لله المكتبة العربية مليئة بكتب التفسير فى جميع المجالات .

وأقل ما يقال فى هؤلاء الأعلام أنهم أناس طوع الله لهم الزمن ، وحباهم بفضل من عنده حتى أفنوا أعمارهم فى خدمة القرآن فجزاهم الله عنا وعن القرآن خير الجزاء .

وقد عرفنا ما وصل إليه الأعلام الأفاضل من أبحاث تتعلق بارتباط الآى والسور، ولكن فيما وصلنا إليه لم يعن علماؤنا الأفاضل بجمع الآيات التى هى فى موضوع واحد وذكرت لغرض واحد وإن اختلف نزولها .

جمعها وترتيبها حسب النزول وبحثها لمعرفة موضوعها حتى تهدم ما تلوكه بعض الألسنة أن فى القرآن تكراراً لا حاجة إليه .

ولم تر إلا القليل نظر فى السورة نظرة عامة يعرف بها الغرض المقصود منها لأول وهلة ،مع بيان أغراضها جملة وربط بعض آياتها ببعض حتى تظهر السورة فى صورة متكاملة متناسقة تامة .

أما الكلام على السورة ككل مع بيان أغراضها العامة والخاصة وما فيها مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض حتى تبدو السورة وهى فى منتهى الدقة والإحكام .

فأول من تكلم عن هذا وكشف عن بعض أسراره هو العلامة الفخر الرازى فله جهد مشكور فى هذا الباب ، وقد سار على منواله بجهد متواضع « التفسير الواضح ».

وللعلامة الشاطبى فى الموافقات بحث ظريف فى هذا الموضوع (المسألة الثالثة عشرة) ص ٢٤٩ ج ٣ مانصه :

إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهى تكون قضية واحدة أى تهدف إلى غرض واحد أو تسعى لإتمامه ، وإن اشتملت على عديد من المعانى ، وضرب مثلا لذلك بسورة المؤمنون .

أما الكلام عن جمع الآيات التى فى معنى واحد وجعلها تحت عنوان واحد وتفسيرها تفسيراً منهجياً موضوعياً .

فذلك منهج جديد لكلية أصول الدين ، ولقد بدأه بالفعل بعض الأساتذة الأفاضل .

وقد جمع بعض الآيات التى فى موضوع واحد وجعلها تحت عنوان واحد. المستشرق الفرنسى فى المعجم المفهرس للقرآن الكريم ، وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ولكن هذا الجمع للنصوص فقط وهو عمل مشكور لمبتدىء فى هذا المضمار ومن مستشرق مهما كان فإنك إن بحثته وجدته جمع بعض الآيات وترك أكثرها .

* * *

أما جمع الآيات التى فى موضوع واحد ، وترتيبها حسب النزول ، مع الوقوف على أسباب النزول ، ودراستها دراسة منهجية موضوعية كاملة لتعطينا موضوعا واحداً له وحدة موضوعية متكاملة متناسقة لا تباين فيها ولا اختلاف . حتى تلتقى جميع هذه النصوص كلها فى مصب واحد مع التعرض لمناسبة الآيات فى سورها فلم يتعرض لها أحد من المفسرين القدامى .

إن الأبحاث فى موضوعات القرآن يجب أن يتجه لها أنظار العلماء عامة وأئمة المفسرين فى عصرنا خاصة حتى يقضى على دعاوى عريضة تحمل معها دعائم بطلانها كقولهم :

ليس فى القرآن ترتيب لآيه وسوره وقولهم إن فى القرآن تكراراً وإعادة ومخالفةً للواقع وخاصة فى القصص والتشريع .

* * *

إن هذا القرآن الكريم مع متانة أسلوبه وقوة بلاغته ، وتكامل أسراره وجوانبه ، نجد فيه ظاهرة عجيبة تلفت النظر وتأسر القلب .

تلك هى تكرار الموضوع الواحد فى سور مختلفة ، وبأساليب متباينة ، فهل هذا التكرار فى الموضوع نقص فى القدرة عن الإبانة ، وعجز عن تتميم العبارة دفعة واحدة ؟

وهل هذا التكرار فى الموضوع — مع أن البلاغة الإيجاز — يعتبر عيباً بلاغيا ؟ ؟ أظنك تعتقد معى أنه لا هذا ولا ذاك .

فإن هذا القرآن الكريم أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ ، ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

هذا الكتاب هو المعجزة الخالدة التى تحدى بها خالقها الإنس والجن العرب وغير العرب ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ من سورة الإسراء .

وإذا كان القرآن الكريم عربيا غير ذى عوج ، ليس فيه اختلاف أو تباين إذا كان ذلك كذلك فعلى أى أساس يكون التكرار فى الموضوع ؟ ! !

فمثلا القرآن الكريم وصف الإنسان بأوصاف متعددة فى أماكن متعددة فى سور مكية تارة ومدنية أخرى كقوله تعالى فى السور المكية :

﴿ كلاَّ إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغى أنْ رآهُ اسْتَغْنى . . . . ﴾ من سورة العلق .

﴿ أرأيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعامِ المسكينِ . . ﴾ من سورة الماعون .

﴿ إنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لكنودٌ ، وإنَّهُ عَلَى ذلِكَ لَشَهِيدٌ . وإنه لِحُبِّ الخَيْرِ لشَديدٌ ﴾ من سورة العاديات .

﴿ أوَ لَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْناهُ منْ نُطْفَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ من سورة يس .

﴿ ويدع الإنسانُ بالشَّرِّ دُعَاءهُ بالخَيْرِ وكانَ الإنسانُ عَجُولاً ﴾ ، ﴿وَكانَ الإنسانُ كَفُوراً ﴾ سورة الإسراء .

﴿وكان الإنسانُ أكْثَرَ شىء جَدَلاً ﴾ سورة الكهف .

﴿ خُلِقَ الإنسانُ منْ عَجَلٍ سأُريكم آياتى فلا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من الأنبياء.

﴿ إن الإنسانَ لَظَلومٌ كَفَّارٌ ﴾ من إبراهيم .

﴿ ولئن أذقْنا الإنسانَ منَّا رَحْمَةً ثم نَزَعناها منه إنه ليَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ من هود .

﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعَا ربَّه منيباً إليه .. ﴾.. من الزمر .

﴿ لا يَسأمُ الإنسانُ من دُعاء الخيرِ وإنْ مَسَّه الشَّرُّ فيَئُوسٌ قَنوطٌ ﴾ من فصلت .

﴿ وَإذَا أنعَمْنا على الإنسانِ أعرَضَ وَنَأى بِجَانِبِه ﴾ من فصلت .

﴿ إن الإنسان خُلِقَ هلوعاً إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعاً ﴾.. المعارج .

﴿ بل يريدُ الإنسانُ ليَفْجُرَ أمامَه ﴾ ..القيامة .

﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ ﴾ ..عبس .

﴿ يا أيها الإنسانُ إنكَ كادِحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فَمُلاقِيه ﴾.. الانشقاق .

﴿ لَقد خَلَقْنا الإنسانَ فى كبد ﴾ .. البلد .

﴿ إن الإنسانَ لفى خُسْرٍ ﴾ ..العصر .

* * *

وفى السور المدنية يقول الله تعالى :

﴿ وَإذْ قَالَ ربُّكَ للملائكةِ إنِّى جَاعِلٌ فى الأرْضِ خَليفَةً قالُوا أتجعلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفكُ الدِّماء ﴾.. البقرة .

﴿ وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً ﴾.. النساء .

أليست هذه أوصافاً كشفت الإنسان وأظهرته على حقيقته وأبانت غرائزه وميوله وطبائعه ولا تنس أن كل آية — وقضية — مناسبة تماماً لما قبلها وما بعدها . انظر إلى قوله تعالى خلق الإنسان ضعيفاً بعد الكلام عن النساء والزواج وأحكام الأسرة . حقاً إن الإنسان ضعيف أمام غريزته الجنسية .

ولقد كرر فى القرآن الكريم غير هذا كثيرا: فى الخمر . القتال . القصص . الآيات الدالة على الوحدانية . وعلى النظام المالى وتشريعاته . وعلى الجنايات وأحكامها . ما هذا : ؟

أهو تكرار لا ترابط فيه أم هناك تباين واختلاف أم هو موضوع واحد متكامل تام ذكر فى عدة سور؟ وفى كثير من السور لكل قضية منه ذكرت فى موضع مناسبة تامة وكاملة. ثم إذا أخذت هذه القضايا المتناثرة لحكم وأسرار وجمعتها تكون منها موضوع واحد متكامل هو مانسميه (بالوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم) أى وحدة الموضوع .

وصدق الله ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحديثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تَلِينُ جُلودُهم وَقُلُوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهدِي به مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلُ اللهُ فما له من هَادٍ ﴾ (٢٣) من الزمر .

ألست معى فى أن ﴿ وحدة الموضوع فى القرآن الكريم ﴾ موضوع هام وبحث جديد يجب أن تتجه إليه أنظار العلماء بحثاً وتنقيباً .

وأما موقفى من هذا الموضوع فله قصة طريفة :

لقد بدأت فى إخراج كتاب التفسير الواضح للقرآن الكريم عام ١٩٥١ ، وانتهيت منه عام ١٩٥٥ والحمد لله قد طبع عدة طبعات ، واستقبله المسلمون فى

كل مكان بصدر رَحْب متجاوزين عما فيه من زلة قلم أو هفوة خاطر .

ولقد خرجت من هذا العمل الضخم بنتائج علمية كثيرة .

ولكن أولى هذه النتائج تجمُّع الآيات التى فى موضوع واحد فى ذهنى ، ولقد رأيت أن القرآن الكريم يطرق الموضوع الواحد بعدة أساليب وفى أماكن كثيرة .

ورأيت أن وراء هذا سراً دقيقاً : ثم حاولت أن أجمع هذه الآيات فى موضوع لأرى ماذا تكون النتيجة ؟ فرأيت بعد هذه الخطوة نتائج مفيدة وقد كان أول شىء لفت نظرى، الإنسان ذلك المخلوق العجيب : فقد تحدث القرآن عن مبدأ خلقه وعن اختلاف لونه وطبعه ، وعن غرائزه وميوله ، وعن مكانته عند ربه . الخ ما قال

ومما قال فى مبدأ خلقه .

١ — ﴿ الذى خلقَ خلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ ﴾ (٣) سورة العلق .

٢ — ﴿ إذ قال ربُّكَ للملائكةِ إنِّى خَالِقٌ بشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ (٧١) سورة ص .

٣ — ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خلَقْناهُ من نُطْفَةٍ فإذَا هُو خَصِيم مبين ﴾ ٧٧ من يس .

٤ — ﴿ أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . . ﴾ ٦١ سورة الإسراء .

٥ — ﴿ ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ٢٦ سورة الحجر .

٦ — ﴿ خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصالٍ كالفُخَّارِ وَخَلَق الجَانَّ مِن مَارِجٍ من نَارٍ ﴾ ١٤ سورة الرحمن .

وهذا مبدأ خلق الإنسان .

فتارة يقول القرآن إنه من علق ، ومرة أنه من طين ، وأخرى أنه من صلصال من حمأ مسنون ، ثم بعدذلك هو من نطفة ، ثم هو من صلصال كالفخار وفى سورة الروم يقول : ﴿ ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ ترابٍ....﴾

فما معنى هذا ؟ وإلى أى شيء تشير هذه الآيات ، وما معنى تعددها ؟ وهل هى تشير إلى شيء واحد وهدف واحد ولكن بطرق مختلفة ؟ !

الحق أن هذا كله كان يدور بخلدى ، ورأيت بعض السادة العلماء يتكلمون عن هذا التكرار فى بعض الجزئيات ويكشفون عن شيء من أسرارها .

فتمنيت من صميم قلبي لو تتاح مثل هذه الدراسة لى أو لغيرى ، المهم أننا نكشف الغطاء ولو بعض الشيء من زاوية حتى يرى جلال الله فى كتابه الكريم ، و نقدم للناس لوناً من ألوان الإعجاز دقيق المأخذ قوى الحجة .

وظل هذا الحلم يراودنى كثيراً بعنف ولكن أثقال الوظيفة وأحمال الحياة تشغلنى حتى أتيحت لى الفرصة وطلبت منى كلية أصول الدين رسالة فى تفسير القرآن وعلومه فهرولت مسرعاً لأقدم رسالة فى موضوع « الإنسان فى القرآن»

و لكنى وجدت زميلا فاضلا اختارها فحمدت الله وقلت : لقد أعطى القوس باريها ولكن هذه الفكرة لازالت فى ذهنى تشغل بالى وهى : الآيات المتعددة فى سوره متعددة وتبحث موضوعاً واحداً كالإنسان مثلا .

لقد رأيتنى مدفوعاً إلى هذا البحث بعد ما أتممت بعون الله وتوفيقه تفسير كتاب الله، ومما دفعنى إليه كذلك أنى رأيت بعض شبهات من المثقفين وأشباههم

حول ترابط الآيات والسور وتكرار الموضوع الواحد ، وللأسف قد تمكنت فى نفوسهم حتى اتخذوها سلماً للطعن على القرآن إما جهلا وحماقة أو لؤماً وسوء نية ، وقد اتبعوا فى ذلك رأى الملاحدة والمستشرقين .

وسميت بحثى هذا (الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم) .

أى وحدة الموضوع فى القرآن الكريم .

ولقد التزمت فى بحثى هذا :

أن يكون البحث منهجياً موضوعيا ومراكز الإشعاع فيه .

(أ) جمع الآيات التى فى موضوع واحد .

(ب) ترتيبها حسب النزول .

(ج) بحثها فى سورتها مع بيان علاقتها بما قبلها وبما بعدها .

(د) بحث تسلسل الموضوع فى السور التى ذكر فيها حتى نصل إلى الغاية المنشودة .

[وهى : الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم]

الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم

الوحدة : وحد يحدّ وحدا ووحدة وحِدَةً ووحودا مثل وعد فى التصريف والوحدة الانفراد فهو وحيد أى منفرد .

ذكر الراغب الأصبهانى فى المفردات ما يأتى « الوحدة الانفراد والواحد فى الحقيقة هو الشىء الذى لا جزء له البتة ثم يطلق على كل موجود ..... فالواحد لفظ مشترك يطلق على ستة أوجه ما كان واحدا فى الجنس مثل الإنسان، والفرس أو النوع مثل محمد وعلى. أو ما كان واحداً بالاتصال فى الشخص أو الصنعة أو ما كان واحداً لعدم النظير مثل الشمس . أو ما كان واحداً لعدم التجزئة فيه مثل الذرة، أوما كان واحداً فى مبدأ العدد مثل واحد . أو فى مبدأ الخط كالنقطة، والوحدة فى الكل عارضة .

ويقول العلامة الشيخ محمد النجار فى مجلة الأزهر عدد رمضان سنة ١٣٧٧هـ ما نصه :

«فأما الوحدة فقد فسرت فى المعاجم بالانفراد ، وتستعمل الان فى معنى الاتحاد أو صيرورة الاثنين فما فوقهما واحداً، فيقال وحدة الدولتين ووحدة قوانين التجارة وكأن هذا المعنى نشأ بالتوسع والتجوز فى المعنى الأول فمن شأن المنفرد الضبط وعدم الانتشار ، ومن شأن التعدد التشتت فاستعملت الوحدة التى أصلها الانفراد فى الإجتماع الذى فيه الضبط والالتئام .

وقد نقل الشيخ عن أبى البقاء فى كلياته : « الوحدة كون الشىء بحيث لا ينقسم وتطلق ويرادبها عدم التجزئة والانقسام » .

الموضوعية: وضع يضع وضعاً — موضعاً — وموضوعاً، والوضع يطلق أولا على الحط مثل وضعت رحلى حططته ، ووضعت المرأة ولدها ألقته ...واستعمل مجازاً فى القرآن الكريم على عدة معان .

« والأرض وضعها للأنام . . . » بمعنى خلقها وأوجدها

« إن أول بيت وضع للناس . . . » بمعنى بنى وخصص للعبادة

« ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » بمعنى حملوكم على السير بسرعة لها

والموضوع فى الكتب المؤلفة « موضوع العلم » مايبحث فيه عن عوارضه الذاتية[1] كجسم الإنسان بالنسبة لعلم الطب ، واللفظ العربى بالنسبة للنحو .

والموضوعية : مصدر صناعى نسبة للموضوع المأخوذ من الوضع .

* * *

عرفنا لفظ الوحدة وأنه بمعنى الانفراد لكنه استعمل فى معنى الاتحاد أى صيرورة الاثنين أو ما فوقهما واحدا ، أى لاتعدد فيه ولا اختلاف ولاشك أن هذا هوهدف الوحدة فإن التعدد ينافيها ، ووقفنا على لفظ الموضوعية وأنها نسبة إلى الموضوع .

أما الوحدة الموضوعية كمركب وصفى فمعناها :

« اتحاد الموضوع الذى ذكر متناثراً وأنه لاتباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى «وحدة الموضوع » :

وأما الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم فالمراد منها :

البحث عن القضايا الخاصة التى عرض لها القرآن الكريم فى سوره المختلفة

---

(١) ليحمل عليه ليتوصل بذلك إلى الغاية المقصودة ففى علم النحو : موضوعه اللفظ العربى الذى يحمل عليه بعض أعراضه الذاتية فيقال الفاعل مرفوع وتلك هى مسائل النحو .

ليظهر مافيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذى نبحثه لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم .

ولنضرب مثلا فى التشريع (تحريم الخمر) . فإنا نجد أن القرآن الكريم تعرض لها فى أربع سور وفى كل سورة كان له معنى وغرض ، فإذا جمعنا هذه القضايا ورتبناها حسب النزول بعد بحثها وفهمها والوقوف على سر نزولها لخلصنا من ذلك كله إلى أن موضوع تحريم الخمر الذى ذكر فى أربع سور يكون وحدة موضوعية تامة كاملة هى تحريم الخمر تحريما كاملا ، وإنما سلك القرآن فى هذه مسلك التدرج والتربية الحكيمة .

ولو نظرنا إلى مسألة القتال . أو الربا لرأيناها كذلك ، وأما مبحث الألوهية من العقيدة فإنا نجد أن القرآن تكلم عنها كثيراً ، وعرض لها فى شتى صورها المختلفة ، ولفت نظرنا إلى الكون كله وما فيه .

ولكن بعد البحث والدقة فى الفهم نخلص إلى حقيقة واحدة : كل هذه القضايا التى ذكرت تكون وحدة موضوعية كاملة وسبحان من هذا كلامه .

* * *

والرسالة تشتمل على أربع دعائم ، هى عمد البحث وركائزه ثم على ثلاثة أمثلة قرآنية تثبت تلك النظرية .

الدعامة الأولى

تكرار الموضوع الواحد في القرآن الكريم

وله أربعة أبحاث :

حتمية التكرار .....

كل سورة لها نظام خاص ....

الصورة البيانية في التكرار ...

تعدد الموضوع الواحد بتعدد دواعيه...

البحث الأول

١ — حتمية التكرار للموضوع الواحد ليتحقق المنهج الموضوعى للقرآن الكريم فى أداء رسالته .

* * *

القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس جميعاً . جاء لينقذ البشرية من وهدة الضلالة ويخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ويهدى من يشاء إلى إلى صراط مستقيم .

﴿الر كِتابٌ أنزلْناهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ من الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذْنِ ربِّهِمْ إلى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ من سورة إبراهيم .

القرآن كتاب الله وحجته على خلقه ، وآيته الناطقة على قدرته وعلمه ، ومعجزته الباهرة على صدق رسوله الأمين إلى الناس أجمعين: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِم أنَّا أنْزَلْنا عليكَ الكتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ العنكبوت آية ٥١ .

﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أنزلَ إليك أنزلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُون وَكَفَىٰ باللهِ شَهِيداً﴾ ١٦٦ من سورة النساء .

القرآن الكريم آخر كتب الله نزولا — فنزل مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه قال تعالى : ﴿وأنزلْنا إليكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يديْهِ منَ الكتابِ وَمُهَيْمِناً عليهِ﴾ ٤٨ من المائدة .

﴿الَمَ اللهُ لا إلَهَ إلاّ هُو الحَيُّ القَيُّومُ * نزَّلَ عليكَ الكتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيه وَأنزلَ التَّوْراةَ وَالإنجيلَ من قَبلُ هُدًى للنَّاسِ وَأنزَلَ الفرْقَانَ ...﴾ ٤ من آل عمران .

وقد وسع كل مامضى ، وحكم فى كل ما وقع وما سيقع ، ورسم الخطة المثلى للغيب المحجوب فى ضمير الزمن ..

القرآن الكريم جاء لإصلاح البشرية ، وإنقاذها من براثن الجهل والعبودية والذلة والخضوع لغير الله . جاء ليرد للانسانية كرامتها المفقودة وللناس حُقُوقَهم المسلوبة فى عبادة صنم أو وثن أو الخضوع لوهم أو بشر . ﴿ اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الكِتابَ بالحَقِّ وَالمِيزانَ ... ﴾ ١٧ من سورة الشورى .

﴿ ياأيُّها الناسُ قَدْ جاءكم الرَّسُولُ بالحقِّ مِن ربِّكم فآمِنوا خيراً لكم ﴾ ١٧٠ من النساء . ﴿ أوْ تقُولوا لَوْ أنَّا أُنزِلَ عَلَينا الكتابَ لكُنَّا أهْدَى منهم . فَقَدْ جاءكم بَيِّنَةٌ مِن ربِّكم وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ... ﴾ ١٥٧ من سورة الأنعام .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لامُبَدِّلَ لِكَلِماته . . . ﴾ ١١٥ من سورة الأنعام . ﴿ إنَّ هذا القرآن يَهْدِى للَّتى هِىَ أقومُ وَيُبَشِّرُ المؤمِنِينَ الَّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لهم أجْرًا كبيراً ﴾ ٩ من سورة الإسراء .

القرآن الكريم كتاب الوجود الأبدى ، فيه دواء لكل داء ، وعلاج لكل مرض ، وشفاء لما فى الصدور : ﴿ مافَرَّطْنَا فى الكتابِ مِنْ شَىْء ﴾ ٣٨ من الأنعام . ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ماهُوَ شِفَاء ورحمةٌ للمؤمنينَ ، ولا يزيدالظَّالمين إلاَّ خَسَارا ﴾ ٨٢ من الإسراء .

والناس مختلفون متباينون ، فمنهم الشقى ومنهم السعيد ، ومنهم السهل ومنهم الصعب ، ومنهم من شرح الله صدره فهو على نور من ربه ، ومنهم من ختم الله على بصره « فمنهم شقى وسعيد .... » ١٠٥ من هود .

﴿ وَأنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ ١١ من الجن .

روى الإمام البخارى فى صحيحه (باب فضل من علم وعلم) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«مَثَلُ ما بَعثَنى اللهُ به من الهدى والعلمْ كمثلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً فكانَ مِنها نَقِيَّةٌ قَبِلت الماء فأنبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ ، وكانت منها أجادبُ أمْسَكَتِ الماء فنفع اللهُ بها الناسَ فشربُوا وَسَقَوْا وزَرَعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرَى إنما هى قِيعانٌ - لا تُمسِكُ ماء ولا تُنبت كَلئا فذلك مثلُ مَنْ فَقُه فى دين الله ونفعَه ما بعثَنى اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمَثَلُ منْ لم يَرفَعْ بذلك رأساً . ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذى أُرسِلْتُ به» .

ورواه الإمام مسلم كذلك فى صحيحه « كتاب الفضائل » ورواه النسائى فى باب العلم فمن الناس من إذا فتحت لهم باب الخير ودللتهم عليه ولجوه فى يسر وسهولة ، ومنهم من لا تجدى معه إلا العصا أو السيف . ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهارُ وإنّ منها لما يَشَّقَقُ فيخرج منه الماء وإن منها لَمَا يَهْبِطُ مِن خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤ من البقرة .

﴿ إنا جَعَلنا فى أعناقِهم أغلالاً فهى إلى الأذْقَان فَهُم مُقْمَحُون * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أيديهم سَدًّا وَمِنْ خَلفِهِمْ سَدًّا فأغْشَيْناهُم فَهُمْ لا يُبْصِرون * وَسَوَاءٌ عليهِمْ أأنذَرْتَهم أمْ لم تُنذِرْهم لا يُؤْمِنُون * إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذكرَ وَخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ ﴾ ١١ من سورة يس .

﴿ فمن يُردِ اللهُ أنْ يَهْدِيَه يشْرَحْ صدرَه للإسلام ، وَمَنْ يُردْ أن يُضِلَّه يَجْعلْ صدرَه ضَيِّقاً حَرجاً ، كأنما يصَّعَّدُ فى السَّماء كَذلك يجعَلُ اللهُ الرجْسَ عَلَى الَّذِين لا يُؤمنُون ﴾ ١٢٥ من الأنعام .

أما اختلاف الناس فى طبائعهم وعقولهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم — ميولهم واتجاهاتهم زيادة عن اختلاف اللون الجلدى — فتلك آية من آيات الله الكبرى الدّالة على ألوهيته وقدرته وعلمه .

﴿ ومن آياته خلقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم ﴾ ٢٢ من الروم . وهى كذلك حقيقة واضحة معروفة للكل بل أصبحت بدهية لا تحتاج إلى بيان أو كشف فالله يقول :

﴿ إنّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إنا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ٣ من سورة الإنسان .

﴿ وقَطَّعْنَاهُم فى الأرضِ أُمَمًا منهمُ الصَّالِحُونَ ومنهم دُون ذلكَ ﴾ ، ١٦٨ من الأعراف . ﴿ ولو شاء رَبُّكَ لجَعَلَ الناسَ أمةً واحِدةً ولا يزالُون مُختلِفين إلاَّ مَنْ رحِمَ ربُّك ولذلِكَ خلَقَهمْ ... ﴾ ١١٩ من هود .

والقرآن الكريم كما عرفنا له أهداف وأغراض إذ هو كتاب الوجود من رب الوجود فهو إذا لتحقيق هذه الأغراض ، وللوصول إلى هذه الأهداف لابد أن يطرق الموضوع الواحد عدة مرات ، مرة بالشدة وأخرى باللين ، وتارة بالتصريح ، وأخرى بالتلميح مرة بضرب الأمثال ، وأخرى بتأييد المقال .

وكان لابد فى علاجه للأمراض المستوطنة من أن يسلك طرقا متعددة ، وأساليب متباينة تبعاً لتباين الناس فى استعدادهم ، وأن يمر بمراحل ، ويتطور فى علاجه تبعاً لعمق الداء واستفحال المرض حتى يصل إلى العلاج الناجع والدواء الشافى .

البحث الثانى

كل سورة لها حدود ورسوم وأهداف وأغراض تدور حولها ، فتعرض لتحقيق ذلك إلى عدة معان ، وتأخذ من كل معنى ما يتناسب مع هدفها .

* * *

اقتضت حكمة الله الخبير البصير أن يكون كتابه العزيز المقروء فى المصحف وفْقَ كتابه المكنون فى اللوح المحفوظ، وإن كان النزول على خلاف ذلك .

وكان القرآن المجيد فى ترتيب المصحف على سور ، كل سورة مكونة من آيات ، وأقصر السور ما اشتملت على ثلاث آيات ، وأطولها يزيد على الثمانين بعد المائتين. واقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تكون أغلب السور قد جمعت بين آيات مختلفة النزول زماناً ومكاناً ، ولكن لأمر ما وسر دقيق جمعت فى سورة واحدة تهدف إلى غرض واحد له فى الغالب مقدمات ونتائج .

وهذا موضوع دقيق المأخذ صعب المسلك ، لا يناله إلا من أشرب قلبه حب القرآن ، ونأى بنفسه عن كل ما يخالفه . وإذا كان الأمر كذلك فما هى السورة من القرآن ؟

السورة قطعة من القرآن الكريم لها أول وآخر ؛ وهى فى اللغة مأخوذة من سَوْرَة الأسد وسورة الشباب بمعنى القوة فى كل ، ولاشك أنها قوية فى ذاتها وأقوى من الآية ؛ أو هى مأخوذة من السور بمعنى الجماعة لأنها تجمع بين آيات متعددة ، ومعان كثيرة ، أو هى مأخوذة من السور المحيط بالأبنية لأنها تحيط بآياتها ومعانيها .

هذا إذا كانت بلا همز فإن كانت مهموزة فهى من السؤر لما بقى من الشراب، ولاشك أنها بقية من القرآن ، أو هى بمعنى الرفعة والمنزلة العالية ولاشك أنها رفيعة القدر كبيرة المقام ، وفى هذا يقول النابغة الذبيانى يمدح ويعتذر للنعمان بن المنذر :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب[1]

والملاحظ أن سور القرآن نوعان :

(١) نوع يشتمل على غرض واحد، وإن استتبع نظرات جانبية وأغلب ذلك فى المفصل اقرأ معى سورة الماعون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

ثم اقرأ سورة الفيل .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .

وسورة الكوثر :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

وهناك من سور المفصل ما اشتمل على قضيتين مثل سورة العلق ، الأولى من أول السورة إلى قوله ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والثانية فيما بقى إلى آخر السورة .

---

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهانى فى المادة ، وكتاب بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ٨٤ ، وكتاب الإتقان للسيوطى ج ١ ص ٥٢ ط الحلبى .

ثم أقرأ سورة الكافرين ... ثم سورة النصر .فكل منهما فى غرض واحد . . . ولكن مع التباين الكامل فهما إلى الضدين أقرب .

فالأولى مكية مثل فى المسالمة والموادعة .... والثانية مدنية تشم منها رائحة العزة والنصر لله ولرسوله وللمؤمنين . إذ هى نازلة فى حجة الوداع .

(ب) نوع آخر لم يقتصر فيه على غرض واحد بل جمع أغراضاً عديدة ، وطرق موضوعات كثيرة وإن كان للجميع هدف واحد . ونهاية واحدة . وتلك معجزة من أروع المعجزات التى امتاز بها القرآن الكريم .

وإن أردت الدليل العملى فتعال معى نقرأ سورة البقرة أو النساء .

وسورة البقرة قد أفاض فى الكلام عليها الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه النبأ العظيم ص١٨٥ .... ونحن هنا نختار الكلام على سورة النساء .

وهذه السورة العظيمة الشأن لها هدفها الذى تطلعت إليه من أولها إلى آخرها هذا الهدف هو : استقرار الأمن للدولة مع وضع الأسس الثابتة والدعائم الصحيحة له وهى فى تحقيق هذا كان لها غرضان أساسيان .

(ا) استقرار الأمن العام للدولة بالاستقرار الداخلى للأسرة والمجتمع .

(ب) استقرار الأمن العام للدولة بالاستقرار الخارجى للأمة كلها .

وكان سلوك القرآن فى هذا سلوك العليم الخبير البصير بخلجات النفوس وخطرات القلوب ،لهذا تراه يبدأ السورة ببدء عجيب «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربكم الَّذِى خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» .

نادى الناس جميعاً ليلتفتوا بإنسانيتهم إلى ما سيأتى إذ الخير كله لهم جميعاً اتقوا الله ربكم الذى ربا كم وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ورعاكم حق الرعاية

وأنتم لا تعلمون شيئاً ، ثم جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لتحيوا فى الدنيا وتنعموا بها وأنتم فى هذه الدنيا مع اختلافكم فى الألوان والأجناس والشعوب تنتمون لأصل واحد فالناس لآدم ، وآدم من تراب .

وقد خلق الأم حواء من نفس آدم وجنسه فكنتم أنتم وذريتكم . فالناس جميعاً أسرة واحدة أب واحد وأم واحدة ! ! فيجب أن يسود المجتمع الأكبر روح الإخاء والمحبة ، وأن يسود المجتمع الصغير والكبير روح التعاون والتساند والتعاطف والمودة .

وهذه الأسرة الصغيرة يجب المحافظة عليها بوضع الحدود والرسوم التى تقوم الميول وتعدل الغرائز ، وذلك يكون بكبح جماح النفس من ناحية المال . ومن ناحية الجنس . فكان الأمر بالمحافظة على مال الضعيف وخاصة اليتيم .

وبالمحافظة على المرأة وكرامتها بتعدد الزوجات مع العدل . وإيتاء الصداق نحلة ـ وبتقرير مبدأ الميراث لكل ذى قرابة من جهة الأصل أو الفرع أو المصاهرة .

ثم المحافظة على حدود الله بتحريم الزنا ، والله قد خلقنا ضعافاً أمام الغرائز الجنسية ، لذا فتح الباب للتوبة وحث عليها ، وبين وقتها . وحارب بعض العادات الجاهلية التى كانت سبباً فى انتهاك حرمات الضعاف من النساء وغيرها وحدد المحرم من النساء حفظاً لكرامة المرأة والرجل ، ومحافظة على صلات القربى .

وهذا كله بشرعه الله لحماية الأسرة من عوامل الانحلال والدمار ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « ٢٦ » من سورة النساء .

ثم حدَّد الحدود بين الرجال والنساء ، فلكل حق . وعلى الكل واجب لا فرق بين الرجل والمرأة إلا أن الرجل هو القوّام عليها وعلى بيت الزوجية .

والله خلقنا ويعلم ما عندنا ، ويعلم ما ينجم عن الاحتكاك وتضارب الآراء بين الزوج والزوجة ، وما ينجم عن ذلك من نزاع قد يودى إلى خصام أو أكثر . لهذا ذكر العلاج ، ولم يغفل مبدأ تحكيم العدول من أهلها وأهله . فإن أرادا إصلاحاً وفّقَ الله بينهما وإن لم يجد شيء من هذا ولم ينفع فالعلاج فى حسم النزاع بالطلاق ، وإن يتفرقا يغن الله كلامن سعته .

وسط هذه المعركة الدائرة التى قد تنشأ فى الغالب من ضعف الوازع الدينى التفت إلى الروح يقويها ويطهرها فأمر بعبادة الله وحده وعدم الاشراك به شيئاً أياً كان ليكون هذا التشريع الحكيم متمشياً مع المبدأ المستقيم الذى هو الأساس له .

ثم تعرض للصلاة وأحكامها كدعامة من دعائم بناء الفرد والمجتمع لما فيها من غرس مبدأ المراقبة لله فى جميع الأوقات حتى يكون لهذه المراقبة أثرها فى الناحية العملية وحتى تكون حاجزاً لخطرات النفس الأمارة بالسوء .

أرأيت إلى القرآن الكريم وهو يضع فى تلك السورة الكريمة أسس الاستقرار الداخلى للأمة بتنظيم الأسرة تنظيما يكفل لها البقاء مع السعادة الكاملة وإلى تنظيم المال تنظيما دقيقاً يمنع الاستغلال ـ فى حق اليتيم والضعيف ـ ولم يغفل مبدأ التجارة وأسسها ودعائمها وصدق الله إذ يقول : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأكُلُوا أموالَكُم بَيْنَكُم بالبَاطِلِ إلاّ أن تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ولا تَقْتُلُوا أنفُسَكُم إنَّ الله كانَ بِكُم رَحِيما ﴾ ٢٩ من النساء . وانظر إلى ما تخال ذلك كله من الرجوع إلى الله والحث على عبادته والنهى عن الشرك وكل إثم ،

مع الحث على الصلاة . ويلاحظ فى هذه السورة التى تعرضت للقرابة و الرحم والصلات الخاصة فى الأسرة والعامة فى الوطن كله بتشريعات متعددة متكاملة .

يلاحظ أنها تستند إلى الضمير والخلق والمثل والإنسانية كما تستند إلى التشريع والقانون مثلا ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ . ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيبا ﴾ . « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ . ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .... ﴾ .

هذه هى سورة النساء تزيد على قانونية التشريع وتطالب الناس أن ينعموا بروح الخلق وسمو العمل وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم بعد ذلك ..... اتجهت السورة إلى الأمن العام للدولة واستقراره لها . فحذرت من العدو الداخلى المتمثل فى المنافقين . واليهود القاطنين بالمدينة ثم من العدو الخارجى المتمثل فى كفار قريش وحلفائهم .

وهناك صنف من المنافقين نفاقا دوليا وهم أولئك الذين يريدون أن يأمنوا المسلمين وفى الوقت نفسه يريدون أن يأمنوا قومهم من المشركين .

﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . . ﴾ ٩١ النساء

ومن هنا بدأ القرآن الكريم فى هذه السورة معلناً حقائق عن اليهود فى أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، وأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون

الهجر من القول ، وأنهم يزكون أنفسهم مفترين على الله الكذب ، وأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون كذباً وزورا للمشركين :

﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا . . ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ . . . ﴾ من آية ٤٤ ـ ٥٥ من النساء .

ثم يبين مالهم يوم القيامة يوم تبدل جلودهم ومراكز إحساسهم كلما نضجت حتى لا تموت فيهم المشاعر ومراكز الإحساس التى بها يشعرون بالعذاب ، وهذه التعاليم كلها أمانة فى أعناق الأمة من حيث هى أمـــة ، وفى أعناق الأفراد من حيث هم أفراد ، وأن الله يأمرنا أن نؤدى الأمانة ولا نخونها .

ثم بين أسس التشريع الإسلامى ، وأن الخـــير فى اتباعها ، والضلال والخسران فى تركها . ثم ضرب الأمثلة بمن ترك حكم الله واحتكم إلى الطاغوت كما فعل اليهود وهؤلاء يجب الحذر منهم فهم سوس ينخر فى عظام الدولة .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً . وإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ ٧٢ من سورة النساء . ثم جاء دور الاستقرار الخارجى فى التشريع .

والاستقرار الخارجى للأمة يكون بإثبات شخصيتها والمحافظة على كيانها بمسالمة من يسالمها وبمعاداة من يعاديها ، وبتوحيد صفوفها ، والحذر من دعاة الشر والهزيمة من المنافقين الذين هم أخطر على الأمة من أعدائها . ولذلك امتلأت السورة بالكلام على المنافقين الذين يتحالفون مع الأمة الإسلامية ، حتى إذا جدَّ الجد وحزب الأمر ، انهزموا عنها ، وتركوها تصطلى بالنار وحدها . ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُم . . ﴾ ٩١ من سورة النساء .

وهؤلاء غير المنافقين الذين يعيشون مع النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة، فإنه لم ينفذ فيهم قول الله فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا. مع أن السورة لم تغفل ذكر آيات لبيان أحكام القتال، ونصائح تهديها للمحاربين، كالتريث وعدم التسرع، والأخذ بجانب حسن النية، والبعد عن إذاعة الأخبار والبعد عن الاشتراك فى كل ما يضر بالدولة مع الحث دائماً على القتال فى سبيل الله، وبيان موقف المجاهد فى سبيل الله وعاقبته يوم القيامة، مع ذكر صلاة الحرب وكيفيتها. ثم تعرضت السورة لأمر من أخطر الأمور فى المجتمع، وهو محاولة خداع الحكام وتضليلهم، والدفاع عن القريب والصديق ولو بالباطل. وتعتبر هذه دعامة من دعائم المجتمع الإسلامى الصحيح.

ثم عرض للمشركين من أهل الجزيرة العربية لبيان خطرهم وبيان عقائدهم، ودعا مرة ثانية لبعض نواحى الاستقرار الداخلى بعلاج بعض حالات الأسر وبتقرير مبدأ قول الحق والبعد عن الزور، ثم التعرض للمنافقين ببيان أعمالهم وعاقبتهم، والمنافقون فى المدينة كان أكثرهم من اليهود فذكر بعض سوآتهم قديما وحديثاً وكانت الخاتمة ببيان الوحى الإلهى، وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بدعاً وأنه قد جاءنا بالحق ثم دعا أهل الكتاب إلى الاعتدال فى الرأى والقول الحق فى شأن عيسى إذ ليس هو إلها ولا ابن إله، وليس هو ابن زنا، ولكنه عبد أنعم الله عليه وجعله مثلا لبنى إسرائيل، وكما بدأ السورة بالكلام عن الأسرة ختمها بها والله أعلم.

ولقد ذكر الدكتور محمد عبد الله دراز بعد دراسته لسورة البقرة ما يأتى:

« إن السياسة الرشيدة فى دراسة النسق القرآنى تقضى بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدم الناظر إلى البحث فى الصلات

بين جزء منه . وهى تلك الصلات المبثوثة فى مثانى الآيات ومطالعها ومقاطعها إلا بعد أن يحكم النظر فى السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معواناً له على السير فى تلك التفاصيل عن بينة» .

فقديماً قال الأئمة[1] إن السورة مهما تعددت قضاياها فهى كلام واحد يتعلق آخره بأوله ، وأوله بآخره ، ويترامى بجملته إلى غرض واحد ، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض فى القضية الواحدة وأنه لا غنى لمستفهم نظم السورة عن استيفاء النظر فى جميعها كما لاغنى عن ذلك فى أجزاء القضية[2] .

ألست معى أن السورة القرآنية احتوت على معانٍ كثيرة ، بعضها متعلق بالبعض فى وحدة تامة لأنها تعتبر قضية واحدة نازلة لغرض خاص ، فلا محيص لمن أراد الفهم أن يرد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره .

فإن من يغرق النظر فى الآيات على أنها منفصلة تماماً عن غيرها ، ولم ينظر نظرة إجمالية عامة فى السورة وفى هدفها العام لم يحصل له إلا فهم ظواهر الألفاظ بحسب الوضع اللغوى فقط لا بحسب المقصود الأعلى المتكلم ، ومما يأخذ بيده إلى فهم المقصود الأعلى والغرض الأسمى للكلام النظر فى أسباب النزول مع ضوابطه العلمية التى توقفه على حقائق الكلام ولا تتضح إلا عن هذا الطريق .

---

(١) القائلون هم النيسابورى والرازى . وأبو بكر بن العربى . وبرهان الدين البقاعى والشاطبى .

(٢) هذا النص المذكور ذكره الدكتور عبد الله دراز فى كتابه «النبأ العظيم» ، وذكر أن الرأى مستنبط مما فى الموافقات وذلك فى ص ١٧٩ .

ولقد ضرب صاحب الموافقات الشاطبي مثلا على ذلك بسورة المؤمنون ، وقدم بحثاً دقيقاً للسورة ، وهو بحث يعتبر منارة فى الأبحاث التفسيرية . وهذه خلاصته : أن سورة المؤمنين نازلة فى قضية واحدة ، وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها مكية ، وغالب المكى أنه مقرر لثلاثة معان ترجع كلها إلى معنى واحد هو :

الدعوى إلى عبادة الله الواحد القهار . وهذا يقتضى تحقيق وتقرير أمور ثلاثة :

(ا) تقرير الوحدانية لله تعالى بنفى الشركاء عنه ، وبيان أنه وحده هو الخالق البارىء الذى فطر السموات والأرض ، وكشف ستر الآلهة المزعومة التى تعجز عن أن تنقذ نفسها مما يصنعه الذباب بها ، ونفى أن تكون عبادتها زلفى إلى الله ، وطبعاً من كان كذلك فليس له ولد ولا والد ولم يكن له كفواً أحد .

(ب) تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه مرسل من عند الله ، وأنه صادق فيما ادعاه عن نفسه، وعن أن القرآن كلام الله أنزل عليه، فهو ليس كاذباً ولا ساحراً ، ولا كاهناً ، ولا مجنوناً .

(ج) إثبات البعث يوم القيامة ، وأنه حق لاريب فيه .

تلك هى المعانى الثلاثة التى اشتمل عليها القرآن المكى ، وما يرى أنه خارج عنها فهو راجع إليها بلا شك . وطبعاً يتبع ذلك ترغيب وترهيب ، وذكر للجنة والنار . وضرب الأمثال بالأمم السابقة وقصصها بقدر مايلتئم مع الجو العام للسورة .

وبيان ذلك بالتفصيل فى سورة المؤمنين . هذه السورة تمتاز عن غيرها من السور المكية بأنه يغلب عليها طابع تقرير النبوة حيث قد أنكر الكفار

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه بشراً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ترفعاً منهم أن يرسل إليهم بشرا مثلهم بقودهم .

﴿ وقالوا : لَوْلا أُنزلَ عليه مَلَكٌ ولَوْ أنزَلْنا مَلَكاً لَقُضِىَ الأمرُ ثم لا يُنظَرُون . ولَوْ جَعَلْناه مَلَكاً لَجَعلْناه رَجُلاً وللبسنا عليهم مايلبسون ﴾ . ٩من الأنعام : ﴿ وقالوا : ما لِهذَا الرَّسُول يأكُلُ الطَّعَامَ ويمشِى فى الأسْواقِ لَوْلَا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ معه نَذِيرا ﴾ ٧ من الفرقان .

فجاءت هذه السورة تبين وصف البشرية وكالها البشرى الذى يستحق الاصطفاء والرفعة. ألا ترى أنها بدئت ببيان من أفلح من المؤمنين وصفاتهم ، ثم بينت أصل الإنسان وتطويره ليؤمن بقدرة الله وأنه هو الخالق البارىء وأن من قدر على ذلك فهو القادر على كل شىء .

ثم تعرضت لنعم الله على الإنسان حيث أنزل من السماء ماء ، وأنشأ لك يا ابن آدم أثاثاثم عليها وعلى الفلك تحملون أيليق بك أن تعصى أمره وتخالف نبيه ؟!

ثم ضربت الأمثال بقصص الأنبياء والأمم السابقة ضاربة على وتر واحد فى هذه السورة مبينة أن سبب الكفر فكرة خاطئة ، هى أن البشرية تتنافى مع الرسالة فكل من ادعى النبوة من البشر ليس نبياً حقاً . ففى قصة نوح عليه السلام :يقولون : ﴿ ماهَذا إلا بَشَرٌ مثلُكم يريد أن يَتَفَضَّل عَليكم ولو شَاء اللهُ لأنزَلَ مَلائكةً ماسَمِعْنا بهذَا فى آبائِنا الأوّلينَ ﴾ ٢٤ من المؤمنون .

وهذا رسول آخر يقول لقومه : ﴿ أن اعْبُدُوا اللهَ مالكم مِنْ إلهٍ غَيرُه أفلا تَتَّقُون. وقال الملا مِنْ قومه الَّذينَ كفروا وكذبوا بلقاء الآخِرَةِ وأترَفْناهُمْ

في الحياة الدنيا ماهذا إلا بشرٌ مِثْلُكم يأكلُ مما تأكلون منه ويشربُ مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ ٣٤ المؤمنون . وهذا موسى وهارون أرسلا بعد قرون كثيرة بآيات الله وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ... ﴿فقالوا : أنؤمنُ لبشرين مثلنا وقومُهما لنا عابدون﴾ ٤٧ من المؤمنون .

كل هذا تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ليعلم أنه ليس بدعا من الرسل، وأن الناس هم الناس وأن طريقة التكذيب واحدة ، وأن النهاية واحدة للجميع « فأخذتهم الصيحةُ بالحقِّ فجعلناهم غُثاء فبُعداً للقوم الظالمين » ٤١ المؤمنون .

ثم ذكر قوام البشرية الصحيحة : أن يأكل الناس والرسل من الطيبات ، وأن يعملوا الصالحات ، وألا يغتروا بما أوتوا من مال وبنين ، فإن الكريم عند الله هو التقى الأمين .

ثم أخذ يصور لهم بعض مشاهد القيامة تصويراً رائعاً يزلزل القلوب ﴿ حتى إذا أخذنا مُترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون : لا تجأروا اليومَ إنكم منا لا تُنصرون، قد كانت آياتي تُتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ ٦٦ من المؤمنون .

يا أيها الناس تذكروا ما يصيبكم يوم القيامة واعملوا لهذا اليوم . ولا تنكروه فالله الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، والذى ذرأكم فى الأرض ، وهو يحيي ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار. قادر على أن يحيي الموتى ويبعثكم ليوم الجزاء ولا تقولوا « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » ؟ !

عجبا لكم إذا سُئِلتم لمن الأرض ومن فيها ؟ من رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم؟ من بيده ملكوت السموات والأرض وهو يجير ولا يجار عليه ؟ ستقولون الله !!

عجباً لكم فلم لم تخصوه بالعبادة وتفردوه بالوحدانية . وأما أنت يامحمد فادفع بالتى هى أحسن ، وقل رب إنى أعوذ بك من همزات الشياطين . واذكر لهم بعض مشاهد القيامة التى يظهر فيها المؤمن والكافر واسمع قوله تعالى : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » إلى آخر السورة .

ويقول الشاطبي بعد ماعرض للسورة عرضاً إجمالياً « فسورة المؤمنين قصة واحدة فى شىء واحد ، وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون فإنما ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم وتثبيت لفؤاده، لما كان يلقى من عناد الكفار؛ وتكذيبهم له على أنواع مختلفة فتذكر القصة على النحو الذى يقع له مثله وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال. والجميع حق واقع لا إشكال فى صحته »(١)

ويمكننا أن نقول استنادا لما رويناه من آراء جهابذة العلماء وبما قمنا به من أبحاث أن :

١ — السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد قد يستتبع أغراضاً مختلفة غالباً .

---

(١) الموافقات للشاطبي ص ٣٥٣ ج ٣ ط المطبعة السلفية تعليق الشيخ محمد حسنين مخلوف مع الشيخ الخضر حسين .

٢ — السورة الواحدة لها طابع خاص فى اللفظ والسياق والفواصل وختام الآيات ولها فى الوصول إلى هدفها طرق خاصة .

٣ — كل موضوع ذكر فى السورة سواء كان قصة أو غيرها فهو مناسب كل المناسبة للسورة ولا بد منه .

٤ — إذا كرر الموضوع الواحد فهو فى كل سورة يناسبها شكلا وموضوعا.

٥ — لم تكرر القصة فى سورة واحدة أبدا .

البحث الثالث

العجيبة البيانية التى انتهجها القرآن الكريم

فى جمع أشتات من الكلام مختلفة النزول زمانا ومكانا مع اختلاف الغرض ، ثم هو بعد ذلك يكون منها وحدة تامة فى السورة ، وهى فوق ذلك لها جرس خاص ، وموسيقى خاصة لا توجد فى غيره أبداً . فإذا جمعت الآيات التى هى فى موضوع واحد وقد ذكرت فى سور متعددة لرأيتها تكون صورة تامة كاملة له ، وتلك عجيبة أخرى .

* * *

أليس هذا إعجازاً ؟ ! ! وأى إعجاز أقوى من هذا ؟ !

إنه الإعجاز الذاتى يتعلق بجميع أجزاء القرآن فى الكلمة والجملة ، والآية والسورة ، إنه الإعجاز الذى أعجز العربى الجاهلى وجعله يسجد لبلاغة القرآن . وما عداه من أنواع الإعجاز فإنما توجد فى بعض أجزاء القرآن وليس مرجعها ذاته ، وإنما ترجع إلى بعض مشتملات القرآن من التشريع والأخبار بالمغيبات . والحقائق العلمية .

* * *

إن الأديب إذا أراد أن يكتب رسالة أو بحثاً فى موضوع خاص . خطط له وبحثه . ورتبه ووضع له صورة فى ذهنه . ثم هو بعد ذلك يحاول أن يبرزه فى صورة كاملة ، وبشكل جذاب ينبىء عن قدرته العقلية وقوته العلمية ، وسعة خياله . وهذا ليس بالأمر الهين كما يظنه بعض من ليس له بصر بذلك الفن ، وإذا كان الأمر كذلك عند الكلام أو التعبير عن معنى واحد فى

صورة واحدة ، فما بال مقالة أو سورة اشتملت على عدة معان وسلكت عديداً من الأغراض وجمعت فى إطار واحد بين أمور مختلفة فى النزول زماناً ومكاناً مختلفة فى الباعث والغرض . إنه لمن أصعب المواقف على الأديب أو المصور أن يجمع فى مقال واحد أو صورة واحدة عدداً من الأغراض والألوان بجمعها بلا فواصل وبلا حدود. بل الأعجب من هذا أن هذه بأوصافها تكون متآلفة لا متباينة ، ليس فيها شذوذ ولا تنافر ، فهى إذا جمعتها عجب ، وإذا أفردتها عجب ، فهى عجب فى عجب .

الأديب إن أجاد فى الكلام على معنى واحد قد لا تجده يجيده لو تكلم على أكثر من معنى ويظهر فى كلامه الاقتضاب والانفصال ، وإن وسعه النظم وأسعفته العبارة يقول عَدِّ عن ذا . أو . . ألا وإن أو . . . هذا . . . أو . . لننتقل . . . أو . . . سنقول (الخ) هذا شأن الأغراض المتعددة إذا تناولها الأديب فى مقال واحد .

ولكن ما بال مقالة (سورة) تجمع عديداً من الأغراض ، وشعباً من المعانى لم تكن فى وقت واحد مع جارتها نزولا أو مكاناً أو داعياً ثم هى تجمع كلها فى مقال واحد ،ولا تشعر بأى قلق أو تنافر . بل بالترابط الكامل والانسجام التام إن هذا الشىء عجيب ! !

اقرأ معى سورة ولتكن سورة الحجر وترتيبها فى المصحف ١٥ .

سورة الحجر مكية فهى كأخواتها المكيات وقد بدئت بحروف المعجم ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين﴾ والسور المكية كلها هدفها الدعوى إلى عبادة الله الواحد الأحد . وذلك بالكلام على مظاهر القدرة فى الكون كله أرضه وسمائه وحيوانه وجماده ، ثم بالكلام على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وعلى الكتاب المنزل ، ثم إثبات البعث يوم القيامة إلا أن كل سورة لها طابع خاص تمتاز به .

فسورة الحجر طابعها — والله أعلم — تثبيت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت على عناصر متعددة . الافتتاحية — مشهد من مشاهد القيامة — ثم الدخول فى الغرض الهام وهو الكلام على نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم. وهنا طال الحديث حول شبههم ومناقشة أفكارهم ، ثم جاء الكلام على مظاهر القدرة حتى يفهموا أن القادر على ذلك قادر على إرسال رسول بكتاب ووحى، وهنا لفت أنظارهم إلى السماء وبروجها ، وأفلاكها وحفظها ، والأرض وما فيها من جبال وأنهار ونبات وأزهار ، ثم جاء دور الإنسان الذى خلقه من صلصال من حمإ مسنون .

والجان الذى خلقه من قبل من نار السموم ؛ ثم كانت قصة سجود الملائكة لآدم لبيان مكانة الإنسان عند الله وخالقه وصاحب نعمه ، أما كان الأولى به أن يكون عبداً شكوراً ، لا عاصياً كفوراً .

ثم موقف إبليس من آدم وما أقسم عليه من عدائه للبشر ووسوسته لهم حتى يقعوا فى المعاصى إلا عباد الله المخلصين فليس لإبليس عليهم سلطان .

وكانت النتيجة أن الغاوين فى جهنم أجمعين وأن العباد المخلصين فى جنات وعيون على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ، ثم ساق قصة إبراهيم وقصة لوط وقصة شعيب وقصة صالح .

وفى كل قصة تكون النهاية فوز المؤمنين ، وخسارة الكافرين، ولاشك أن ذلك مما يثبّت قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين معه ومما يزلزل قلوب المشركين ويفرق جمعهم ، ثم عاد فختم السورة بالكلام على الحبيب المصطفى

وما أفاض عليه من نعم ، وما أرشده إليه من سبل النجاح ودعائمه ثم الوصية الأخيرة . ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ .

أرأيت أن الهدف الأول تقرير النبوة للنبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل الأمر إلى القسم به وسط قصة لوط ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يَعْمَهُون ﴾ ومن العجيب أن الآية ٨٧ ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ مدنية ومن أواخر القرآن نزولا .[1] ثم هي قد وضعت بين آيات مكية فهل رأيتها قلقة في موضعها بين أخواتها المكيات ؟ هل رأيت تنافراً في السورة كلها مع عناصرها المتعددة المختلفة نزولا وغرضاً ؟ إنك إن قرأت السورة أو سمعتها ما شككت في أنها نزلت مرة واحدة ودفعة واحدة مع أنها كما علمت متباعدة في زمن النزول .

﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين﴾ إنه لقرآن كريم تراه وقد جمع هذه الآيات المتباينة وصورها بصورة واحدة ، وجمعها في إطار واحد ، وأدخل بعضها مع بعض كأنها نزلت مرة واحدة ، وتراه ينتقل في السورة الواحدة من غرض إلى غرض ، ومن واد إلى واد مع إحكام الربط وكمال الوصل .

وفي نفس الأسلوب ينتقل من الإنشاء للخبر ، ومن الماضي إلى المضارع ، ومن الخطاب للغيبة بلا اضطراب ولا اختلال ، بل هو محتفظ دائماً بتلك المكانة العالية من البلاغة والتصوير الفني الرائع — كما ذكر الإمام الزركشي في البرهان[2] .

---

(١) هذا رأي لبعضهم بناء على أن المراد بالسبع المثاني السبع الطوال ، ولا شك أن منها مدني ، ومنها مكي ، ويرى بعضهم أن الآية مكية .

(٢) ص ٣١٥ وما بعدها ج ٣ .

« وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة وكذلك أيضاً يتلاعب المتكلم بضميره فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه وتارة يجعله كافاً فيجعل نفسه مخاطبا ، وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب فلذلك كان الكلام المتوالى فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب ، وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض ، وهو نقل معنوى لا لفظى ، وشرطه أن يكون الضمير فى المنتقل إليه عائداً فى نفس الأمر إلى الملتفت عنه ليخرج نحو أكرم زيداً وأحسن إليه . فضمير أنت الذى استتر فى أكرم غير الضمير فى إليه وهذا هو الالتفات وهو : الانتقال من أحد الضمائر إلى الآخر بعد التعبير بالأول وقال السكاكى : إما ذلك وإما التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره مثال ذلك .

﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾ والأصل وإليه أرجع .

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ﴾ ولم يقل لنغفر لك .

ثم هناك عجيبة أخرى أشد وأقوى :

هذه الآيات المختلفة فى النزول زماناً ومكاناً كانت تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر بأن يضعوها بعد آية كذا فى سورة كذا ، ثم تأتى بعد أن كمل القرآن الكريم وتمت السورة وتقرؤها كاملة ، فلا تحس بنشاز أو نفور ، ولا تدرك انقطاعاً أو انفصالا ، بل تجد السورة كأنها صورة رائعة جميلة ، أو بناء تاماً متكاملا لا نقص فيه ولا زيادة ، كأن هذه الآية نقلت من مكان معلوم برقم معلوم لتوضع فى مكانها المعروف . وهذا أقرب الأشباه بالدولة إذا أرادت أن تنقل أثراً من الآثار التاريخية بعظمته ومكانته وفى شكله ونظامه القديم ، فتراها تضع على كل حجر رقما خاصاً حتى إذا أرادت البناء

وضعت كل قطعة أو حجر فى مكانها المرموق فتخرج البناء تاماً متكاملا وكأنه قطعة واحدة دقة وقوة، ولكن هذا فى الأمور المادية ظاهر يمكن إدراكه وفهمه ، وترقيمه ونقله .

أما قصة القرآن الكريم ونزوله ووضع كل آية فى مكانها ، فأمر عجيب جداً انظر إلى سورة البقرة نجد أنها أول سورة نزلت بعد الهجرة ، واستمر نزولها تسع سنين قمرية ، إذ فرض الصيام فى السنة الثانية ، والزكاة ومشروعية القتال ، وأحكام الزواج والطلاق ، وتحويل القبلة ثم فيها آخر آية نزلت وهى قوله تعالى . ﴿واتقُوا يَوْمًا تُرجَعُونَ فيه إلى اللهِ ثُم تُوَفَّىٰ كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَت وهُم لَا يُظلَمون﴾ ٢٨١ من البقرة ؛ ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضعوها بين آية الربا وآية الدين » . فهل ترى من تفاوت أو قلق أو نشاز ﴿ما تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فارجِعِ البَصَرَ هلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثم أرجِعِ البصَرَ كَرَّتَين ينقلبْ إليك البصرُ خَاسِئًا وهو حَسِير﴾ ٤ من سورة الملك .

ولقد صدق الله : ﴿أفلا يَتدَبَّرُون القرآنَ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجَدُوا فيه اخْتِلَافا كَثِيراً﴾ ٨٢ من النساء ، ثم تعال نبحث فى إنتاج البشر فى الأمور الأدبية أو العلمية .

لو أن شاعراً أو كاتباً فى مقتبل حياته الأدبية الفنية جاء بتخطيط فى ذهنه لديوانه ثم أخذ كل يوم أو أيام يضع بيتاً أو قطعة من إنتاجه الموافق لأحداث تمر به ثم يأمر فتوضع فى مكان خاص وظل يعمل كذلك مدة من الزمن .

إنه لا يقبل على مثل هذا إلا أحد رجلين رجل جاهل أحمق ورجل عنده علم ليس فى طاقة البشر يعلم ما يحدث له من أحداث ، وبالذى يتكلم به وقتها ثم هو يرتب قصيده أو إنتاجه على هذا الأساس ،ثم تراه لا يمكن أن يقبل أن يغير فيما يضمه أو يبدله .

وانظر إلى مخترع آلة من الآلات يضع أجزاء فى أماكن قبل أن يتممها ثم يظل يعمل فيها ويعمل وإذا وضع مسماراً أو جزءاً فى مكان لا يمكن أن يغيره ، وهذا الاختراع ليس له نظير فى العالم .

هل يقبل العقل هذا وهل يتصور ذلك ؟ أظن هذا أمر يكاد يكون مستحيلا على البشر ؟ فلم يبق إلا أن يكون الإله الخبير هو الذى يأمر جبريل عليه السلام فينقل من اللوح المحفوظ آيات تبعاً للحوادث والأحداث ثم هو يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها فى المكان الخاص بها . للوافق لمكانها فى اللوح المحفوظ .

بعد هذا لا عجب فى أن تظهر الصورة كاملة تامة ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾ . وتلك خصيصة من خصائص الإعجاز القرآنى .

وكما قلنا : هذه الآيات المنبثة فى السور المختلفة فى النزول إذا كانت فى موضوع واحد مع كونها مؤتلفة ائتلافاً كاملا فى سورتها ومع جيرتها كما عرفنا الآن . نجد هذه الآيات الموزعة لو جمعتها ورتبتها حسب النزول لخرج لك الموضوع بوحدة تامة كاملة لا تباين فيها ولا اختلاف . وتلك عجيبة أخرى من عجائب الفن القرآنى .

البحث الرابع

تعدد الموضوع الواحد بتعدد الدواعى المختلفة

فى مخاطبة العقل والعاطفة ، والأمى والعالم ، والمكيين والمدنيين مع مراعاة التطور فى القصة والتشريع والتوجيه والإرشاد .

* * *

القرآن الكريم : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما ﴾ ٦ من سورة الفرقان أنزله ربك بالحق ، وبالحق نزل ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ ١ من سورة إبراهيم . أنزله ربك الأعلى الذى خلق فسوى . وقدر فهدى ، أنزله للإنسانية هدى ورحمة وعلاجا. وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولذلك نجده ليس على نسق غيره من الكتب بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون .....

ولذلك تراه يخاطب الوجدان والروح ، وتارة يخاطب العقل والفكر الحر. تراه يأخذ بيد الإنسان إلى المشاهد والمناظر فى السموات والأرض فيلفت نظره إليها ، ويفتح قلبه ووجدانه على عظمتها ودقتها ، ثم هو يخاطب العلماء بحقائق علمية لم تصل إليها الجهابذة بعد قرون عديدة من نزول القرآن. وصدق الله :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ ٥٣ من سورة فصلت .

فهو يسلك مع خلقه — وهو أعلم بهم — مسلك المعلم الماهر والطبيب الذى ينتقل من حال إلى حال مرة باللين والرفق ، وأخرى بالتحذير والعنف ، مدعماً رأيه دائماً بالمشاهدات مبتعداً عن المشاكل والفلسفات .

وهو بهذا الشكل له موقفان: موقف مع الناس فى مكة يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار فى أبسط الصور ، يدعوهم إلى أصول الدين عامة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ثم يأخذ بأيديهم إلى المبادىء الإنسانية فى أوضح صورها والتى تنادى بها الفطرة البشرية السليمة ، ثم هو ينهاهم عن كل ما يتنافى مع الإنسانية وتأباه الطبائع البشرية العادلة فتراه ينهاهم عن المنكر والفحشاء . ووأد البنات وأكل مال اليتيم . ولكن بأسلوب إجمالى ليس فيه تشريع ولا تقنين .

وللإسلام وكتابه موقف آخر فى المدينة . حيث أنشئت الدولة الإسلامية . وتكون المجتمع الإسلامى لأول مرة ، وأصبحت للإسلام كلمة ودولة وتشريع خاص مختص به .

تجد القرآن اتجه للجماعة الإسلامية فأخذ يؤسس لها مبادىء ونظاما ، وحقوقاً وواجبات ، فانتقل التشريع من حالة فردية خاصة إلى حالة جماعية عامة وأخذ ينتقل ويتطور حتى بلغ الغاية وأشرف على النهاية ، وأصبحت الشريعة الإسلامية كاملة بمبادئها وأسسها صالحة لكل زمان ومكان بمرونتها وسهولتها وعمومها. بل وأضحت تُصلح كل أمة وجماعة وتظهر خصيصة التطور

والتحول فى القرآن الكريم واضحة جلية فى أهدافه من : ـ

١ — القصص .

٢ — التشريع .

٣ — التوجيه والإرشاد .

* * *

أما القصة وما أدراك ما القصة .

فقد تحدث عنها صاحب الموافقات ...[1] فقال :

« وبالجملة فحديث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام كنوح . وهود . وصالح . وشعيب . وموسى وهارون .... فإنما ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتثبيتاً لفؤاده . لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة . فتذكر القصة على النحو الذى يقع له مثله ، وبذلك يختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال والجميع حق لا إشكال فى صحته .

وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى فى النظر فى القرآن لمن أراد فهم القرآن والله المستعان .

والإمام الشاطبى رحمه الله وجزاه عن الدين والعلم خيراً يريد أن كل قصة ذكرت فى القرآن وتعدد ذكرها فى السور ، فإنما كانت لأداء غرض لها موافق لجو السورة التى ذكرت فيها ، ويلتئم مع الهدف المختص بها ، ولهذا اختلفت

---

(١) الموافقات جـ ٣ ص ٣٥٣ طبع المطبعة السلفية بمصر تعليق الشيخ محمد الخضر حسين .

القصة فى القرآن بحسب اختلاف الأحوال ، وهكذا التشريع والأحكام .

ويقول الشيخ مجد الدين الفيروز بادى فى كتابه « بصائر » ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز »[١] وأما تصريف القصص والأحوال . فهو أن الله تعالى ذكر بحكمته البالغة أحوال القرون الماضية ووقائع الأنبياء وقصصهم بألفاظ مختلفة . وعبارات متنوعة بحيث لو تأمل غواصو بحار المعانى ، وخواضو لجج الحجج ، وتفكروا فى حقائقها ، وتدبروا فى دقائقها لعلموا وتيقنوا ، وتبينوا أن ما فيها من الألفاظ المكررة المعادة إنما هى لأسرار ولطائف ولا يرفع برقع حجابها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ولا يكشف ستر سرائرهم - من النحارير إلا واسطتهم وقصهم .

وقد ذكر فى كتاب التفسير الواضح للقرآن الكريم[٢] .

عند الكلام على قصة موسى وفرعون فى سورة القصص وقد ذكر مجملا لآياتها فى القرآن الكريم . ثم ذكر بعد هذا تعليقا هذ نصه .

وقد عرفنا أن كل موضع فى القرآن ذكر فيه شىء عن موسى أو غيره من الأنبياء فالمذكور مناسب تماما لسياق الآيات السابق واللاحق .

والقصة هنا ذكرت آية على قدرة الله ، وأنه ينصر أولياءه ويهلك أعداءه الذين كذبوا رسله مهما كان لهم من حول وطول .

فنحن إذا نظرنا إلى القصة فى القرآن الكريم نجد أن القصة الواحدة ذكرت فى القرآن بعدة أساليب ، وفى عدة صور ولكنها فى كل سورة وفى كل موضع ثابتة فى مكانها متناسبة مع جيرانها مؤتلفة مع الغرض الذى سيقت من أجله السورة .

---

(١) ج١ ص ٧١ طبع القاهرة ١٩٦٤ تحقيق الشيخ النجار .

(٢) ص٤٢ ج ١٩ الطبعة الرابعة .

ثم هى فى كل موضع فى القرآن تعطينا صورة واضحة كاملة تامة لاتنافى فيها ولا تباين ، فموسى نبى بنى إسرائيل ذكر قصصه فى القرآن الكريم عدة مرات وكل ما ذكر ـ مع اختلاف الزمان والمكان فى النزول ومع اختلاف الترتيب فى المصحف ـ كل هذا يكون وحدة موضوعية لقصة موسى كاملة تامة غير متباينة .

فإن تكلم عنه القرآن فى سورة البقرة أول سورة نزلت فى المدينة تجده وقد تعرض لبنى إسرائيل ، وذكر نعم الله عليهم وماقابلوها من معاصٍ وآثام ، ولاعجب فى ذلك فكان لليهود فى المجتمع المدنى يد وعلم يذكر ، فلا بد إذن من التعرض لموقفهم مع نبيهم ، وموقف موسى عليه السلام معهم وربط حاضرهم بمستقبلهم حتى يأخذ النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه العبرة والعظة والحذر فى معاملتهم .

وقد يتكلم القرآن عن موسى فى السور المكية وخاصة الأعراف . طه . القصص . النمل . النازعات يتكلم عنه كنبى ورسول له رسالة قام بها .

فستجد عند بحث القصة أن لكل سورة هدفاً وبها قصة متناسبة تماماً مع غرضها العام .

* * *

أما التشريع والأحكام . فإن الرسالة الكبرى التى يحملها القرآن الكريم وهى إخراج الناس من ظلمات الكفر والجهل إلى نور التوحيد والعلم ، ومن إسار العبودية إلى سعادة الحرية ومن ذل العادات الثقيلة إلى عز الكمال وسمو الأخلاق والعادات . كل هذا جعل القرآن يطرق الموضوع الواحد من عدة وجوه ويبحث عن الداء فيعرف موطنه ومقدار تمكنه وتأصله فى الأمة فيدق عليه عدة دقات بحكمة وسداد حتى يستأصل شأفته ، ويقضى عليه من جذوره قضاء تاما وما علينا إلا أن ننظر فى تشريعات وأحكام القتال . الخمر . الربا . على أن اختلاف الأحوال والانتقال من جو مكى إلى جو مدنى يقتضى

الانتقال كذلك من أسلوب إلى أسلوب ومن طريق فى العلاج إلى طريق آخر. شأن الطبيب الماهر الذى ينتقل بمريضه من مرحلة إلى مرحلة فى العلاج حتى يأخذ بيده إلى إلى بر السلامة وساحل الشفاء.

والكلام على هذا سنوفيه حقه عند الكلام على أمثلة التشريع والأحكام

وقد كان القرآن الكريم فى مكة يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد وإلى تقرير مبدأ النبوة والرسالة وتأييد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن المعجز وكذلك تقرير مبدأ البعث والحساب.

وعنى فى مكة مع هذا كله بالدعوة إلى الاعتدال ومكارم الأخلاق والبعد عن أخلاق الجاهلية وقسوتها ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام « قل تعالوا أتلوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق. نحن نرزقكم وإياهم .....) ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام.

فالتوجيه والإرشاد فى المكى كان يدعو إلى تقرير مبدأ عام من حيث هو مع بيان إنه مناقض لما هم عليه من فساد وضلال مع الشدة والقسوة فى اقتلاع الرذائل لأنها مستأصلة فيهم وموروثة عندهم.

وفى المدنى تراه يكثر من بيان الحكم والتشريع ويخاطب العقل والروح ويبعث الهمم ويحيى الضمائر ويرشد إلى معالى الأخلاق ومبادئ الانسانية كالاستئذان والتحية وغيرهما مما يعتبره الإسلام معالم للمثل العليا التى تهدف إلى سعادة الناس فى مجتمعهم الجديد المجتمع الإسلامى الناهض.

وخلاصة القول أن التوجية والارشاد كان فى مكة يدعو إلى أمهات الفضائل وإلى أقتلاع كبريات الرذائل مع القسوه فى الخطاب وفى المدينة كان يدعو للمثل العليا والى مايصلح المجتمع ويهدف إلى سعادته.

الدعامة الثانية

ذكر الموضوع غير تام فى السورة

وفيه أربعة أبحاث

١ ـ تنزلات القرآن .

٢ ـ الحكمة فى نزول القرآن جملة إلى سماء الدنيا ثم نزوله مفرقا .

٣ ـ الحكمة فى نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم منجما .

٤ ـ لماذا لم يذكر الموضوع الواحد تاما فى سورة واحدة ؟ !

البحث الأول

[للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة :

(ا) مسجل فى اللوح المحفوظ .

(ب) أنزل إلى سماء الدنيا فى ليلة مباركة من ليالى شهر رمضان .

(ح) أنزل منجما على النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى ثلاث وعشرين سنة]

* * *

اقتضت حكمة الله جل جلاله أن يكون لهذا الوجود سجل عام يسجل فيه كل ما كان وما سيكون ، والقرآن المجيد وهو دستور الشريعة المحمدية شريعة الحق والعدل ، الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، وهو مصدق لكل كتاب ، وبيان لكل تنزيل أولى بأن يسجل فى هذا السجل .

ويدلنا على ذلك قول الحق تبارك وتعالى ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ آية ٢٢ من سورة البروج . على أن اللوح المحفوظ نؤمن به كما أخبر الحق ، وليس علينا أن نبحث أين هو ؟ ولا متى كتب فيه ، ولا كيف سجل ؟ ، ولا بأى لغة كان ؟ فذلك من أسرار الغيب التى لم يطلعنا الله عليها ، وستظل كذلك فى أستار الغيب .

ويعجبنى قول أبى حيان فى تفسير قوله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ واللوح المحفوظ هو الذى فيه جميع الأشياء . وقول الألوسى فى هذا الموضع « ونحن نؤمن به ، ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته ونحو

ذلك » . وممن ذهب مذهب التأويل فى ذلك بعض العلماء فى تفسيره اللوح المحفوظ بأنه لوح الوجود والحق ... ولكن الأولى عدم التأويل ، وتفويض علم ذلك لله .

والظاهر أن القرآن أثبت فى اللوح المحفوظ جملة واحدة ، ولم يكن مفرقا حيث لا داعى إلى ذلك .

تلك هى المرحلة الأولى ، ويلاحظ أنه لم يستخدم فيها كلمة (النزول) أصلا . . .

المرحلة الثانية : أو النزول الثانى .

من الحق أن ما ليس فى دائرة علمنا ، ومالا يقع تحت حسنا من الأمور الدينيه ، إنما نستقى معلوماتنا عنه من مصدرين لا ثالث لهما الكتاب والسنة . أما الاستنباط أو القياس أو استخدام الفروض والظنون فتلك من باب الحدس والتخمين وضرب من قصور العقل والتفكير .

ومسألتنا هذه وهى نزول القرآن إلى سماء الدنيا فى بيت العزة نرى . ماذا قال عنها القرآن ؟ وماذا قالت السنة الصحيحة ؟

بحث نزول القرآن فى اللغة : من مفردات الراغب الأصبهانى .

النزول فى الأصل هو انحطاط من علو يقال نزل عن دابته ، ونزل فى فى المكان حط رحله فيه ، وأنزله غيره ونزل بكذا وأنزله بمعنى وعليه ﴿ أنزل على عبده الكتاب ﴾ ، ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ ، ﴿ وأنزل معهم الكتاب والميزان ﴾ ، ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ .

والفرق بين الإنزال والتنزيل بالنسبة للقرآن أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقا مرة بعد أخرى ، والإنزال عام وعليه قوله تعالى :=

يقول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فيه القُرآنُ . . . ﴾ ١٨٥ من سورة البقرة .

⊐﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، ونزلناه تنزيلا ، ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ .

وحكى الله عن المنافقين : لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ذكر فى لأولى نزل وفى الثانية أنزل تنبيها إلى أن المنافقين يقترحون أن ينزل شيئا فشيئا من الحث على القتال ليتولوه ، وإذا أمروا بذلك مرة واحدة تحاشوا منه وعليه جاء قوله ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ لأنه نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، والنزول بمعنى الهبوط من علو إلى أسفل ، والانتقال من مكان إلى مكان لا يتأتيان فى جانب القرآن لأنهما يستلزمان الحركة والجسمية ، والقرآن ليس كذلك . إذ هو بالمعنى الشرعى العام يطلق على الكلام المعجز المنزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى عرف المتكلمين يطلق على الصفة القديمة باعتبار تعلقها بالكلمات النفسية القديمة من أول سورة الحمد إلى آخر سورة الناس ، ويطلق على تلك الكلمات أيضا . .

وليس شىء من هذه المعانى يجسم حتى يهبط من أعلى إلى أسفل أو ينتقل من مكان ويحل فى آخر لذلك كان وصف القرآن بالنزول وصفاً مجازيا باعتبار المعانى :

(ا) هو الصفة القديمة باعتبار تعلقها بالكلام النفسى .

(ب) هو الكلام النفسى القديم . فالمراد بالإنزال إيجاد ما يدل عليه وإن أريد به الألفاظ المنزلة فإنزاله هو الإيصال والإعلام ، ونزوله وصوله والعلم به فإن من أنزل شيئا إلى مكان فقد أوصله إليه وأعلم به كل من يراه .

يقول الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ ٣ سورة الدخان .

يقول الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ٢ سورة القدر .

هذه الآيات الثلاث — كما هو أساس بحثنا الموضوعى فى القرآن تفيد معنى :

أن الله جل جلاله أنزل القرآن فى ليلة مباركة هى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر وهى إحدى ليالى رمضان . ولقد صرح القرآن الكريم بأنه أنزل فى تلك الليلة المباركة من رمضان . فالأقرب إلى الصواب أن نفهم أنه كله أنزل جملة واحدة فى هذه الليلة وهذا هو الرأى الصحيح السليم . ويرى بعضهم خروجا من تصادم حقيقة نزول القرآن منجما مع هذه الآيات فيؤول أنه بدىء نزوله فى تلك الليلة ثم تتابع نزوله فى ثلاث وعشرين سنة ويرى فريق ثالث أنه كان ينزل جملة أى ما خصص من القرآن فى السنة ينزل فى ليلة القدر منها . أليس هذا تعسفا وتأويلا وارتكاب شطط ؟ ! ولماذا ؟ الله يقول : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ... إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ فكيف نقول : ابتدأ نزوله أى نزلت آية منه على الرأى الثانى فى تلك الليلة المباركة . وكيف نقول : لم ينزل بعضه فى ليلة قدر واحدة بل فى كل ليلة من ليالى القدر فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، الحق أحق بالاتباع والرأى الأول هو السديد ، وأنا أرجع عما كتبته فى التفسير الواضح فإنى كنت أرجح الرأى الثانى ، هدانا الله إلى الصواب دائما .

وخلاصته : نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا

فى بيت العزة ليلة القـــدر من رمضان ثم نزل بعد ذلك منجما فى ثلاث وعشرين سنة .

ويؤيد هذا الرأى ما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس قال :

« أنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا فى ليلة القَدْر ثم نزلَ بعد ذلكَ فى عشرين سنة » قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين . وأخرج النَّسائى رواية من جهة حسَّان عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : فُصِلَ القرآن من الذكر — اللوح المحفوظ — فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم . وإسناده صحيح ورجاله ثقاة . ولقد أيد الرأى الأول العلامة الزركشى بعد أن ذكر الرأيين الأخيرين ، وكذلك فعل السيوطى فى الإتقان وأيد الرأى الأول بهاتين الروايتين وزاد رواية أخرى عن ابن عباس .

البحث الثانى

ما الحكمة فى إنزال القرآن الكريم جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نزوله مفرقا على النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ! ! لقد ذكر الشيخ عبد الوهاب غزلان فى كتابه البيان فى مباحث القرآن ما يلى :

« لعل الحكمة فى ذلك أن إنزاله مرتين على وجهين مختلفين مرة جملة واحدة ومرة أخرى مفرقا ... فيه من الاحتفال به ، والعناية بشأنه ما ليس فى إنزاله مرة واحدة على وجه واحد ، ولاشك أن المزيد من العناية به يدل على إعزازه وتكريمه ، ومن لوازم هذا تكريم المنزل عليه ، وتفخيم شأنه .

هذا شىء يمكن أن يقال فى حكمة إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرقا والله تعالى هو العليم بحقيقة السر فى ذلك » ص ٥٢ . ومن العجيب أن الإمام الفخر الرازى الذى له اليد الطولى فى المناسبات ، وفى تنحية الإسر ائيليات ودفع الشبه عن الأنبياء التى ألصقها أهل الكتاب بهم ، وله الفضل فى تعليل كثير من الأمور الشرعية لم يشف الغليل فى هذه المسألة حيث قال :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾[1] .

« وإنما جرت الحال على هذا الوجه لما علمه تعالى من المصلحة على هذا الوجه فإنه لا يبعد أن للملائكة الذين هم سكان سماء الدنيا مصلحة فى إنزال ذلك إليهم . أو كان من المعلوم أن فى ذلك مصلحة للرسول عليه الصلاة والسلام فى توقع الوحى من أقرب الجهات أو كان فيه مصلحة لجبريل عليه السلام لأنه كان هو المأمور بإنزاله وتأديته ... »

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢ ص ١٢٣ .

والحق أن ذلك سر من أسرار الغيب ، وإن جاز لنا أن نفهم شيئا فإنا نقول : مسألة الاحتفاء به والعناية بشأنه ويتبع ذلك تفخيم المنزل عليه وتكريمه أو أن للملائكة الذين هم سكان السماء الدنيا مصلحة أو للرسول عليه السلام مصلحة فى توقع الوحى من أقرب الجهات أو كان فيه مصلحة لجبريل عليه السلام ذلك كلام لا يشفى الغليل وإننى أرى أن المسألة أعلى من ذلك كله وأدق فإنا قد قلنا : إن هناك سراً يعجز عن تحقيقه قوى البشر جميعاً هذا السر يدور حول ترتيب القرآن فى النزول ، وترتيبه فى المصحف ثم ظهور الدقة الكاملة والإحكام الإلهى الواسع فى النزول وترتيب المصحف .

أظن أن نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا حيث ينظره جبريل وهو على ترتيب المصحف ، ثم يتنزل بآياته تباعا على حسب الحوادث فتوضع كل آية فى مكانها لا تختل أبداً قيد شعره فكأن جبريل ينقل من سجل ثابت بُيِّنَ فيه كل شىء وأظن هذا من باب تقريب الفهم للبشر ، وتحقيق ما أراد الله لهذا القرآن من الضخامة والإعجاز حتى فى كتابته فى المصحف فكان نزوله إلى سماء الدنيا جملة ... قلت قبل هذا إن هذا سر وإنما نحن نطوف حوله والله يهدى من يشاء إلى صراطه وهو أعلم بكتابه .

هل نزل القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه ؟ ! !

نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل الروح الأمين ثبت بالتواتر الذى لا يقبل شكا ولا جدلا اللهم إلا ممن ألغيت عقولهم وضل رشدهم وهؤلاء لا حساب لهم ، ولكن هل نزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى من عند الله أو بالمعنى فقط واللفظ من عنده أو من عند النبى صلى الله عليه وسلم .

كما قلت يجب أن نضع أمام أعيننا قبل الحكم دعائم البحث من الكتاب والسنة . ولقد جاء القرآن فى هذا بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا « ٤٥ » من الإسراء .

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ .. « ٨ » من الجاثية .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ « ٦ » من سورة براة . .

فهذه الآيات الثلاث تفيد كلها أن القرآن وآياته شىء يقرأ ويسمع ويتلى ، ولا شك أن هذه أعراض الألفاظ لا المعانى فإن ما يسمع ويتلى ويقرأ إنما هو اللفظ لا المعنى وقوله تعالى .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ أول سورة الكهف .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ «٢» سورة يوسف .

والكتاب الذى يكتب هو اللفظ والمقروى العربى هو اللفظ . وقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ « ٦ » سورة النمل .

فدلت هذه النصوص كلها على أن القرآن يتلى ويسمع ويكتب وهو بلسان عربى مبين ثم هذا كله إنما يتلقى من لدن حكيم عليم .

أظن بعد هذه النصوص لا يمكن أن تقول إن القرآن نزل من عند الله بالمعنى فقط وأما اللفظ فمن جبريل أو من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن العجيب أن الإمام الزركشى حكى القولين الآخرين وبين أن الرأى الأول القائل بأن

جبريل نزل باللفظ والمعنى ، وأنه حفظه من اللوح المحفوظ ونزل به أو هو تلقاه مشافهة من الله أو تلقاه كذلك من بيت العزة وهو الراجح عندى كما قلنا . ولقد ذكر كذلك السيوطى إلا أنه لم يرجح ولم يبين أن الرأيين الآخرين خطأ وإذا كان كذلك فما خطؤهما .

بعد نقل الآيات السابقة الدالة صراحة على أن القرآن نزل باللفظ والمعنى لا يمكن أن نقول إلا بالتناقض بين هذا الرأى وبين تلك النصوص القرآنية . وإذا قلنا بما قالوا فكيف تتحقق المعجزة وهى الأمر الخارق للعادة وكانت من من صنع الله .

الآن وقفنا على خطئهما ولكن أليس لهما سند أم أن هذا كلام بلا سند . أما من يقول إن المعنى من الله واللفظ من عند جبريل فلا سند له وإنما هو هوس وتخريف وكان يجب على أئمة علوم القرآن كالزركشى والسيوطى ألا يذكرا هذا الرأى وإن ذكر لابد من التعقيب عليه بما يدحضه حتى لا يغتر بذكره أحد.

أما من يقول إن اللفظ من عند محمد . فيستدل على كلامه بقوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلبِكَ لِتَكُونَ مِن المُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾

فالقرآن نزل على قلب النبى صلى الله عليه وسلم وما ينزل على القلب إنما هو المعنى لا اللفظ ، وعلى ذلك فالمعنى من الله واللفظ من عند محمد والذى دفعهم إلى ذلك أنه لم يستطع أن يفهم كيف نزل اللفظ على قلب النبى صلى الله عليه وسلم ولكن ألا يعلم أن السفير ملك ، وأن المنزل عليه قلب النبى محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم حيث يجعل رسالته فهذا المحيط الذى فيه عمل الملائكة الأبرار مع

قلب النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الأخيار يجب أن نقف عند ذلك ونؤمن بما قال القرآن .

فهذه بعض مظاهر العلم عندنا اليوم . الحديث بالرادار . وبالتلفزيون . لا يعرفه إلا المتخصصون الدارسون وهو خاف على غيرهم .

على أن العقل المجرد لا يحيل هذا اللون من تلقى القلب للفظ والمعنى .

وهناك آية أخرى ترفع عنا هذا الحرج هى قوله تعالى ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ١٩ من سورة القيامة .

أى إن علينا جمعه فى قلبك وقراءته على لسانك ، جمع القرآن فى القلب والقرآن هو اللفظ والمعنى ثم تقرؤه بعد ذلك بلسانك على أن نفس الآية التى استدلوا بها لا تشهد لهم فإن قوله تعالى بلسان عربى مبين متعلق بنزل ، وقدم عليها (لتكون من المنذرين) للاهتمام بهذا التعليم ، وإلا لو جعلنا قوله بلسان عربى مبين متعلقاً بقوله المنذرين لكان المعنى لتكون من المنذرين الذين أنذروا بلسان عربى مبين كهود وصالح وشعيب وأظنك معى فى أن الآية أوسع من هذا بكثير على أن الألوسى فى تفسيره عندما ذكر هذا الرأى (تعلق قوله بلسان بقوله المنذرين) قال إنه غير سديد . وتعقب بأنه يؤدى إلى أن غاية الإنذار كونه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساد هذا الرأى .

على أن هناك آية لنا هى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي

أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ اتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ١٥ من سورة يونس . فقد رد النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يملك فيه تغييراً كلياولاجزئياً أما التغيير الكلى فظاهر لم يرد عليه ، وأما التغيير الجزئى فقال عنه : إنه لا يملك فيه تبديلا ولا تعديلا ، وما أتبع إلا ما يوحى إلى . . . فهذا دليل صريح على أن اللفظ موحى به من عند الله ، ولا يملك فيه النبي صلى الله عليه وسلم تغييراً ولا تبديلا . . .

البحث الثالث

السر فى نزول القرآن منجما

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بضع وعشرين سنة وكان هذا التفريق فى النزول والتنجيم على دفعات لحكم وأسرار إلهية .

(١) الحكمة الأولى : تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ليتحمل ثقل الدعوى وأعباء الرسالة ولقد صرح بهذا القرآن الكريم فى سورة الفرقان آية ٣٢ حيث قال .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ . أما مظاهر هذا التثبيت فكان فى

(ا) إن لقاء الحبيب المصطفى مع الروح الأمين كلما ادلهم الأمر أو نزل الخطب مما يثلج النفس ، ويشرح الصدر ، ويقوى العزم ، ويجدد الأمل . كذلك لنثبت به فؤادك .

(ب) وفى التنجيم والتفريق ، ما يساعد على الحفظ ، ويعين على الإدراك وألفهم ويعمق فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الألفاظ مصحوبة بمعانيها مشروحة بأحداثها ، ولاشك أن هذا مما يثبت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فتنقش فى قلوبهم الآيات وأحداثها وأبعادها .

(ح) إن هذا اللقاء لقاء الروح الأمين جبريل بمحمد صلى الله عليه وسلم حاملا القرآن الكريم المعجزة الباقية الدالة على صدق الرسول على دفعات ونجوم مما يقوى القلب ويدعم الحق ، ويشد الأزر .

(د) وكثرة النزول بدفعات التحدى والإعجاز ثم ظهور العجز والقصور مما يجدد اللذة ويبعث المهمة وينكى الأعداء ، ويرد كيدهم فى نحورهم المرة بعد المرة .

(ه) وكأن جبريل واقف بالمرصاد يشرع سهم القرآن فى صدور المشركين كلما جمعوا أمرهم وألقوا سؤالهم أو أظهروا عنتهم أو أفنتوا فى ضرب الأمثال للدد والخصام فيقولون : ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكلما جئنا بمثل جاءنا برده وتفسيره وهكذا كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم كلما تحزبوا ضده وأجمعوا أمرهم لكيده اتتهم الصاعقه تلو الصاعة مما جعلهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم .

وأما النبى فيرى أن الله ما ودعه وما قلاه ، فهو إذن بلا شك يقبل على عمله ثابتا ثبوت الجبال أمام العواصف الهوج مقتديا بإخوانه من الأنبياء والرسل فى قصصهم وفى وعد القرآن بالنصر لأوليائه ووعيده بهزيمة الشرك وأنصاره ولقد صدق الله ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ٣٣ من الفرقان

٢ — الحكمة الثانية . تعهد هذه الأمة التى أنزل عليها القرآن وتربيتها تربية سليمة صحيحة وقد ترجم عنها القرآن فى سورة الإسراء آية ١٠٦ فقال .

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾

أما مظاهر تلك الحكمة وهذه العناية والتربية فتظهر فى .

(ا) تيسير حفظه : فهم أمة أمية أساليب الكتابة فيها والتدوين غير ميسرة لم تكن بمعنى الكلمة إلا بعد الإسلام . ولهذا اعتمدت على الذاكرة القوية والحفظ السريع ، وهم مع ذلك قوم تشغلهم الحروب وأمور المعيشة فى السلم وهم بعد الإسلام قد شغلوا بالمحافظة على الدعوى الجديدة وتثبيت أركان الدين فكانت حروب ومنازعات للدفاع عن عقيدتهم الجديدة .

فأنت تراهم قوما أميين مشغولين فى السلم والحرب فكانت العناية الإلهية ترعاهم وتتعهدهم فأنزل الله قرآنه مفرقا منجما ليقرأه الرسول عليهم على مكث وتمهل كل حادثة مع مانزل فيها من قرآن ولاشك أن هذا أدعى للحفظ الواعى والفهم الراسخ وصدق الله « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » .

(ب) وفى هذا التنجيم والتفريق مع المعاونة على الحفظ تيسير الفهم للأحداث وآياتها وللأسئلة وإجاباتها وللاعتراضات ودفع شبهها بالقرآن الكريم .

(ح) هذه الأمة العربية التى تلقت القرآن أولا أمة كانت لها عقائد راسخة وعادات متأصلة وأخلاق موروثة وصفات مأثورة ثم هى مع ذلك تعتز بها وتدين ، وترى أنها من مفاخرها ودين آبائها وأجدادها فليس انتزاعها بالأمر السهل . الهين .

لهذا سلك القرآن معها مسلك الحكيم العليم الذى خلق فسوى وقدر فهدى الذى أحسن كل شىء خلقه ، سلك معها مسلك التدرج ، والانتقال من حال إلى حال مع التمهل واليسر حتى استطاع الإسلام أن يزحزحهم عن عقائدهم وأن يجعلهم يتخلون عن عاداتهم شيئاً فشيئاً . كل هذا بما أنزل عليهم من القرآن بالتنجيم والتفريق وصدق الله إذ يقول « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا . أنظر إلى مسلك القرآن فى تحريم الخمر والربا أو الحث على الإنفاق والبذل فأنت ترى أن الحكمة الأولى ترجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم والثانية ترجع إلى أمته .

الحكمة الثالثة : وهى ترجع إلى تسجيل الأحداث والوقائع التى وقعت متفرقة مع رأى القرآن فيها ومظاهر هذه الحكمة تظهر فى مايأتى : ـ

(ا) لقد سأل الناس أسئلة كثيرة ، أسئلة بريئة وأخرى غير بريئة . فمثلا

سألوا عن الروح . عن ذى القرنين عن الساعة : عن الفئية الذين آمنوا سألوا عن النفقة ، عن الأهلة ، عن الخمر . عن الحيض . وغير ذلك كثير .

ولا شك أن الأسئلة لم تكن فى وقت واحد بل كانت فى أوقات متعددة مختلفة وكانت الإجابة عن كل سؤال بما يوافقه ثم يوضع فى السورة التى يتلاءم مع هدفها العام .

(ب) متابعة الأقضية والوقائع وأحداثها فى وقتها ببيان حكم الله فيها .

وهذا طبعا يكون فى أوقات متعددة . انظر فى حادثة الإفك وظروفها وما تبعها !!! أيات اللعان . حكم الزنا . الظهار . المواريث . العدة .

(ح) لم يكن أبدا من الممكن أن يتحدث القرآن مرة واحدة عن أشياء لابد منها فى الدين وستقع فى ظروف مستقبله . وكان من الحكمة التعليق عليها وشرحها وبيان أسبابها ونتائجها ، وبيان مادبر للمسلمين فى الخفاء ، وإظهار العدو من الصديق ساعة وقوعها لتتم الفائدة المرجوة وفى هذا نزل الكثير من القرآن . ولنتتبع غزوات النبى صلى الله عليه وسلم . غزوة بدر . أحد . تبوك . حنين . الأحداث التى وقعت لسرايا الرسول . فلو لم يكشف ستر المنافقين ساعة مادبروا بليل ﴿ وَيَقُولُونَ : طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِن عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُم غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُم ... ﴾ ٨١ من النساء وحادثة طُعمة بن أبيرق . وصدق الله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾ ١٠٥ من سورة النساء ، وقال . ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ ١٠٥ من الإسراء .

الحكمة الرابعة : نزول القرآن منجما ثم ترتيبه فى المصحف على خلاف ما نزل

وأنت إذا نظرت إلى القرآن الكريم فى المصحف . كيف بدئت السورة

المكية وكيف انتهت وكيف بدئت السورة المدنية وكيف انتهت ، ورأيت أن لكل أسلوب خاصية تميزه ، وما فى كل من الآيات والأحكام . والأحداث والقصص والمواعظ والزواجر . إذا نظرت إلى القرآن المجموع فى المصحف وأنت تعلم أنه نزل مفرقا تبعا لأحداث لم تأت تباعا ، ولم تكن على ترتيب أو نظام لعلمت علم اليقين أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من وضع محمد صلى الله عليه وسلم فضلا عن كونه من وضع غيره من البشر ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إِنَّهُ كان غَفُوراً رَحِيما ﴾ ٦ من سورة الفرقان . فهذا النسق البيانى : وتلك الصورة الرائعة الدقيقة ، وهذا التصوير الدقيق المحكم وتلك المناسبات القوية المحكمة بين كل آية وآيه . كل هذا دليل على أنه تنزيل من حكيم عليم وصدق الله ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ وَلَو كانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ «٨٢ من سورة النساء » .

ياعجبا كل العجب من كتاب نزل مرتبطا بالأحداث والحوادث منجما تبعا للظروف والأحوال ثم هو يجمع مرة ثانية على شكل آخر وبوضع آخر ، وفى السورة المقروءة تجد المدهش المعجز فى بيانه وتصويره ، وتجد الرباط المحكم فى سوره وآياته .

أليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق القوى والقدر إليه يرجع الأمر كله انظر معى إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كما تعرف آية فى البلاغة والروعة ولقد قاله فى مناسبات عدة لدواع متباينة فى أزمان متطاولة فهل فى الإمكان لو اجتمع الإنس والجان على أن يصوغوا منه كتابا مرتبا محكما ذا بيان وقوة وسلطان يملك عليك قلبك ويجبر الخصم الألد على أن يقول والله إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر . أظن ذلك ليس فى الإمكان بل ولا فى الحسبان ، ولقد كان معذورا ذلك العربى الجاهلى الذى

سجد لبلاغة القرآن . وروعته ونحن لانقول فيه إلا ماقاله الله فيه ﴿ كِتابٌ أُحكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لدُن حكيم خبير ﴾ .

لقد تكلمت عن تنزلات القرآن الأول إلى اللوح المحفوظ والثانى إلى بيت العزة فى سماء الدنيا والثالث نزوله منجما على النبي صلى الله عليه وسلم . ولقد ذكرت الحكمة فى كل بالإجمال تارة وبالتفصيل تارة أخرى .

هذا صحيح ... ولكن ماعلاقة هذا بتلك الدعامة « ذكر الموضوع غير تام فى السورة » !! إن هذا يذكرنى بقوله تعالى فى سورة الرعد ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ ١٧ من الرعد .

فالله جعله قرآنا مجيداً وجعله فى لوح محفوظ ، ثم أنزله إلى سماء الدنيا فى ليلة مباركة من ليالى رمضان هى ليلة القدر ، ثم أنزله على عبده ورسوله منجما فى ثلاث وعشرين سنة تبعا للأحداث والحوادث لحكم وأسرار بيّنّا بعضها والله أعلم بأسرار كتابه وصدق الله « فسالت أودية بقدرها ... » من آية ١٧ من سورة الرعد .

فالحكمة تقتضى تنزيله مفرقا على هذا الوضع المناسب للأحداث لاينقص فيما قدره الله أو يزاد لأنه أنزله بالحق وبالحق نزل فذكر الموضوع غير تام فى السورة بتقدير العزيز العليم إذ كل شىء عنده بمقدار ولكى نفهم لماذا لم يذكر الموضوع تاما فى السورة لابد أن نقف على تنزلات القرآن ونحاول أن نفهم بعض الحكم والأسرار وألصق شىء بتلك الدعامة الوقوف على تنزلات القرآن .

البحث الرابع

لماذا لم يذكر الموضوع الواحد تاما فى سورة واحدة ؟

* * *

الوحى الإلهى المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم باعتباره ظاهرة تمتد فى حدود الزمن وتؤثر فيه تمتاز بخصيصتين هامتين بقطع النظر عن طبيعته الذاتية هاتان الخصيصتان هما :

١ — تنجيم الوحى فى ثلاث وعشرين سنة .

٢ — وحدته الكاملة فى التاريخ والتشريع والتربية السليمة .

أما تنجيم الوحى وأنه ضرورة محكمة له مظاهر وله دواع وحكم قد تعرضنا لبعضها بما يشفى صدور القوم المؤمنين وبما يلقم الأحجار فى أفواه الجاحدين المعترضين أما وحدته التامة فى كل شىء فهذا ما نعرض له الآن ، وقد نصل فيه بعون الله إلى ما نريد .

لقد بدأ الوحى فى غار حراء بهذا الحوار المسموع الذى دق سمع الوجود ففتح قلبه لكل ما يأتى . لقد بدىء : إقرأ ... ما أنا بقارىء . وهذا يدل من أول الأمر على أن ذلك الوحى ليس من باب الهذيان أو الاختلاط فقد تقرر بالقراءة مع الضم ثلاث مرات فى حوار جادٍ ليس بالهازل ... وهذا مما لا يمكن أن يكون بعد هذه الصدمات الصوتية ، والحركات العنيفة فى الضم الذى بلغ منه صلى الله عليه وسلم الجهد أن يقال إن هذا من باب الهذيان أو الاختلاط ولقد بلغ الجهد من النبى صلى الله عليه وسلم مبلغه حتى رجع إلى خديجة زوجه الطاهرة

الحنون يرجف فؤاده خوفاً مما لاقى . فتقوم الملاك الطاهر ، وتأخذ بيديه ، وتهدىء من روعه ، وتبشره بالخير ثم تذهب به إلى ورقة بن نوفل وكان امرءا قد تنصر في الجاهلية وقرأ من الكتاب ما شاء الله له أن يقرأ .

لقد استغرق نزول الوحى هذا — الذى ذكرنا بدءه بضعا وعشرين سنة . ولكن الوحى مع النبي صلى الله عليه وسلم كان عجيباً حقا . إذ قد يأتى تباعاً من غير انتظار وقد ينقطع عن النبى صلى الله عليه وسلم مدة رغم انتظاره له وطلبه بإلحاح ليدفع عنه الحرج الذى هو فيه ، والذى دعا بعضهم لأن يقول إن رب محمد قد ودعه وقلاه . أما ترى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشتد عليه إيذاء المشركين ، بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجة وقد بقى وحيداً فريدا . والنبي لهذا يأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة أما هو فبقى منتظراً الوحى مع شدة الحاجة إليه ، وقد كان كذلك فى المدينة فى حادثة الإفك يتطلع إلى السماء ويترقب الوحى الذى يقطع همه ويفرج كربه . ويبرىء أهله ، ويقطع ألسنة المنافقين وقد كان أمله كثيراً من هذا . ومع كل هذا فقد ظل الوحى شهراً كاملا أمضاه الرسول على أحر من الجمر ولكنه وحى السماء ينزل حيث أراد الله ﴿وما نَتَنَزَّلُ إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا﴾ ٦٤ من سورة مريم . وهنا يبرز سؤال هام ألم يكن من الممكن أن ينزل القرآن مرة واحدة كما نزل غيره من الكتب أو على الأقل كل موضوع قرآنى ينزل دفعة واحدة ؟!!

ذلك سؤال قديم قاله الجاهليون للمشركون قديما ورددده الملاحدة المحدثون على أنه مطعن فى الوحى وقصور فى القرآن وقد سجل القرآن هذا فى قوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عليه القرآنُ جُملةً واحِدَةً . كذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فؤَادَكَ ورتلناه ترتيلا﴾ ٣٢ من الفرقان .

ولكن الواقع التاريخى . والواقع الحقيقى لتلك الرسالة الخالدة مع ذلك الكتاب الذى أنزله عالم السر والنجوى فى السموات والأرض ، يؤيد هذا التنجيم فى النزول والتنجيم فى الموضوع الواحد بصورة قاطعة كما ستعرف الآن . بل أصبح لهذا التنجيم أهمية قصوى فى نجاح هذه الدعوة إذ بماذا كنا نفسر من الوجهة التاريخية والاجتماعية والتشريعية قرآنا يقود العالم كله من الظلمات إلى النور ومن الشر إلى الخير ومن الضلال إلى الصراط المستقيم ثم كان هذا القرآن يهبط كأنما هو برق خاطف . ثم يصبح أشبه بالوثيقة التى تلقى إلى الإنسان أو التفويض له من جهة أخرى ، ثم تراه يتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة خالدة .

ولقد تحدث العالم الجزائرى مالك بن نبى عن تنجيم الوحى فقال فى كتابه الظاهرة القرآنية[1] « إننا نبحث مسألة تجزئة الوحى فى ضوء هذه النظرات ونستطيع أن ندرك أولا قيمته التربوية ، فذلك فى الواقع هى الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة فى حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة « ص١٦٦» .

أنا أطالب كل من يدور بخلده مثل هذا السؤال أن يتصور الحال لو أنزلت آيات القتال دفعة واحدة ، وهى فى موضوع واحد بلا شك . بماذا كان يُفهم قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطوا ﴾ من سورة آل عمران ، مع قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ آية ١٢٣ من التوبة ، ﴿ وقاتلوهم حتى

---

(١) الظاهرة القرآنية لمؤلفه مالك بن نبى وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين .

لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ٣٩ من الأنفال ، ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ ﴾ ١٩١ من سورة البقرة ، ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنكُم عِشْرُونَ صابرونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ مع قوله ﴿ الآن خفف اللهُ عنكمْ وَعلِمَ أَنَّ فيكمْ ضَعْفاً فإنْ يكُنْ مِنْكمْ مِائَةٌ صَابِرة يَغْلِبُوا مِائَتَين » ٦٦ من سورة الأنفال. فلو لم يكن تنجيم وترتيب فى النزول ودراسة تاريخية لكل آية لكان ذلك من التناقض الذى يتنزه عنه كل كتاب بشرى فما بالكم بالكتاب المحكم !

ودراسة آيات التشريع فى الخمر والربا وغيرهما على ما سندرسه ترشدنا إلى أن التنجيم فى القرآن ظاهرة لا يمكن أن يسير بدونها ، واجتماع مراحل التشريع فى آيات متلاحقة يعطيك فكرة أن هذا القرآن لا يصدر إلا من حكيم عليم ، والقصة وما أدراك ما القصة إن أمرها فى التنجيم عجيب وأى عجب إذ ذكرت فى أماكن متعددة وبأساليب مختلفة وصورت المشهد الواحد عدة صور ، أترى لو أنها جمعت فى مكان واحد أكانت تعطى أى مبدأ من مبادىء الإعجاز فى البيان لا ... إنها كانت مدعاة للسأم والملل .

فإن قيل يكفينا صورة واحدة كاملة بأسلوب واحد وتصوير واحد . هذا كلام من لم يدرس القصة فى القرآن ، ولم يعلم أن المصور إذا أراد أن يعطيك الصورة الكاملة لشىء لابد أن يصوره فى عدة أوضاع ، وفى عدد من الاتجاهات حتى تستطيع أن تدركه إذا التكرار لازم وتنجيمه ألزم وسبحان من هذا كلامه .

وإذا اتجهت إلى الكلام على العقيدة هل يتصور أن ينزع كتاب أيا كان عقيدة خالطت الدم والعقل بجرة قلم ، بدفه واحدة بلغة واحدة ، بدليل واحد بخطة واحدة ، بتشريع واحد ، بتصوير واحد كل هذا لا يمكن أبداً . فلابد من التنجيم والتنويع واختلاف المكان والزمان .

انظر إلى حادثة بدر أو أحد ، كيف كان الحال لو نزل القرآن كله مرة واحدة عن هاتين الحادثتين دفعة واحدة قبلها أو بعدها . أما قبلها فلا وقع له فى النفوس وأما ما بعدها فسيكون حديثاً عما مضى حديثاً باهتاً لا قوة فيه . ولكن انظر إلى القرآن وهو يتتبع الحوادث أولا بأول ، ولا يدع فرصة إلا تكلم عنها ولا يدع موقفاً متأزما إلا قال كلمته فيه . اقرأ معى قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ١٢٦ آل عمران .

تدبر هذه الآيات وتعمق فى الصورة التى رسمها التنزيل للأزمة العنيفة والحيرة الشديدة التى كان فيها المسلمون ، ثم هذه البشارة وكيف كان وقعها على الجيش المحارب ثم إذا تحقق شرطها ـ الصبر . والتقوى . ومهاجمة الأعداء ـ تدرك عند ذلك كيف كانت البشرى والبشارة ، وكيف كان وقع النصر والظفر على قلوب المسلمين وقلوب الكافرين .

وصدق الله وعده « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

أرأيت لو أن القرآن تكلم عن غزوة بدر مرة واحدة فى سورة واحدة أكان ذلك يعطينا تلك الصورة الرائعة . لقد كان تسلسل الوحى فى النزول العام للقرآن الكريم ، والنزول الجزئى فى الموضوع الوحد خلال ثلاثة وعشرين سنة يبين لنا بيانا شافياً سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأطهار خطوة خطوة ، وهو يحوطهم بالعناية والرعاية ، ويشد عزمهم ويثبت أقدامهم وينفى

القذى عن أعينهم ، ويزيح الدخان من أمامهم . ثم هو يكرم شهداءهم ، وينذر أعداءهم ثم هو يراقبهم بعين مفتوحة واعية فإذا ما بيتوا أمراً بليل فضحهم الله فى الصباح الباكر . ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ ٦٤ من التوبة .

وهكذا القرآن الكريم لا يترك حادثة وقعت بلا تعقيب عليها وتوجيه سليم من أجلها ، ولذلك تراه واقفاً المنافقين بالمرصاد يكشف سترهم حتى يعرفهم الرسول وقد كانوا من قبل فى غمار القوم غير معروفين . ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ . لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ١٠١ من التوبة .

أرأيت إلى الوحى الكريم فى تنجيمه وتوقيته كان يقوم بدور المعلم المرشد والهادى إلى التى هى أقوم ، أرأيت إلى القرآن الكريم وهو يأخذ فى دعوته وتشريعه وقصصه وأحكامه مأخذ التدرج والتطور . أرأيت لو أن القرآن سلك غير هذا السبيل فجاء فى دعوته وتشريعه وقصصه بكل ماعنده من بيان وتفصيل دفعه واحدة وكان يقع من الناس هذا الموقع ، وماذا كان الأمر لو لم يأت لكل ألم بعزاء ولكل تضحية بجزاء ولكل هزيمة بسبب وعلاج ، ولكل عقبة فى الطريق بتوجيه حاسم . ، إن لم يكن كذلك لما كان لقوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » موقع ألست معى فى أن القرآن وقد تنزل منجما كتاب محكم الآيات . ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ ٤٩ من سورة العنكبوت فتنجيمية قد ظنه الجاهلون عيباً فإذا هو أقصى ما يتصور فى الدقة والحكمة والبلوغ إلى الهدف الأعلى .

عرفنا أن القرآن الكريم نزل منجما وكل وحدة فى النزول ضمت لأخواتها فى مجموعة واحدة (السورة القرآنية) هذه الوحدة إذا ضمت إلى وحدات أخرى لم تكن كالوحدة الحسابية إذا ضمت لزميلتها وإنما هى وحدة ضمت إلى وحدة كما يضم العضو فى الجسم إلى العضو الآخر . أرأيت إلى الساق وقد يضم إلى الذراع إن كنت درست علم الطب أو التشريح تدرك تماما كيف يكون الرباط القوى المحكم أن الذى ربط هذه الأعضاء بهذه القوة حتى كان منها جسم كامل هو « الذى خلق فسوى وقدر فهدى : هو الذى ربط الآيات . (الوحدة فى النزول مع الوحدات — الأخرى فى السورة « وتبارك الله أحسن الخالقين » وأعجب العجب أن هذه الوحدة التى نزلت فى موضوع خاص إذا أخذتها وضممتها إلى الوحدات الأخرى التى نزلت فى هذا الموضوع نفسه لرأيت العجب ، تماسكا وتكاملا وارتباطا ووحدة فى الموضوع.

وهذا هو الهدف الأول للرسالة .

الدعامة الثالثة

كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها في جميع السور التي تكرر فيها الموضوع

وفيها ثلاثة أبحاث .

١ — تعدد للوضوع يكاد يكون ظاهرة من ظواهر القرآن .

٢ — مسئولية المرأة .

٣ — دراسة بعض الأمم مع أنبيائهم .

البحث الأول

تعدد الموضوع يكاد يكون ظاهرة من ظواهر القرآن ، وذلك لاختلاف البيئة عند النزول ، ولاختلاف جوهر الموضوع وحقيقته بالنسبة للمخاطبين .

إن السور المكية — التى أنزلت قبل الهجرة — أكثر سور القرآن عدداً إذ تبلغ بضعاً وثمانين سورة بينما المدنى يبلغ تسعا وعشرين سورة فهى من أكثرها عدداً إلا أن فيها المفصل وقصار السور . وعلى الجملة فأهدافها لتحقيق الدعوة الإسلامية ثلاثة .

(ا) توحيد الله فى العبادة والتشريع، وما يتبعه من نفى الشركاء وبيان حقيقتهم.

(ب) الوحى والرساله ، وما يتبعها من ذكر قصص الأمم السابقة مع أنبيائهم لبيان العظة والعبرة من نهاية الكافر ، والمؤمن وليكون ذلك دليلا على صدق الرسول .

(ج) الإيمان بيوم الدين يوم الجزاء ، وما يتبعه من وصف الجنة والنار ..

أما السور المدنية : فهدفها مع تحقيق الأهداف الكبرى فى السور المكية مجادلة أهل الكتاب ومناقشتهم، والتعرض لماضيهم مع أنبيائهم ، وكانت عنايتها بالمسلمين ومجتمعهم قوية فسنت التشريعات التى تكفل السعادة لحياة الفرد والمجتمع حياة سعيدة فكل سورة لها هدف ، ولها طابع ، وقد طرقت عدة موضوعات كثيرة اللهم إلا بعض قصار السور مثل الكوثر ـ الماعون. قريش. الكافرون.

وبقية السور لها هدف عام فى سبيل تحقيقه تطرق عدة موضوعات متشعبة إلا أنها مرتبطة ارتباطا تاماً مع الهدف العام ، وذلك تحقيقاً لمبدأ المناسبة التامة بين الآيات فى السور ، وإن اختلف فى النزول كما سبق أن تكلمنا عليه ونحن الآن نريد أن نقول :

إن الموضوعات المتعدده فى كل سورة قد يشترك معها فى تلك الموضوعات أو فى جزء منها أو أكثر سور أخرى ، وذلك واضح فيما نضرب وضربنا من أمثلة فهل الموضوع الواحد سواء كان فى التوحيد أو التشريع أو القصص الذى ذكر مرارا ، وتعدد فى سور كثيرة يكون وحدة موضوعية ؟

الجواب : نعم : وعلى ذلك أخذنا بمبدأ سليم مؤيد بالشواهد والأدلة وحقيقة علمية سليمة هى : كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها فى جميع السور التى تكرر فيها الموضوع .

إن تعدد الموضوعات الهامة فى السورة الواحدة يكاد يكون ظاهرة من ظواهر القرآن الكريم أيا كان الموضوع وعلى قدر مكانته فى النسق القرآنى يكون تعدده ، أى على قدر خطره وعمقه وتأثر الناس به يكون تعدده أو إفراده بالذكر مرة واحدة أو فى وضع واحد أنظر إلى أركان الإسلام الخمسه . الشهادتان إقام الصلاة . إيتاء الزكاة . الصيام . الحج .

فالشهادتان أساس العقيدة الإسلامية ، وعمادها لذلك تكلم القرآن عن الشهادتين كعنوان للمسلم وأساس للعقيدة كثيرا جدا وبألوان مختلفة ثم الصلاة والزكاة وهما الركنان العمليان عند المسلم فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، وهى عنوان المسلم الطائع ، والزكاة دليل الصدق ، وعنوان تسليم القلب بحقوق الإسلام فالصلاة لإصلاح الفرد وبالزكاة قوام المجتمع ولما لهما من أثر فى حياة الفرد والمجتمع ذكرا مرارا وتكرارا .

وأما الصيام كتشريع إسلامى له حقائقه وأحكامه فهو جدير بالذكر بلاشك ولكن أصل الصيام موجود عند الأمم ، وحياة العرب البدوية لاتأباه ولاتراه شاقا وعسيراً وصدق الله ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنَ قبلِكم لعلّكم تَتَّقُونَ أيَّامًا مَعْدُودَات ﴾ ﴿ ١٨٣ ، ١٨٤ من سورة البقرة .

لهذا لم يكن فى حاجة إلى تكرار فى الذكر وتعدد فى الحديث عنه فى غير سورة البقرة .

فأما الحج فهو وإن كان من عادات العرب إلا أن الحج فى الإسلام له حقيقة أخرى ولون آخر ، وفيه محاربة لبعض عادات العرب فى الجاهلية ألم تر إلى القبائل الخمس يوم أن كانوا لا يقفون مع الناس ولا يفيضون كما يفيض الناس[1] والمسلم نفسه أخذ ينظر إلى أعمال الحج فى الإسلام نظرة ثانية ، ولهذا تحرج بعضهم من السعى بين الصفا والمروة لأنه كان يفعل فى الجاهلية . تكريما لأساف ونائلة فنزلت آية إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ١٥٨ من سورة البقرة ولما فيه من تعديل فى المواقف والنسك، ولما اتصل به من حروب وغيرها ذكر فى القران وكررت آياته فى سور حتى يتضح الحق وتظهر الصورة الإسلامية جلية واضحة ولا عجب فى تكرار الموضوع فى القرآن فرسالة الإسلام رسالة ضخمة إذ هى تفتح عيون الدنيا على دين جديد وتشريع جديد تعلو فيه كلمة الله ، وتخمد فيه بل وتموت كلمة النفس والهوى والشيطان، أليس من الخير أن نضرب أمثلة لما نقول ، وإن تكن أمثلة معدودة فهيا بنا إلى الأمثلة .

---

(١) روى القرطبي فى تفسيره قوله « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » ص ٤٠٤ ج ٢ ما ملخصه الخطاب للخمس فإنهم كانوا لا يقفون مع المناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهى من الحرم وكانوا يقولون نحن قطين الله .. روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كانت قريش ومن كان على دينها ، وهم الخمس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قطين الله ، وكان من سواهم يقفون بعرفة » حديث حسن صحيح

البحث الثانى

مسئولية المرأة : أن تكون المرأة ذات أهلية للمسئولية التامة عن كل تصرف لها كالرجل تماماً ... وقد أعطاها القرآن ذلك .

* * *

إن مسئولية المرأة من مفاخر الإسلام . والقرآن ، هو أول تشريع يظهر فى العالم يعطى المرأة أهلية كاملة للتصرف فى مالها بالبيع والشراء . والهبة وإنما ظهر هذا على يد الإسلام والقرآن ، إذ هى إنسان كامل الأهلية لتحمل المسئولية . وفى أرقى دول العالم الغربى . كانت المرأة إلى يوم قريب لا تستطيع أن تصرف « شيكا » من « البنك » باسمها إلا بعد إذن وليها أو زوجها .

فمسئولية المرأة كاملة فيما يخصها ، ولقد اعتبر الإسلام أن عرض المرأة ليس من حقها وحدها بل هو من حق زوجها وأسرتها وبيئتها معها ، فلو تصرفت تصرفاً مشيناً وقعت تحت طائلة العقاب . وللأسف تعتبر القوانين الوضعية أن ما يحصل من ذلك إذا كان برضا الطرفين مع بلوغ المرأة فلا شىء إذ هم يفهمون خطأ أن عرض المرأة ملك لها تتصرف فيه كما تشاء ، ومن العجب يمنعونها من التصرف فى جزء من مالها ويبيحون لها التصرف فى عرضها . وإعطاء المرأة مسئوليتها تكلم عنه القرآن فى أماكن متعددة ، وتدرج معها حتى أعطاها المسئولية فى أعلى درجاتها .

تعال معى نستمع إلى القرآن الذى ينزل بعد الهجرة فهذا زمان التشريع يقول الله فى سورة البقرة : ﴿ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ... ﴾ ٢٢٨ ، تراها مسئولة مسئولية تامة عن كل ما يتعلق بالرحم

من حيث العدة ، والحمل ، والرضاع ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا . . . . ﴾ ٢٣١ ، ٢٣٢ من سورة البقرة . ولا تنس ماجاء فى سورة الطلاق فهى مسئولة عن نفسها بعد الطلاق . وانقضاء العدة . تتزوج بمن تشاء فى حدود أحكام الشرع الشريف .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ . . . ﴾ ٢٣٣ من البقرة فهى مسئولة عن إرضاع طفلها ، وفى الفصال والفطام لا يصح للأب أن يستقل بعمل شىء إلا بعد مشاورتها فى ذلك ، وعليه بعد ذلك رزقها وكسوتها بالمعروف . ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ آية ٤ من سورة النور ، إذ من حقها على من يقذفها ثم لم يأت بأربعة شهود أن يجلد ثمانين جلدة تأديبا له على انتهاك حرمتها . أما مسئوليتها فى عملها فقد تعرض لها القرآن فى كل سورة تعرض للمرأة فيها ففى سورة البقرة وردت الآيات الآتيـــة .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٢٢٨ من البقرة . . . ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ١٩٥ من آل عمران . . ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ . . . ﴾ من آية ٣٢ سورة النساء ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ ١٢٤ من النساء (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ . وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) ٣١ من الأحزاب (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) ٣٥ من الأحزاب

تلك هى المسئولية الشرعية التى أعطاها الشرع للمرأة تسوية لها بالرجل تماما بلا تفريق تحقيقا لقوله تعالى فى أول سورة النساء . . « الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » ثم كان ختام الحديث عنها وعن مسئوليتها الكبرى التى تقطعها عن زوجها فى المسئولية إذ لها شخصيتها المتكاملة وحرية التصرف السليم .

استمع معى لقول الله تعالى فى سورة التحريم :

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين . وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ من القانتين ﴾ ١٢ من التحريم .

هى أمثلة حيه للمرأة الكافرة تحت الرجل المؤمن النبى الطاهر ولكن هى مسئولة عن عملها فكان عاقبتها النار وبئس القرار ، ولم ينفعها قربها من زوجها النبى عليه السلام ، ومثال المرأة الصالحة تحت الرجل الكافر الجبار ولكنها تابت وأنابت وسألت الله فأعطاها ولا حرج على فضل الله فقد جاءها الخير جزاء عملها هى ولم يضرها زوجها فى شىء إذ كل نفس بما كسبت رهينة ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وهذه مريم البتول التى أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين . .

أرأيت إلى مسئولية المرأة وكيف حددها القرآن وذكرها فى عدة سور حتى تكامل موضوعها فأولا جعلها مسئولة عما يخصها ويختص بها من حمل ورضاع وعدة وصداق .

ثانياً : جعلها مسئولة عن نفسها بعد الطلاق وانقضاء العدة ، وفى رضاع طفلها .

ثالثاً : جعلها مسئولة مسئولية كاملة عن عملها كإنسانة فهى تحاسب على العمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر ..

رابعاً : ثم كانت المسئولية الكبرى ، وإن كانت مع زوجها الذى يخالفها فى الدين .

البحث الثالث

دراسة بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم

آثرنا أن نأخذ طرفا من قصص القرآن يؤيد بحثنا فى كمال الوحدة الموضوعية كفصل من فصول الرسالة . وقد قصرنا البحث على الأمم السابقة التى تعرف أخبارهم عن طريق الرواية وشيوع تاريخهم كقصة فرعون مع موسى ، وقصة إبراهيم ، وقصة نوح عليهم السلام وإما بمشاهدة آثارهم التى تدل عليهم ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ منهمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأرضَ وَعَمَرُوهَا أَكثرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ ﴾ ٩ من سورة الروم .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوءِ أفلم يكونوا يَرَوْنَهَا بَلْ كانوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ ٤٠ من الفرقان . وذلك كقوم عاد . وثمود . ومدين . وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة . والرس . قال تعالى : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثَمُودُ . وَعَادٌ وفرعونُ . وَإِخْوانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ١٤ من سورة ق .

لقد تكلم القرآن عن هؤلاء فى مواضيع كثيرة تختلف بالإجمال والتفصيل ،

---

(١) أصحاب الرس : الرس البئر التى لم تطو أصحابها النازلون حولها قيل من قوم شعيب وقيل غير ذلك وأصحاب الأيكة الغيضة وهى الشجر الملتف ، وأصحابها هم قوم شعيب والله أعلم وأصل الرس الأثر القليل الموجود فى الشىء .

وسورهم حسب الترتيب فى النزول : ق . القمر . ص ، الأعراف . الشعراء . النمل . القصص . يونس . هود . الحجر . الصافات . غافر . الزخرف . نوح . الحاقة . المؤمنون .

١ — ففى سورة ق ..... ذكروا جملة حيث لم يكن مكان للتفصيل .

٢ — ثم جاء بعدها سورة القمر وهى مكية كذلك إلا أنها جاءت بعد التمهيد السابق فى سورة القمر أخذت تلفت أنظارهم إلى الأمم مع أنبيائهم فى شىء من التفصيل فقال الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ ١٦ من القمر .

ثم بعدها جاء دور عاد وآخرهم هود عليه السلام .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا . . ﴾ ١٩ من القمر .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا : أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . . . . . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . ﴾ ٣١ من القمر .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . . . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ . . . . ﴾ ٣٨ من القمر .

﴿ولقد جاء آلَ فرعونَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بآياتِنا كُلِّها فأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ٤٢ من القمر .

نرى أن هذه السورة وهى الثانية فى النزول بالنسبة للأولى قد عرضت لهذا الموضوع بشىء من التفصيل والبيان لقوم نوح . وعاد . وثمود . وقوم لوط وآل فرعون ، ولم يذكر مدين هنا. وكان عرضها لموقف الأمم مع أنبيائها عرضاً يوافق جو السورة مع التعرض لجانب تكذيبهم رسلهم ، وبيان عاقبة التكذيب لعل كفار قريش يتعظون ويتذكرون ولذلك أنهى هذا العرض بقوله صراحة « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزُّبُرِ أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجميع ويولون الدبر » . . ولكن كيف تغنى النذر مع هؤلاء ؟!!

ثم جاءت سورة ص وهى أشبه ما تكون بسورة القمر تناقش المشركين بعد القسم بالقرآن ذى الذكر لعلهم يلتفتون إليه. تناقشهم فى غرورهم الكاذب ، وعزتهم وشقاقهم ، وتكذيبهم للرسول والقرآن ولكن الجو أصبح يحتمل شيئا من المناقشة فلما قالوا : ﴿أأُنْزِلَ عليهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا . .﴾ ! ! رد الله عليهم بقوله ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمةِ ربِّكَ العزيزِ الوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينهما﴾ آية ١٠ من سورة ص .

إذاً لم تكن خزائن الرحمة فى أيديهم ، وإذا لم يكن لهم ملك السموات والأرض وما بينهما والله وحده هو الذى بيده الخير كله ، وله ملك السموات والأرض إذا كان ذلك كذلك فليصعدوا إلى السماء أو ليهبطوا إلى الأرض فليس لهم من الأمر شىء وإنما الفضل بيد الله وحده وإليه يرجع الأمر كله . . .

وأما هم فجندهم مهزوم ، وأحزابهم هالكى ولا عجب فليرجعوا بالذاكرة

إلى قوم نوح . وعاد وفرعون ذى القوة والبطش . وثمود . وقوم لوط . وأصحاب الأيكة . . هؤلاء هم الأحزاب قوة وعدداً ، ولكنهم كذبوا الرسل فحقت عليهم كلمة ربك وماينتظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق وهذه هى نتيجة التكذيب والغرور فهل من مدكر ؟ ! !

وأما أنت فاصبر على ما يقولون واذكر إخوانك الأنبياء كداود وسليمان واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار .

« إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيار واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب » .

٤ — ثم تأتى سورة الأعراف أطول سورة فى المكى ، وسابع سورة فى المصحف ، ولقد جاءت هذه السورة بتفصيل لبعض الأنبياء ، وإيجاز مع بعضهم الآخر فأوجزت مع نوح . ولوط وفصلت نوعاً ما بالنسبة لغيرهم . مثل : ثمود ومدين . . . وفى موسى أطالت كثيراً جداً كما فعلت مع موسى سورة البقرة مع فارق هام ففى سورة البقرة كان الخطاب لبنى إسرائيل لإلزامهم الحجة وللامتنان عليهم بالنعم ، ومناقشتهم فى موقفهم مع إلزامهم بالحجة فى كل موقف من المواقف فكان الطابع لقصص بنى إسرائيل فى البقرة تثبيت دعائم الرسالة الكبرى للنبى محمد صلى الله عليه وسلم بمناقشة اليهود المعاصرين فى ماضيهم وحاضرهم .

وأما فى سورة الأعراف فكان سرد الأحداث والوقائع التاريخية هو الغالب ولم يكن إلزامهم الحجة بالصراحة ، وإن جاءت ضمنا مع الدقة فى التخلص اقرأ معى قوله تعالى :

﴿ واكْتُبْ لَنَا فى هذه الدنيا حَسَنَةً وفى الآخرة إنَّا هُدْنا إليكَ قَالَ عذابى أُصِيبُ به مَنْ أشاء وَرَحْمَتِى وَسِعَت كلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبها لِلَّذِينَ يَتَّقون وَيُؤْتُون الزكاةَ والذينَ هُمْ بآياتِنا يُؤمِنُون * الذين يَتَّبِعُون الرَّسُولَ النبىَّ الأُمِّىَّ الذى يَجِدُونَه مَكْتُوباً عِنْدَهم فى التَّوراةِ والإنجيلِ يأمرُهُمْ بالمعْرُوفِ ويَنْهاهُم عن المنكر ... ﴾ ١٥٧ من الأعراف .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن عناية القرآن بالقصص كمعجزة لتثبيت رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم هو الأساس ، فما ذكر هنا فى الأعراف وفى غيرها فلإثبات الرسالة ولتثبيت الدعوة ، ولتهديد المشركين بما حصل لغيرهم من الأمم . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِىٍّ إلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بالبَأْساء وَالضَّرّاء لَعَلَّهم يَضَّرَّعُونَ ... ﴾ ٩٤ من الأعراف ﴿ ولَوْ أنَّ أَهْلَ القُرى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيهِمْ بَرَكاتٍ منَ السَّماء والأرْضِ ... ﴾ ٩٦ - ١٠١ من الأعراف .

ويلاحظ أن القصص الذى ذكر هنا للأنبياء ولأممهم يغلب عليه طابعان .

(ا) طابع الهدوء ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهذه سنة الله مع رسله فى أول الدعوات .

(ب) تذكير القوم بأنهم خلف لغيرهم وسيكونون سلفاً لغيرهم فلا يغتر أحد بالدنيا وزخارفها ..

﴿ وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكم خُلَفَاء من بعد قَوْمِ نوحٍ ... ﴾ ٦٩ من الأعراف

﴿ واذْكُرُوا إذْ جَعَلكم خُلَفَاء مِن بَعْدِ عادٍ ... ﴾ ٧٤ من الأعراف .

﴿ واذكرُوا إذ كُنتُمْ قَليلاً فكَثَّرَكم وانظُرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المُفْسِدِينَ ﴾ ٨٦ من الأعراف .

(ج) هلاك جميع المكذبين : ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾ ٦٤ من الأعراف .. فى قوم نوح .

﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... ﴾ ٧٢ من الأعراف .. فى عاد .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ٧٨ من الأعراف .. فى ثمود .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ٨٣ من الأعراف .. فى قوم لوط .

٥ — الشعراء : وهى سورة مكية جاءت تخفف عن النبى صلى الله عليه وسلم الألم الناشىء من تكذيب الكفار « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » مع تهديدهم بإنزال العذاب من السماء فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء من سبقهم من الأمم ليكونوا عبرة وعظة لهم وليسوا خيرا منهم ، ولا أقوى ولا أكرم عند الله ، وليس فى يدهم وثيقة يتمسكون بها حتى لا يصيبهم ما أصاب غيرهم ، وتمتاز سورة الشعراء بأنها تعرضت لقصة موسى ولقصة إبراهيم ثم عادت تذكر نوحا وعاداً وثمود . وقوم لوط . وأصحاب الأيكة ثم تختم السورة كما بدأتها بالكلام على القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم . كما أن قصصها عن نوح مثلا يتضح بقوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ

بَيني وَبَيْنَهُمْ فتْحًا وَنَجِّنى وَمَنْ مَعِى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثم أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقِينَ . إنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كانَ أكثرُهم مُؤْمِنين.. ﴾ ١٢١ من الشعراء .

وقد كان قصص ثمود وأخوهم هود كما حكى القرآن هو :

﴿ كذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لهم أخُوهم هُودٌ . . . . فكذبوه فأهلكناهم ... إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ ١٣٩ من الشعراء .

وهكذا قصة ثمود مع صالح :

﴿ كذَّبَتْ ثَمودُ المرْسَلين . إذ قَالَ لهم أخُوهم صَالِحٌ ألا تتقون . . . . ﴾ ١٤٢ من الشعراء .

وهكذا قصة لوط مع قومه :

﴿ كذَّبَتْ قومُ لُوطٍ المرْسَلين إذ قال لهم أخُوهم لُوط . . . . . ﴾ ١٦١ من الشعراء .

وقد كانت قصة شعيب مع أصحاب الأيكة كما حكى القرآن الكريم :

﴿ كذَّبَ أصحابُ الأيكةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٧٦ من الشعراء .

وهذه السورة نزلت بعد الأعراف ، وهذا القصص الذى فيها يُمثِّل دوراً عنيفاً بعض الشيء فى مناقشة الكفار للرسل وردودهم عليهم واعتراضهم عليهم .

مثلا مع نوح فى قولهم : أنؤمن لك واتَّبعك الأرذلون ... ؟ أو قولهم : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ؟ فما وسعه بعد هذا إلا أن يلتجىء إلى ربه لينزل عليهم من السماء عذاباً يستأصلهم وقد استجاب الله دعاءه فأغرق

الكافرين ، ونجّى المؤمنين وهذا إنذار للمشركين فى مكة ظاهر جلى . ومع عاد يذكرهم أخوهم هود ، بما أنعم الله عليهم من النعم ويحذرهم بالعذاب العظيم فيقولون ﴿ سواء علينا أوعظت أو لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين ﴾ فكان هذا التكذيب وكان الهلاك .

ومع ثمود كذلك ذكرهم أخوهم صالح بما عندهم من نعم فأخذوا يجادلون ويسيئون له ويطلبون الآية ، فأرسل الله لهم ناقة فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب .

وكان لوط مع قومه بالهدوء والموعظة الحسنة يدعوهم إلى ترك القبيح فيردون عليه رداً قبيحاً : ﴿ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين ﴾ .

وهذا شعيب مع أصحاب الأيكة يقول لهم : اعدلوا وأوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين . فتحدوه بإنزال العذاب عليهم من السماء فلما كذبوه أخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم . وهكذا جاءت هذه السورة وفيها بيان أكثر وتفصيل ، وإظهار أعم لما أجمل فى السور قبلها .

٦ — ثم جاء دور سورة هود :

وفيها البيان الأخير الكامل لقصة نوح مع قومه وعاقبتهم ، وقد ذكر طرف من هذه النهاية فى سورة المؤمنون . هذا غير ما ذكر فى سورة نوح ، أما سورة هود فتعتبر المرجع الوافى لقصة نوح مع قومه وما دار بينهم بالتفصيل ثم ذكر النهاية لهم وبناء السفينة وذكر قصة ابن نوح حتى لا يطمع والد فى ولده

ولا ولد فى والده بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وكانت كذلك مع عاد وأخوهم هود عليه السلام بتفصيل أوسع مع بيان العاقبة والنهاية المحتومة .

وكانت قصة ثمود كذلك مع أخيهم صالح وذكر الفاقة والنهاية المحتومة .

وتعرضت السورة تبعاً لذلك لقصة إبراهيم وضيفه . ثم قوم لوط وموقفهم مع الملائكة ونهايتهم : وجاءت قصة مدين وشعيب بتفصيل أكثر من أى ذكر مضى لها . وجاءت قصة فرعون بإيجاز هنا . فميزة سورة هود التفصيل والتوضيح والبيان لبعض الأحداث .

ثم بعد ذلك ذكرت القصص هذه فى سور لكنها كاستشهاد فقط كما فى سورة الحاقة حينما تعرضت لعقاب عاد وثمود ، وفى سورة يونس ذكرت عرضا إلا قصة موسى فأطالت فيها وفى سورة نوح ذكرت قصة نوح وهى آخر مانزل بشأنه بمكة على قول بقطع النظر عما جاء فى سورة المؤمنين ولهذا جاءت مقدمة للقصة كلها .

الدعامة الرابعة

عدم كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورة ذكر فيها الموضوع على حدة

وفيها أربعة أبحاث :

دراسة عامـــة للسورة القرآنية .

دراسة خاصـــة لسورة المائدة .

دراســة العقـــود والمواثيـــق .

دراسة القول الحق فى السيد المسيح .

البحث الأول

عدم كمال الوحدة الموضوعية بالنسبه لكل سورة ذكر فيها الموضوع مع دراسة عامة للسور القرآنية .

* * *

عرفنا أن السورة فى القرآن الكريم فيما عدا بعض سور المفصل . تشتمل على موضوعات كثيرة. وما سورة البقرة وتنزلاتها ومافيها من أحكام وقصص وتشريعات عنك ببعيدة . وليست سورة البقرة هى الوحيدة فى هذا بل كل سور القرآن اللهم إلا القليل كما عرفنا ، وانك أن تتخير أى سورة تبحثها فستصل إلى ما تقول .

هذه المعانى المحشودة فى السورة بآياتها المفصلة ، لها مناسبات دقيقة ، كل آية بمعناها مناسبة ومرتبطة تماما مع سابقتها ولاحقتها حتى ترى السورة فى سبيل تحقيق هدفها العام قد جمعت الآيات بحكمة كاجتماع الأعضاء المكونة لجسم الإنسان أو الحيوان بمنتهى الدقة والحكمة والربط إذ من الثابت أن ترتيب الآيات توقيفى كما مضى على أن السورة لم تكن بجوار السورة عفوا وبلا قصد ، بل كل سورة مناسبة لما قبلها وما بعدها إذ الأصح أن ترتيب السور توقيفى . وما نريد أن نتكلم عنه هنا هو أن هذه المعانى التى احتوتها السورة الكريمة قد ذكر بعضها فى سور أخرى بأسلوب آخر ووضع ، آخر ، ولسبب فى النزول آخر ولكن هل هذه المعانى التى تعددت فى بعض سور القرآن مرتبطة أو ليس فيها ارتباط .

الحق أنها مرتبطة تماما الارتباط متماسكة تمام التماسك ليس بينها انفصال

أبدا وهذا ما يسمى بالوحدة الموضوعية . وقد سبق أن بينا فى البحث :

١ — تكرار الموضوع ولم كان ؟

٢ — لماذا لم يذكر الموضوع تماما فى السورة الواحدة .

٣ — كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها فى جميع السور .

ونحن نريد هنا أن نقول : هذا الموضوع الذى تعدد نزوله فى السور . هل هو فى السورة الواحدة يعطينا صورة كاملة عن الموضوع ؟ أم هو لا يعطينا هذه الصورة بالنسبة لكل سورة؟ ولكن من المجموع يعطينا صورة كاملة هذا ما سنتكلم عليه هنا إن شاء الله .

الواقع أن الإنسان يدهش حينما يقرأ سورة فى القرآن أى سورة يجد أنها أشبه بالحديقة الغناء — ولله المثل الأعلى — أشبه بحديقة جمعت كل صنف ، ونوع ، فيها من كل زهرة ومن كل لون ، ومن كل شكل .

ثم تنظر إليها فتجد فيها العجب تجد التجانس والتلاؤم ، وتجد الألفة والإخاء فلا تنافر ولا تباين كقطعة الماس تعطيك كل لون مع كل وضع ولكن بلا تباين ولا فساد ..تلك حقيقه أصبحت كما يقولون بدهية .

وإذا دققت فى هذه المعانى . فإنك تجد ظاهرة تلفت النظر، ويا روعة ما تجد ، تجد أن المعنى مع إخوته قد أدى الغرض منه ولكنه فى حد ذاته يحتاج إلى شىء آخر دقيق جداً ، تجده يحتاج إلى بيان أو توضيح أو إطلاق أو تخصيص أو زيادة أو نقص تجد فيه لبنة تقول من أجلها لو . . . ، فإذا ماذهبت إلى السورة الثانية وجدتها كذلك ، ولكنها بلون ثان ووضع ثان ونظام ثان، بل وجدت جرسها اللفظى ، وأسلوبها وبدءها ونهايتها وعلاجها للمشكلات أو سردها للمعنى قد يأخذ وجها آخر غير ذلك السابق. فتقف حائراً مندهشا يا سبحان الله .

إن السابح فى بحر كلامك وإن الناظر فى كون قرآنك يجد نجوماً كلها نجوم تضىء وتهدى السارى « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » ولكن إذا استعنت بعقلك ، ونظفت روحك ، وغسلتها من أدران المادة ، هالك أنك ترى كل نجم ليس كمديله ، وفى كل ليلة أوحقبة من الزمن ظهرت نجوم واختفت نجوم — سبحان من أحاط بكل شىء علما ووسعت رحمته كل شىء .سبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . وأنت فى بحثك السور القرآنية تجد أن كل سورة فيها صفحة جديدة وعرض جديد بلون جديد. وتجدها طرقت الموضوع ولكن أبرزته لك من زاوية أخرى وبوجه آخر .

حينئذ ماذا يكون الحال أهو تكرار ؟ أم هو تعداد ؟ أم هو حشود وتطويل أم هى حكمة عالية وترتيب دقيق أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض وهو على كل شىء قدير؟

إن الواقع الملموس — وإن خفى فى بعض الأحيان — ينادى إنها حكمة العليم تجلّت فسطرت كتابا مسطورا « والطُّور وكتاب مسطور فى رَقٍّ منشور »فى أكمل صورة وأروع بيان .

المبحث الثانى

هيا بنا ندرس سورة من سور القرآن ، هيا بنا نستشرف إلى صنع الرحمن صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ندرس سورة فنعرف حدودها وأهدافها ، ومجمل معانيها ثم نأخذ معنى أو معنيين ذكرا فيها ونستعرض ما شاء الله لنا سور القرآن التى تكلمت عن هذين المعنيين فسنحصل بعد ذلك على موضوع واحد متكامل إن شاء الله . ولقد وقع اختيارنا على سورة المائدة . وهى كما ورد فى السنة من آخر القرآن نزولا ، فقد ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « إن المائدة من آخر ما أنزل الله فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه » .

والناظر إلى هذه السورة يجدها خلت من أمور كانت تلازم السور المدنية مثل[1] :

١ — الحث على القتال والدعوة إليه كما فى النساء وآل عمران والتوبة والأنفال والبقرة .

٢ — الحديث عن الشرك والمشركين وتسفيه أحلامهم وتحقير شركائهم ومناقشتهم فى معتقداتهم ، وذلك لظهور الإسلام على غيره وخضوع الجزيرة العربية كلها للإسلام ، نعم فيها يأسهم من عبادة غير الله .

٣ — خلوها من الحديث عن كثير من التشريعات التى نزلت عقب الهجرة كالصيام والزكاة ... ويظهر — والله أعلم — أن تأخر نزولها إلى ما بعد

---

(١) أنظر تفسير القرآن للمرحوم الشيخ شلتوت ص ٢٧٧ .

استقرار الأمور وارتفاع راية الإسلام ترفرف على الجزيرة العربية كلها ومنع المشركين من الطواف بالبيت . وامتداد رقعة الإسلام إلى مشارف الشام والعراق ، حتى أصبحنا جيراناً لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وغيرهم .

يظهر أن هذا كان له أثر فى أن تكون السورة لها هدفان :

(ا) تشريعات داخلية تتعلق بالطعام والشراب والنكاح وخاصة مع أهل الكتاب وبعض فروع العبادات ، والقصاص وتوجيهات أخرى لتحديد وجهة المسلمين ناحية الكعبة .

(ب) أبحاث فى العقيدة تتعلق بالأنبياء والرسل السابقين وبكتبهم ، ومناقشة أهل الكتاب مناقشة قوية حتى نستطيع أن نرد على شبههم ، فتكمل بذلك شخصية المسلم وكيان الجماعة الإسلامية .

وكان ذلك تدريبا لنا على الرد بالكلمة بعد تدريبنا على الرد بالسيف ، وهكذا القرآن والإسلام يحمينا بالدفاع الحربى ، وبالدفاع العقلى حتى نثبت على صخرة الحق رافعين الرؤوس ، وسورة المائدة فى خلال تحقيق هدفها طرقت موضوعات كثيرة ، سنختار موضوع الوفاء بالعهد والميثاق . والقول الحق فى السيد المسيح .

البحث الثالث

الوفاء بالعهد والميثاق :

يقول الله سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة المائدة بهذا النداء الضخم الكبير ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ . إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ أول المائدة .

هذه هي نظرية الوفاء بالعهد والميثاق في الإسلام ، تترجم عنها بعض الكتب الحديثة بنظرية « مسئولية الالتزام التعاقدي » .

والوفاء بالعهد ، والالتزام بالعقد والميثاق . سمة الإسلام وخلق المسلم فقد جعل ضده النبي صلى الله عليه وسلم علامة المنافق في حديث أبي هريرة .

روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

وفي حديث آخر « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ... : « إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخاري في كتاب الإيمان .

والعهود أنواع :

عهد بين الله وخلقه : بلسان الحال أو بلسان المقال .

فما أودع في الإنسان من طبائع وغرائز من شأنها البحث والنظر والاستقصاء وما منحه من عقل وتفكير يفكر به ويستدل ، وما أودع في الكون

من آيات شاهدات دالة على وجوده وقدرته وعلمه وإرادته هذه المنح والمعطيات بمثابة عهد وميثاق بين الله والخلق ، إلا أنه ليس بلسان المقال ولكنه بلسان الحال .

على أن الله سبحانه وتعالى صرح بهذا العقد وأكده فى قوله تعالى : ﴿ وإذْ أخذَ ربك من بَنِي آدمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وأشْهَدَهُم عَلَى أنفُسِهِم ألستُ بِرَبِّكُم؟ قَالُوا: بَلىٰ شَهِدْنا أن تَقُولُوا يومَ القيامةِ إنّا كُنّا عَنْ هَذَا غافِلين أو تَقُولوا إنّما أشْرَكَ آباؤنا مِن قَبْلُ وكُنّا ذُرِّيَّةً مِن بَعدِهِم أفَتُهْلِكُنا بما فَعلَ المبطِلُون . وكَذَلك نفصِّلُ الآياتِ ولَعلَّهم يَرْجِعُون ﴾ ١٧٤ من سورة الأعراف .

وليس هناك ما يمنع أن تكون الآيه على الحقيقة ، وفى قوله تعالى فى سورة يس : ﴿ ألم أعْهَدْ إليكُم يا بَنِي آدَمَ ألاّ تَعْبدُوا الشَّيْطَانَ إنّه لَكُم عَدُو مُبينٌ . وأنِ اعْبدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ٦١ ... وهذا تسجيل آخر على لسان عباد الله المؤمنين تسجيلا بعهد وميثاق بين المخلوق العامل وبين الله المكافىء المجازى ﴿ ربنا إنّنا سَمِعْنا مُنادِيا ينادِي للإيمانِ أنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فآمَنّا رَبّنا فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبنا وكَفِّرعَنّا سَيِّئاتنا وتوفنامَعَ الأبْرَارِ ... فاستجاب لَهُم رَبُّهم أنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ منكُم مِن ذَكرٍ أوْ أنثىٰ . ﴾ ١٩٥ سورة آل عمران .

والإيمان بالله وكتبه ورسله وتشريعه وإرشاده ، بحيث لا يحيد عنها ولا يتعداها إلى غيرها ... وهذا مما عاهد الله به المؤمنين من خلقه والشواهد على ذلك كثيرة ، اقرأ إن شئت خاتمة البقرة ...

عهد بين الله والنبيين :﴿ وإذ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيِّينَ لَما آتيتكُم مِن كِتَابٍ وحِكمةٍ ثُمَّ جاءكُم رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُم لَتُؤْمِنُنَّ به وَلَتَنْصُرُنَّه

قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ٨١ من آل عمران ... فهذا عهد بين الله وبين الأنبياء المصطفين من خلقه ليكونوا رسلا مبلغين عن ربهم داعين أممهم لعبادة الله الواحد الأحد ، ونبذ عبادة غير الله مطلقاً حتى إذا ما جاءهم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم يؤمنون به وينصرونه وقد أقروا بذلك .

وهذا عهد بين الله وبين بنى إسرائيل خاصة :

﴿ وإذ أخذْنا مِيثاقَ بَنِي إسرائِيلَ لا تَعْبدُون إلاّ الله وبالوالِدَيْنِ إحْسَاناً وذِى القُربىٰ واليَتامىٰ والمسَاكينِ وقُولوا للناسِ حُسْناً وأقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكاةَ ثمَّ تَوَلَّيتُم إلاّ قَلِيلاً مِنكُم وأنتُم مُعْرِضُونَ . وإذ أخَذْنا مِيثَاقَكم لا تَسْفِكُون دماءكمَ ﴾ ٨٤ ، ٨٥ من البقرة . هذا صورة لعهد وميثاق على بنى إسرائيل خاصة وتسجيل عليهم أنه قد أخذ الله عليهم العهود والمواثيق فيما أنزل عليهم من كتب وبما أرسل إليهم من رسل أخذ عليهم العهد الموثق ألا يعبدوا إلا الله وأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، وكذا ذوى القربى واليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس حسناً ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وأخذ عليهم العهد ألا يسفكوا دماء بعض وألا يخرجوا بعضهم من ديار بعض ثم كان منهم الإقرار على العهد وقبوله ، وأنتم يا بنى إسرائيل شاهدون على ذلك بما تعرفونه من أخبار .

ثم أنتم هؤلاء تفعلون النقيض ، وتكفرون بالله ، وتخونون العهد أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاؤكم إلا الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة وليس هذا وحده بل كثيراً ما أخذت عليهم العهود ، وما كان منهم إلا نقض المواثيق .

استمع معى إلى قول الله تعالى : ﴿ ولقَدْ أخذَ الله ميثاقَ بَنِي إسْرائِيلَ

وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ ١٢ المائدة .

نعم أخذ عليهم العهود والمواثيق ، وبعث منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله إنى معكم على شرط أن تقيموا الصلاة وتؤدوا الزكاة ، وتؤمنوا بى وبرسلى ، وتنصروهم وتنفقوا نفقة صغيرة على أنها قرض عند الله وهو صاحب الأمر والملك . إنكم إن فعلتم ذلك لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم الجنة ومن نقض عهدى ولم يلتزم بميثاقى فقد كفر وضل سواء السبيل إذن يكون نقض العهد كفراً وضلالا : ﴿ لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ﴾ ٧٠ من المائدة .

عهود ومواثيق فى العقيدة :

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ ١٦٩ من الأعراف .

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ ٦٣ من البقرة . ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا : سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم .... ﴾ ٩٣ من البقرة .

العهود والمواثيق التى بين بعض الناس :

وهذا يتناول العهد بين الحاكم والمحكوم .

فالحاكم فى رقبته عهد لأمته ، يؤدى الأمانة التى التزمها لكل فرد فى الأمة من ناحية الغذاء والكساء ، والتعليم والدواء ، وإيجاد العمل لكل عامل واللقمة لكل جائع بمعنى العناية والرعاية والسهر على المصلحة ثم يحكم بين الناس بالعدل فلا ظلم ولا جور ، ولا عصبية ولا سيادة ، وإنما الكل أمام القوانين سواء كما قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فالناس سواسية كأسنان المشط » وذلك خير وأحسن تأويلا .

والمحكوم أى الشعب عليه واجب لحاكمه هو السمع والطاعة ، وتنفيذ الأحكام والقوانين ما لم تكن فى معصية الله ، فإنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فإن حصل اختلاف فى الفهم أو التقدير ، وإن حصل نزاع فيجب أن يرد إلى الحكم العدل وهو : كتاب الله وسنة رسوله ، والذى يفهم الحكم من هذين المصدرين هم العلماء العاملون ، والمؤمنون المخلصون والقادة والزعماء وكل من له بصر بالقوانين وذلك خير وأحسن تأويلا .

اقرأ قوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حَكَمْتُم بينَ الناسِ أن تَحْكُموا بالعَدْلِ إنّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُم به إن الله كان سَميعا بصيراً. يا أيّها الذينَ آمَنُوا أطيعُوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فرُدُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمِنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ ٥٩ من النساء .

ومن العهود التى بين بعض الناس :

العقود فى المعاملات والبيع والشراء ، وتنفيذ الالتزامات التى التزم بها

الإنسان وذلك معنى دقيق جداً ، وأظن هذا الباب هو البوتقة التى تصهر النفوس فتخرج النفس الطيبة والطاهرة من النفس الخبيثة الدنيئة .

ومن ذلك العهود فى عقود النكاح والزواج .

ولقد صدق الله حيث قال ذماً لأهل الجاهلية الذين كانوا لا يحترمون عهداً لزوجاتهم بل يعاملونهم كالمتاع ﴿ وكيفَ تأخذُونَه وَقَدْ أفضَى بَعْضُكم إلى بَعْض وأخذْنَ مِنكمْ مِيثَاقاً غليظاً ﴾ ٢١ من النساء وما أروع هذا الحث على العفو والتسامح بين الأزواج حيث يقول الله : ﴿ وأن تَعفُوا أقْرَبُ للتقوى . ولاَ تَنسَوُا الفَضْلَ بَينكم إن اللهَ بِما تَعمَلُون بصير ﴾ ٢٣٧ من البقرة .

* * *

والمواثيق العامة فى الأمم والجماعات يحترمها الإسلام ويطالب بالوفاء بها ألم تر إلى حكم القتل الخطأ فى إعطاء الدية ؟ فإن الإسلام أعطى الدية لقوم القتيل إذا كانوا مؤمنين أو إذا كان بينهم و بين المسلمين عهد أو ذمة ، أما إذا لم يكن عهد ولا ذمة ولا إيمان فلا نعطيهم أموالنا يحاربوننا بها .

استمع إلى قوله تعالى : ﴿ ومَن قَتَل مُؤمِناً خَطَأً فتحريرُ رَقَبةٍ مؤمنة ودِيةٌ مسلَّمة إلى أهلِه إلاّ أنْ يصَدَّقُوا فإن كانَ من قومٍ عَدُوٍّ لكم وهُوَ مؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبةٍ مؤمِنَةٍ ﴾ وسكت عن الدية .

﴿ وإن كانَ من قومٍ بينكُم وبينَهمُ مِيثاقٌ فَدِيةٌ مسَلَّمةٌ إلى أهلِه وتحريرُ رَقبةٍ مؤمنة . . ﴾ ٩٢ من النساء .

ولقد عامل الإسلام القوم الذين بينهم و بين من عاهدناهم عهد عاملهم كأنما بينهم و بيننا عهد وميثاق .

استمع إلى قوله تعالى : ﴿ ... فإن تَوَلَّوْا فَخُذُوهم واقْتُلُوهُم حيثُ

وَجَدتُمُوهم ولا تَتَّخِذُوا منهم وَلِيًّا ولاَ نصيراً . إلا الذين يَصلونَ إلى قوم بينكم وبينهم مِيثَاقٌ أو جاءوكم حَصِرَت صدورُهم أن يُقاتِلوكم أو يُقَاتِلوا قومَهم ... ﴾ ٩٠ من النساء .

ولنرجع إلى الآية بعد الكلام على العهد فى القرآن لنتكلم عنها كآية فى السورة .

« ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام ... »الآية .

استفتاح لسورة المائدة استفتاح عجيب ، فسورة المائدة سورة مدنية وهى من آخر القرآن نزولا كما ورد فى حديث عائشة رضى الله عنها (حديث موقوف) .

وبدئت بهذا النداء إذ هى السورة الوحيدة التى ذكر فيها النداء بهذا الوصف أكثر من غيرها ففيها ستة عشر نداء بهذا الوصف وفى سورة البقرة على طولها اثنا عشر نداء بهذا الوصف . وفى سورة آل عمران سبعة نداءات بهذا الوصف وأما السورة المكية فالنداء فيها بهذا الوصف لا يوجد والنداء بهذا الوصف مما يحمل الإنسان على استجابة الطالب فوصف الإيمان كفيل بالامتثال .

ولمكانة العهود والعقود والمواثيق[1] فى الإسلام كان هذا النداء وكان هذا الاستفتاح وانظر إلى قوله تعالى: أحلت لكم الأنعام ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. ﴾ يقول الزمخشرى فى كشافه : « والظاهر أنها عقود الله عليهم فى دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه ، وأنه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل وهو قوله « أحلت لكم بهيمة الأنعام » وما بعده فهى بيان للعقود التى أعطاها الله لنا ، وطالبنا بالوفاء بها والاستثناء المذكور فى قوله تعالى :

---

(١) يقال : وفى بالعهد وأوفى به إذا حفظه ، والعقد هو العهد الموثق ، والميثاق عقد مؤكد باليمين .

« إلا مايتلى عليكم » من بهيمة الأنعام : ومايتلى هو ماسيذكره الله فى قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ... » وقوله تعالى : ﴿ غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴾[1] حال على معنى أحلت لكم الأنعام حالة كونكم غير محلى الصيد ، وأنتم حرم حال من محلى الصيد على معنى أحللنا لكم بعض الأنعام ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم ﴾ فى حالة امتناعكم عن الصيد والحال أنكم محرمون، ومما يحكى أن أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن !! فقال نعم ، واحتجب أياما . . . ثم خرج فقال : والله ما أطيق ، ولا يطيق ذلك أحد . إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث . وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء ثم أخبر عن قدرته وعلمه وحكمته . . . . كل ذلك فى سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا إلا فى صحائف .

وهنا نقول : هل كملت الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورة ذكر بها الموضوع على حدة أم لا تكمل إلا بجمع أشتاته المنبثة فى جميع السور ؟ ! أظن أصبح واضحاً وضوح الشمس فى رابعة النهار أن الوحدة الموضوعية لم تكتمل إلا بما ذكر فى مجموع السور التى تعرضت للعقود، إذ مرة تذكر العقود والمواثيق تسجيلا على بنى إسرائيل أنهم خالفوها ، ولم يعملوا بها فى جو يتطلب هذا. وادرس النص فى ذلك آية ٦٣ و ٨٤ و ٩٣ من سورة البقرة ثم آية ١٢ من سورة المائدة وآية ٧٠ من السورة نفسها ثم يعرض القرآن الكريم مرة أخرى لميثاق أكبر أخذ على النبيين السابقين ، والمراد هم وأممهم حتى إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم هو آخر الأنبياء وخاتمهم فيجب أن يوفوا بالعهد ويؤمنوا به، وذلك تسجيلا على المعاصرين من أهل الكتاب أنهم خالفوا العهود المأخوذة

---

(١) يقال رجل حرام أى محرم وقوم حرم .

عليهم. اقرأ قوله تعالى فى آية ٨١ من سورة آل عمران ثم أين الميثاق العام المأخوذ على بنى آدم بأن يؤمنوا بالله ربهم وألا يعبدوا إلا هو ؟

اقرأ آية ١٧٤ : من سورة الأعراف ، ٦١ من سورة يس، ثم أين العهد والميثاق بالعمل بما فى الإسلام كله وتحكيمه فى كل مايعرض. اقرأ قوله تعالى فى أول المائدة وفى قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به . . . » ٧ من سورة المائدة .

ثم أين العهود التى بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأفراد بعضها وبعض فى العقود والبيوع والنكاح وغير ذلك .

أرأيت كيف أن الوحدة الموضوعية لم تتم إلا بضميمة كل ما ذكر من آيات فى السور كلها ، وهذا مانريد أن نصل إليه . فنقول لايمكن تحقق كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورة فيها الموضوع على انفراد . وهانحن عرفنا أن سورة المائدة كغيرها من السور اشتملت على عدة موضوعات لا تعطينا وحدة كاملة إلا إذا ضم لها ما ذكر فى السور الثانية . وكل ما ذكر فى السور الأخرى له وجهان وجه اتفاق فى السورة ووجه اتفاق واتحاد وتكوين موضوع واحد متكامل مع بقية أجزائه المذكورة فى السور الأخرى .

البحث الرابع

القول الحق فى السيد المسيح من وجهة نظر القرآن .

لقد تكلم القرآن الكريم عن السيد المسيح فقال الحق الذى فيه يمترى أهل الكتاب وختم مقاله بقوله فى سورة مريم : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيمْ قَولَ الحقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن ولدٍ سُبْحانَه إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فيكُونْ . وإِنَّ اللهَ ربِّى وَرَبُّكمْ فاعبدُوه هَذَا صِراطٌ مُستَقيم ﴾ ٣٦ من سورة مريم وقال فى سورة النساء ﴿ يَاأَهْلَ الكِتَاب لاَ تَغْلُوا فِى دِينكم وَلاَ تَقُولوا على الله إِلاَّ الحَقَّ إِنَّما المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرَيمَ رسولُ الله وَكلِمتُهُ أَلْقَاها إِلىٰ مَرْيم وَرُوحٌ مِنه . . . . ﴾ ١٧١ من النساء فقد دعا اليهود إلى الرأى الوسط فلا يجعلوا المسيح ابن زنا وإنما هو رسول من عند الله وأمه مريم البتول .

ودعا النصارى إلى الرأى الوسط فلا يجعلوا المسيح إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة إنما هو رسول من عند الله وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام .

لقد ذكر القرآن ولادة عيسى بل حمله والظروف السابقة على ولادته فى سورة مريم من آية ١٦ — ٢٩ وفى سورة آل عمران من آية ٤٥ — ٤٧ .

عيسى يدعو إلى الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيمَ : يَا بَنى اسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِليكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُه أَحمدَ فَلَمَّا جَاءَهم بالبَيِّناتِ قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُبينٌ ﴾ ٦ من سورة الصف .

﴿ وَرَسُولاً إلى بَنِي إسْرَائِيلَ أنِّي قَدْ جِئْتُكُم بآيَةٍ مِن ربِّكم . . . ﴾ ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ من سورة آل عمران .

﴿ وقَفَّينا عَلَى آثارِهِم بِعِسَى بنِ مَرْيَمَ مُصدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيهِ مِن التَّورَاة وآتَيْناهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدًى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينِ ﴾ ٤٦ من المائدة

عيسى نبي ورسولى :

﴿ يا أهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُم . . . ﴾ ١٧١

﴿ لَن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكونَ عَبداً للهِ ولاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَن عِبادَتِهِ ويَسْتَكبِرْ فَسَيَحْشرُهُمْ إليه جَمِيعاً ﴾ ١٧٢ من النساء

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إنَّ اللهَ هُو المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أرَادَ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وأُمَّه وَمن فِي الأَرضِ جَمِيعاً ﴾ ١٧ من المائدة . وكذا آية ٤٦ من المائدة وقد مضت .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هُو المسيحُ ابنُ مَريمَ . وَقَالَ المسيحُ يَا بَنِي اسْرائِيلَ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُم إنه مَن يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عليهِ الجَنَّة . . . ﴾ ٧٢ من المائدة .

وقوله فى سورة الزخرف .

﴿ إن هُو إلاَّ عَبْدٌ أنعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْناه مَثَلاً لِبنِي اسْرَائِيلَ . . . ﴾ ٥٩ من الزخرف .

﴿ وَجَعَلْنا ابنَ مَرْيَمَ وأُمَّه آيةً وَآويناهما إلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ٥٠ من المؤمنون .

﴿ ثُمَّ قَفَّينَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّينَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وآتَينَاهُ الإِنجِيلَ . . . ﴾ ٢٧ من الحديد .

عيسى والحواريون:

يقول الله تعالى : ﴿ وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي قَالُوا : آمنا واشْهَدْ بأَنَّنَا مُسْلِمُونَ . ﴾ ١١١ و ١١٢ . من سورة المائدة فالحواريون وهم أصحاب عيسى قد آمنوا به وأسلموا له ثم طلبوا من عيسى أن يتنزل الله عليهم مائدة من السماء وقد أنزلها الله اقرأ الآيات ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ من سورة المائدة وقد ذكرهم الله فى سورة آل عمران حيث قال : —

﴿ فلما أَحَسَّ عيسَى منهُم الكُفْرَ قَالَ من أنصارى إلى الله قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمنَّا باللهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلمون ﴾ ٥٢ من آل عمران وفى سورة الصف آية .

﴿ يأيها الذين آمنُوا كُونُوا أنصارَ الله كَما قال عيسى بنُ مريم لِلْحوَارِيِّين مَنْ أنصارِى إلى اللهِ قال الحواريُّون نحنُ أنصارُ الله . . . ﴾ ١٤ من الصف .

كفر النصارى بعيسى :

﴿ . . . وقالتِ النَّصارى المسيحُ بنُ الله ذلكَ قولُهم بأَفواههم يُضاهِئونَ قولَ الَّذين كفرُوا منْ قبلُ قاتلَهم اللهُ أنَّى يُؤْفَكُون ﴾ ٣٠ ، ٣١ من التوبة .

نهاية عيسى :

﴿ إذْ قَالَ اللهُ يا عِيسَى إنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِن الَّذِين كَفَرُوا .. ﴾ ٥٥ من آل عمران .

﴿ وَقَولِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا المسيح عيسى ابنَ مريمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ . ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ من سورة النساء .

عيسى فى الآخرة :

﴿ وَإذْ قالَ اللهُ يَاعِيسَى ابنَ مريمَ أأَنْتَ قُلتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَال : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أن أقولَ مَالَيس لِى بحَقٍّ ... ﴾ ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ من سورة المائدة .

وإنى أحيلك على ما كتبته فى التفسير الواضح فى الجزء السادس الطبعة الثانية وما بعدها .

أرأيت أن الوحدة الموضوعية لم تتكامل ولم تتم إلا بضم كل ما نزل فى السُّوَرِ كلها مما يتعلق بالموضوع الواحد . . . ؟ ! !

* * *

الآن نستطيع بحمد الله أن نقول : إن الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم حقيقة ظاهرة اكتشفناها من النظر فى القرآن الكريم ودراسته بعمق، ودراسة الجو العام لنزوله مفرقاً حسب الحوادث ، ومنجما وفق أحداث الأمة العربية وتطورها بعد النبوة تطوراً سريعاً وعميقاً حتى بلغت القمة « . . اليومَ أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ دينا » من سورة المائدة .

والوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم بمعنى أن الآيات الكريمة التى نزلت فى موضوع واحد وقد ذكرت فى سور متعددة ، واختلفت فى نزولها وقتا ومكانا ومناسبة هذه الآيات تكون موضوعاً واحداً متكاملا متناسقا لا تباين فيه

ولا اختلاف ولا تضارب . ولا شك أن هذا الفهم أراحنا من ارتكاب الشطط فى كثير من الأحيان لأجل التوفيق بين قوله تعالى مثلا « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » من سورة النحل . وقوله « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . . » آخر سورة الأحقاف .

فهذه الآيات تأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر وتحمل الأذى ، وعدم الوقوف أمام المشركين بالسلاح ، وقصرت جهاده فى هذه الفترة على تلقى الدعوة وتفهمها ونشرها عند من يتقبلها ، ولا بأس أن يكون ذلك سراً ، وعلى الصبر وتحمل الأذى من المشركين هو وصحبه هذه الآيات وأمثالها كثير فى السور المكية . . وإذا وضعتها بجوار الآيات المدنية التى تأمر النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار بالقتال والحرب والدفاع بكل قوة ، وخوض المعارك فى كل مكان كقوله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » ١٩١ من سورة البقرة. وقوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ... » ١٩٣ من سورة البقرة .. وجدت مايشبه التضارب ومن هنا تحير العلماء ، واختلفت نظراتهم ، حتى لقد قال بعض العلماء إن الآيات المدنية نسخت الآيات المكية وتحملوا فى سبيل ذلك الكثير خروجا من هذا المأزق .

ولكن أليس من الخير أن نفهم أن موضوع الجهاد فى الإسلام له مراحل، وكل مرحلة لها نظام خاص وشكل خاص ، وأنه لا نسخ ، ولكنه تكامل تام ووحدة فى الموضوع ، وهذا يعنى أن المسلمين فى بعض الأحيان قد تضطرهم الظروف للموادعة والمسالمة والصبر والملاينة حتى تستكمل العدة ويكمل العدد والمدرب المناسب للقاء العدو ومثل هذا الموضوع فى القرآن الكريم كثير .

ولقد اخترنا من هذه الموضوعات أمثلة ثلاثة تؤيد نظريتنا ، وتكشف عن حقيقتها : مثال فى العقيدة هو الألوهية لله سبحانه وتعالى .

وآخر فى التشريع هو بحث موضوع الربا والخمر .

وثالث فى القصص ، وقد اخترنا قصة موسى عليه السلام .

ونحن فى بحثنا لم نأل جهداً فى أن نعطى للقارىء صورة متكاملة عن الموضوع. بجمع آياته والتدرج معها حسب النزول ، والتعرض لبعضها بالشرح والتحليل ، محاولين أن نبين ما فيها من أسرار إلهية تثبت قلوبنا ، وتنير بصائرنا ، وتكون معالم لنا على الطريق السوى .

فهيا بنا ننظر فى موضوع الألوهية !!!

الألوهيّة

وفيها أربعة أبحاث :

١ — الإنسان . وتكوينه وتطوره

٢ — الحيوان . وخلقته ومنافعه

٣ — النبات . ونشأته وتنوعه .

٤ — الكون وما فيه من عوالم علوية وسفلية .

البحث الأول

فى عالم الإنسان

فى هذا البحث جمعنا الآيات التى نزلت فى هـذا الموضوع وعرفنا المكى منها والمدنى ، مع ترتيبها حسب النزول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ودراستها آية آية ثم دراستها كلها كمجموعة متكاملة .

* * *

ولقد وجدنا أن الآيات المكية النزول كانت على مرحلتين على سبيل التدرج مع المخاطبين وتطور إدراكهم .

المرحلة الأولى : وآياتها تعنى ببيان خلقته الأولى، وأصل تكوينه وأطوار نموه فى بطن أمه ، ثم ما كان له من سمع وبصر ، وحسّ وذوق وعقل وإدراك، ثم هو بعد ذلك خصيم مبين لمن خلقه .

المرحلة الثانية : وآياتها تتكلم على الإنسان ككائن حىّ إذ بعد ما ذكر صار بشراً سويا فجعل الله له نسباً وصهراً ، وكان معه التزاوج ، وله الآجال المختلفة ، والأرزاق المتباينة ، مع اختلافه لونا وشكلا وجنساً وطبعا .

والغرض العام الذى يهدف إليه القرآن الكريم من كل ذلك بيان مظاهر القدرة والعظمة لله سبحانه وتعالى ، وبيان شمول علمه وتمام حكمته ، وأنه لهذا المستحق وحده للألوهية الكاملة « شهد الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » من سورة آل عمران .

فالإنسان خلق من تراب ثم من نطفة ، فعلقة . فمضغة مخلقة وغير مخلقة ثم كسى عظامه لحما ، ثم صار خلقا آخر . . . فتبارك الله أحسن الخالقين .

إن تطور الإنسان ككائن حىّ حتى يصل إلى هذا أمر مسلّم به ، وصار

حقيقة بدهية ، ولـكن من الذى خلقه بهذا الشكل وحوّله من حال إلى حال ، ومن طور خاص مميّز إلى طور آخر مخالف له أى من طبيعة إلى طبيعة ، مع أنه فى قرار مكين كان فيه إلى قدر معلوم، ثم هو بعد ذلك يصير طفلا ذا شعر وظفر وسن وعظم ويظل كذلك إلى أن يأتيه أجله مرة فى صغره ، وأخرى فى شبابه، وقد يكبر حتى يرد إلى أرذل العمر .

من الذى خلق كل هذا ؟ ! !

أهى الصدفة ؟ لا أبدا .. لم تـكن الصدفة تجرى على سنن واحد ، وتـكون هكذا مع كل الأفراد وإلا لمـا كانت صدفة .

أنقول إنها الطبيعة ؟ !! لا يمـكن أبدا لأن الطبيعة لا تحول المـاء إلى دم فلحم فسن فظفر. وهل الطبيعة هى التى أوجدت هذه الأجهزة الدقيقة فى الجسم كجهاز السمع وجهاز الإبصار ، وجهاز التفـكير والسيطرة على الأعضاء كلها؟ على أن الطبيعة أمرها مطرد لا يتخلف ونحن لا نرى اطرادا بالمعنى المعروف .

والقرآن الـكريم فى هذا لفت أنظارنا إلى الـكون من حولنا فاتجه إلى :

الإنسان وتطوره . . .

والحيوان وخلقته . . .

والنبات وتنوعه . . .

والـكون ومافيه . . .

لفت أنظارنا إلى هذا كله لنستدل بها على وجود الله وألوهيته الـكاملة.

فهيا بنا نرى ما ذكره القرآن الـكريم فى شأن الإنسان وتطوره .

قال الله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ﴾ سورة العلق .

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ ٢١ من سورة عبس.

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ٤٠ سورة القيامة .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِن مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ٢٤ من سورة المرسلات .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ١٠ سورة البلد .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ٧ من سورة الطارق .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . ﴾[1] ٧٧ من سورة يس .

* * *

لعلك تقرأ هذه الآيات البينات الواضحات المشرقات التي تأخذ بيد كل من أسلم القياد لله وحكم عقله بلا هوى . . . فتجد أنه للكتاب المحكم المنزل حقاً من عند الله. تجد أن هذا ترتيب عجيب لا يصدر إلا ممن رتب الكون من

---

(١) جمع هذه الآيات وترتيبها قد سرنا فيه على نظام ما ذكره الشيخ السماحي في مذكراته .

قديم الأزل ، وإلا فمن علم النبي الأمي الذى نشأ فى بيئة أمية جاهلية ، هذا كله وصدق الله حيث قال : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الايمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهدِى بِهِ مَنْ نَشَاء مِن عِبادِنَا ﴾ من سورة الشورى .

تعال معى إلى أول آية نزلت على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم . بعد هذا الحوار الدقيق العميق بين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبين أمين الوحى جبريل حتى تنبهت مشاعره وتفتحت روحه « اقرأ باسم ربك . الذى خلق .. خلق الإنسان من علق » والعلق الدم الجامد . أى من قطعة من دم رطب والنطفة لاتكون علقة إلا بعد التقاء الحيوان المنوى المذكر بالبويضة التى للأنثى فيكون بعد ذلك ذكر أو أنثى .

وهنا يلفت القرآن نظرنا إلى أننا الآن نخلق من نطفة الذكر مع بويضة الأنثى (خلق الإنسان من علق) وهكذا آباؤنا وأجدادنا .

ثم بعد ذلك أو قبل ذلك . من الذى خلق الذكر الأول والأنثى الأولى ؟

إن الذى جعل من نطفة الرجل والمرأة هذا (العلق) وهو فى قرار مكين بعيد عن كل المؤثرات ثم جعله أطوارا حتى كان وليدا . . . .

إن الذى خلق هذا هو الذى خلق الإنسان الأول « خلقكم من تراب ثم من نطفة . . .»

ثم يلفت نظر الإنسان إلى نفسه قبل أن يكون علقه ...

قتل الإنسان ما أكفره !! من أى شىء خلقه !! من نطفة خلقه فقدره ... ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره !! .

نعم إن هذه العلقة التى تكونت من نطفة الرجل مع بويضه الأنثى .

إن النطفة التى ألقاها الرجل من قدرها ؟ ومن إلى السبيل يسرها ؟ من

دفعها وحرّكها حتى التحمت ببويضة الأنثى ، ثم كان الذكر والأنثى ثم كانت الحياة ، وبعدها الموت والقبر ، ويبقى الله وحده (كل شيء هالك إلا وجهه) .

* * *

ثم يلفت نظرنا إلى أن هذه الأمور لا تجرى وفق الطبيعة العمياء ، ولا الصدفة الخارقة[1] وإنما كل ذلك بتقدير وإحكام . نطفة ، فعلقة . فمضغة مخلقة وغير مخلقة ، ثم سواها وبعث فيها روحاً وحساً وحركة . ثم كانت ذكراً أو أنثى !! عجب يثير العجب !! معمل واحد . على نظام واحد جزيئات تتحد ثم يكون منها ذكر تارة وأنثى تارة أخرى . فكيف خلقت ! وكيف سويت ؟ ! وكيف كان الذكر والأنثى ؟ !! أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ! ثم يلفت نظرنا إلى أن هذه الأطوار ، وتلك الأحوال التى يمر بها الإنسان حتى يكون إلى ما كان . . . كيف يكون ذلك بدون تقدير وإحكام ؟ ! !

ألم يك نطفة — أصل النطفة الماء الصافى ثم أطلقت على منىّ الرجل — ثم كان علقة ؟ ألم يخلقنا الله من ماء مهين — منى الرجل — قد حمل اللقاح من الرجل فجعله مع بويضة الأنثى فى قرار مكين — هو رحم المرأة — جعله فى

---

(١) يقول الدكتور أحمد تركى رئيس المجلس الأعلى للبحث العلمى : « إن العلم يؤيد الدين ويقدم البرهان والدليل على قدرة الله الواحد الأحد ، ويثبت أن خلق الكون لا يمكن أن يكون صدفة بل هو نظام متكامل تحكمه قوى هائلة تعمل بحساب دقيق منظم يحفظ لها تناسقاً وتضاماً وتكافلا يعجز العقل عن تصوره ، هناك حقائق ظهرت بعد تقدم البحث التكنولوجى الهائل فى هذا العصر تثبت أن معجزة الخلق فى الكون كله واحدة لا تتغير ، وتتمثل فى قلب أصغر وحدة من المادة أضنى الذرة ، وما علمنا إلا قطرة من محيط علم الله هذا البحث مذكور فى ملحق الجمهورية ١٤ شوال سنة ١٣٨٥ .

قرار مكين حقاً ، ولـكن إلى قدر معلوم محدود بالضبط ، ثم هو بعد ذلك يخرج منه إلى الحياة باكياً ، فيه غرائز الحياة ومعداتها ، وصدق الله « فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين » ، ويكذبون كذلك بهذه الحقائق الناطقة .

* * *

ثم ينقل القرآن الكريم الإنسان ، ويلفت نظره إلى شيء أعجب من هذا . . إلى أمور معنوية ليست مادية ، ولا يمكن أن تنشأ عن طريق المادة وحدها ، وإلا فأى فرق بين أى جزء فى الجسم ، وأى جزء آخر .

فمن الذى جعل للإنسان المخلوق من نطفة فعلقة فمضغة ... جعل له العينين .. واللسان . . والشفتين . . ومن الذى هداه إلى النجدين .. ؟ ! !

ياسبحان الله من الذى خلق العينين وجعل فيهما قوة الإبصار ؟ ومن الذى سوّى الحدقة بشكلها وجمالها ، وزينها بأهدابها وجفونها ؟

ومن الذى خلق بؤرة العين ، وإنسانها ، ونقل رموزها وترجمها صورة ناطقة فى عقل الإنسان وإدراكه ؟ ! ! لا يعقل أبداً أن يكون هذا خبط عشواء أو وليد طبيعة عمياء !!

وصدق الله : « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » واللسان وكلامه ، وتذوقه واختلافه فى البشر ، كل له لسان ولغة . . أليس ذلك آية من آيات الله الكبرى ؟ !!

ومن الذى أودع فى الإنسان المخلوق من علقة فمضغة العقل والتفكير والغرائز والميول؟ وصدق الله : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيراً » .

أليس ذلك صنع الله العليم الخبير ، القوى القادر ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

* * *

هذا الماء الذى يحمل المنى إلى بويضة الأنثى فى رحم المرأة مما جاء ؟ وكيف وصل ؟ إنه ماء دافق يخرج من بين الصلب — العمود الفقرى — والترائب — هى عظام الصدر — ومع هذا فالإنسان المخلوق كما عرفت من نطفة يصير خصيما مبينا مجادلا بالباطل من غير هدى ولا كتاب منير « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » من سورة يس .

* * *

أليست هذه الآيات تدل على مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة ، وأن الذى خلق الإنسان بهذا الوضع هو الله وحده لاشريك له سبحانه وتعالى عما يشركون . . .

والآيات التى تحدثت عن الموضوع قسمت إلى قسمين — كما عرفت — ولقد تكلمنا عن القسم الأول وعرفنا أنه يتحدث عن كيفية الخلق فى المرحلة الأولى .

أما القسم الثانى فما بقى من الآيات المكية ، وأنت تراه قد تدرج إلى مسائل ثانوية بعد المرحلة الأولى السابقة ، وهذا مايؤيد بوضوح الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم.

المرحلة الثانية : وفيها يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ.

ثمَّ خَلَقنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلقَةَ مُضْغَةً . فَخَلَقنَا المُضْغَةَ عِظَاماً . فَكَسَونَا العِظَامَ لَحْمًا ثمَّ أَنشَأنَاهُ خَلقاً آخَرَ فَتبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ . ثمَّ إِنكم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ ١٥ سورة المؤمنون .

﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثمَّ جعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثم سَوَّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِن رُوحِه وَجَعَلَ لكم السَّمْعَ وَالأَبصارَ والأَفئِدَةَ قليلاً ما تَشْكرُون ﴾ ٩ سورة السجدة .

﴿ ... الَّذِى خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكمْ أَحْسَنُ عملاً وهُو العزِيزُ الغَفُورُ ﴾ ٢ من الملك .

﴿ قُلْ هُو الَّذِى أَنشأَكُمْ وَجَعَلَ لَكمُ السمعَ والأبصارَ والأَفئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكرُونَ (٢٣) قُلْ هُو الذِى ذَرأَكُمْ فى الأرضِ وإليه تُحْشَرُونَ ﴾ ٢٤ سورة الملك .

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً . وَجَعَلْنَا نَومَكم سُبَاتاً ﴾ ٩ سورة النبأ .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم السَّمَاءُ بَناهَا ﴾ ٢٧ سورة النازعات .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فى أَىِّ صُورةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ٨ من سورة الانفطار .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ومِن آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لكمْ مِنْ أَنفُسِكم أزواجاً لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَل بينكم مَوَدَّة ورحمة إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لقومٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِن آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأرضِ واختلافُ أَلسِنَتِكمْ وَأَلْوَانِكمْ إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ

العالمين (٢٣) ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ٢٢ سورة الروم .

وبقية الآيات ستأتى خلال البحث

* * *

هذه مرحلة ثانية جاوزت الطور الأول فى الخلق إلى ما يترتب عليه من أنساب وصلات ومن أزواج وألوان . وتقدير آجال وأعمار . نعم يلفت نظرنا إلى حقيقة أوضح من الشمس، إذ بعد أن عرفنا أن الإنسان خلق من ماء يمنى، أراد أن يقول إن الماء كان منه بشر يأكل ويشرب ويذهب إلى الخلاء ويتكاثر بالزواج وينمو ، ففيه صفات البشرية المتباينة مع صفاته المائية ، وكان من البشر قرابات وأنساب من جهة الأب وأصهار من جهة الأم .

* * *

ثم لأول مرة على حسب ترتيب القرآن فى النزول يلفت القرآن نظرنا إلى أننا خلقنا من تراب . . . . قبل أن نخلق من نطفة . . . نعم خلق آبانا آدم من تراب ، ثم كنا نحن من نطفة أمشاج ، وهذه النطفة التى صارت علقة كان منها الزوجان الذكر والأنثى ، وكان منها على هذا التناسل والتكاثر والله وحده هو الذى يعلم ما تحمل كل أنثى ومتى تضع ، وكيف تضع ، وهو وحده الذى يعلم آجال الأجنة وأرزاقها وما قدر لها من عمر وأجل وغيره .

فما يزاد من عمر ولا ينقص منه إلا بأمره سبحانه ، وذلك على الله يسير، فانظروا إلى هذا التباين بين التراب من حيث هو مادة لا حياة فيها والإنسان الذى خلق منه باعتباره كائناً حياً له إحساس وعقل وتفكير وحركة ، ثم انظروا إلى النطفة والعلق وإلى الإنسان الذكر والأنثى ، ثم هذا يموت جنيناً أو طفلا أو شاباً وهذا يعمر حتى يهرم أو يزيد . أيعقل أن يكون ذلك بدون قدرة وعلم وحكمة وإرادة الله !! تعالى عما يشركون .

ثم هو يلفت نظرنا إلى حقيقة أخرى أن الناس والدواب والأنعام كل مختلف ألوانه ، حتى ألوانه النفسية ، والجبال كذلك ، وهذا يدلنا على أن أصل الكل واحد مخلوق من تراب .

ثم كان اختلاف الأجناس ، والأنواع ، والألوان ، ولا يعرف هذا إلا العلماء الذين يخشون الله حق الخشية . . . (إن الله عزيز غفور) . . آية ٢٧ ، ٢٨ من سورة فاطر . ثم هو يجابه المنكرين وجهاً لوجه قائلا : نحن خلقناكم فهلا تصدقون إن كنتم فى شك من هذا ، فانظروا إلى المنى وتطوراته وهو فى قرار مكين ومكان حصين بعيد عن كل المؤثرات ، ثم نحن قدرنا لكل كتاب أجلا ولكل نفس نهاية ، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يتقدمون نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين ونحن القادرون على ذلك وعلى أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، وأنتم تعلمون نهاية من كان قبلكم فهلا تتذكرون وتتعظون » اقرأ آية ٥٧ — ٦٢ من سورة الواقعة .

ثم يبتدىء القرآن أسلوباً يبين فيه أصل الإنسان الأول مشيراً إلى غرائزه وطبائعه وإلى دور الملائكة معه ، وإلى دور إبليس اللعين ، لعلنا نعرف أنفسنا حقا ، يقول الله تعالى فى سورة الحجر :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن صَلصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ من نار السَّموم ﴾ ٢٧ من الحجر .

والقرآن الكريم عبر عن خلق الإنسان الأول تارة بأنه خلق « من طين لازب » كما فى سورة الصافات وتارة أنه خلقه من تراب — كما فى سورة غافر وغيرها .

ولعل ذلك إشارة إلى ما ينطوى عليه الإنسان من غرائز وميول فهو

مخلوق حقا من تراب [١] ولكن هذا التراب معه ماء فصار طيناً لازباً ، ثم صار حما مسنوناً أسود منتناً — ثم صار صلصالا كالفخار . تلك إشارات كلها لما فينا من غرائز متأصلة لزجة كالطين اللازب ، وهذه الغرائز عند البعض تشتد وتقوى حتى تشبه الحما المسنون وهو الطين الأسود المنتن ، ثم نحن مع مغريات الحياة من مال وجاه ونساء كالصلصال والفخار سهل الانكسار والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم « وخلق الإنسان ضعيفاً » ، وأمرت الملائكة بالسجود تكريماً وتعظيما ، لحكمة الله فى خلقنا وبديع صنعه فينا وإشارة إلى أنهم معنا كرام حافظون وكاتبون ، وأما إبليس اللعين فأقسم ليغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين .

* * *

وها هى نعمة أخرى خلقنا بقدرته وجعل لنا مستقراً فى بطون الأمهات ومستودعاً فى أصلاب الرجال حتى يأتى الأجل المضروب والموعد المحدود ، ونحن فى بطون أمهاتنا فى قرار مكين [٢] ثم بعد ذلك ينمو الجنين وترسل

---

(١) يقول الدكتور عثمان حلمى فى كتابه من آيات الله فى الكون ص ١٦ « وإنه ليتضح لنا اليوم من التحليل الكيماوى للطين ، وسائر الخلايا التى تبنى منها مختلف أعضاء جسم الإنسان أن تلك الخلايا بأجمعها تتكون من نفس العناصر التى تدخل فى تركيب الطين وهو الناتج من امتزاج تراب الأرض بالماء الذى يدخل فى بقاء كل كائن حى كما قال « وجعلنا من الماء كل شىء حى »

(٢) والجنين فى بطن أمه تحتويه لفافة لا ينفذ منها ضوء ولا هواء تعرف بالكيس الجنينى ، وتتكون من طبقات ثلاث « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » .

فيه الروح فيتغذى ويتحرك ويتنفس ، سبحان الله القوى القادر ، هل هناك مع الجنين أحد . . . هل هناك طبيعة ؟ هل هناك صدفة ؟ تعالى الله عما يشركون أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون !!!

* * *

الله وحده الذى جعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها ، وجعل السماء فوقكم بناء رفع سمكها فسواها ، وصوركم ربكم فى بطون أمهاتكم فأحسن صوركم ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ آل عمران . صوركم ورزقكم من الطيباب ذلكم الله ربكم فتبارك الله أحسن الخالقين . هو الله الذى خلقكم من تراب ـ كما قلنا من قبل خلق أبانا آدم منه ـ ثم خلق بقية الخلق من نطفة فعلقة ، فمضغة مخلقة وغير مخلقة ، ثم أنشأنا خلقا آخر فيه روح وحياة (٢) . ثم يخرجكم أطفالا ثم تمرون بدور الطفولة حتى تبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يقضى عليه فيموت قبل هذا ، ومنكم من يبقى ليرد إلى أرذل العمر ، إنما كان ذلك كله لتعتبروا ولعلكم تعقلون . هو الذى وحده يحيى وهو الذى وحده يميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . أنظر آيات ٦٧ ، ٦٨ من سورة غافر .

ثم أراد الله أن ينبهنا إلى أن فى آفاق الأكوان ، وفى خلق الإنسان آيات بينات ستكشفها الأيام فى المستقبل القريب أو البعيد حتى يتبين للناس أن هذا القرآن هو الحق من عنده ، وأن الله على كل شىء قدير وأنه له الملك وحده ، وله الأمر كله ، إذ هو الذى فطر السموات والأرض لاعلى مثال سابق ، وجعل

---

(١) بعض العلماء يفسر الخلق الآخر بالحياة للجنين قبل ولادته ، وبعضهم يرى أن الجنين ساعة يولد تبدأ وظيفة التنفس فى الرئة وقد كانت معطلة فيدخل فيها الشهيق ويخرج الزفير ، ويتحرك القلب بنبضاته العادية وهكذا .

لكم من أنفسكم أزواجا وأشكالا وأصنافا ، قد لا تجد فى كل مليون شخصين يتفقان فى كل شىء ، وكذلك من الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ويخلقكم ويوجدكم فى أرحام أمهاتكم على نظام محكم دقيق ، لا يتعدى مارسم له ولا يختلط صنفان. إن فى هذا لآيات لأولى الألباب .

وهناك مسألة دقيقة جداً أن الله تعالى يتصرف وحده فى أمر الخلق فتراه يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء ذكورا ، وقد يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . اقرأ آية ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .

وأظنك معى فى أن العالم الآن مهما تقدم إلى هنا يقف خاشعاً أمام عظمة الله وجبروته وصدق الله ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ من سورة الذاريات . . (١).

ومن الدلائل على وحدانية الله وكمال ألوهيته أنه خلق الإنسان كما عرفت من نطفة ، ثم يحكم عليه وحده بالوفاة فى أجل معلوم لا يتعداه أبداً فمنا من يموت فى بطن أمه ، ومنا من يموت رضيعاً أو شابا أو شيخاً ومنا من يرد إلى أرذل العمر ، حتى يعود كما بدأ لا يعلم شيئا ولا يدرك شيئا وصدق الله ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . . ﴾ من سورة الحج .

يا سبحان الله أخرجتنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ثم جعلت لنا السمع

---

(١) اندفاع المنى إلى النزول وسعيه بجد ونشاط إلى بويضة الأنثى فى رحم المرأة حتى يتأتى التلقيح . هذه أسرار لا زال العلم يقف عندها حائرا .

والبصر والفؤاد ، فكانت المعرفة والعلوم وتسخير كل ما فى الأرض لعلنا نشكرك وأنى لنا بشكرك ؟ !

فى آيات القرآن عند الكلام على السمع والبصر والفؤاد نرى ظاهرة غريبة تقديم السمع على البصر وإفراد السمع وجمع الأبصار . ياسبحان الله إن الطفل يسمع عقب نزوله من بطن أمه ولا يبصر إلا بعد أيام وأما الفؤاد والعقل فبعد ذلك ويظل يتدرج فى دائرته ، ويطلب العلم من المهد إلى اللحد ، أما إفراد السمع وجمع البصر ، فلأن السمع يأتى من جميع الجهات ولا يمنعه مانع بخلاف البصر . السمع يأتى قهراً وفى حالة اليقظة مطلقا وأما البصر فلابد فيه من القصد والإدراك التام ، فالسمع يكاد يكون واحداً بخلاف البصر فإنه يتعدد بتعدد أحواله . ياسبحان الله هل يعقل إنسان معتدل فى تفكيره أن مثل هذه الحقائق العلمية يعرفها رجل عربى أمى نشأ فى بيئة جاهلية من أربعة عشر قرنا ، آمنت بالله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى سبحانه وتعالى عما يشركون .

ثم يأتى القرآن فى غضون سورة نوح فيقول : « مالكم لاترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » بمعنى مالكم لاتخشون له سلطة وجبروتاً ؟! وقد خلقكم على أطوار ، فلقد خلق الله أباكم من سلالة من طين ، ثم جعل ذريته نطفة فى قرار مكين ثم خلق من النطفة علقة ثم جعل العلقة مضغة ، فخلق المضغة عظاما فكسا العظام لحماً . وهكذا يقول الطب العظم أولا ثم اللحم ثانيا ، ثم بعد ذلك ينفخ فيه الروح فيكون خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم بعد ذلك إنكم ميتون . أرأيت أطوار الإنسان وكيف تكون !!

وفى آية السجدة يصرح بماقلنا : بدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله سلالة من ماء مهين .... فكان الخلق الأول من طين ، وكان الثانى من ماء مهين ، كل هذا ليبلوكم يوم القيامة أيكم أحسن عملا .

الله وحده الذى خلقنا أزواجاً ، وجعل النوم سباتاً قاطعاً للتفكير والعمل ، مريحاً للأعصاب مجدداً للقوى ، ولكن مع ذلك يوجهنا إلى أنه هو الله الواحد الأحد الذى خلق السماء ومافيها من الأكوان ، ثم يلتفت إلينا قائلا : أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ؟ ياأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم حتى لاتخضع له وتؤمن به وبرسله وهو الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك . . . كلا بل تكذبون بالدين وهو الله صاحب النعم وله الآيات الناطقة فمن آياته « أنه خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم فى التفكير والرأى والشكل والحجم مع أن الأب واحد والأم واحدة إن فى ذلك لآيات للعالمين . . . . ومن آياته منامكم بالليل ، وابتغاؤكم المعايش بالنهار كل ذلك من فضله ونعمه إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[1] .

ترى أن مظاهر القدرة والعلم والحكمة والألوهية الكاملة فى خلق الإنسان وتطوره قد كانت لها فى الآيات المكية مرحلتان .

(ا) المرحلة الأولى تهتم بخلق الإنسان ونطوره ونشأته من منىّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، ثم كان منه الذكر والأنثى ، ثم كان له عينان ، ولسان وشفتان وهداه ربه إلى النجدين . ومركز التوجيه والالتفات إلى الإنسان ، فى أنه خلق من نطفة فعلقة « فمضغة فعظام يكسوها اللحم ، ثم هو بعد ذلك يخرج من بطن أمه فى وقت معلوم يسمع بعد لحظات ، ويرى بعد

---

(١) اقرأ الآيات من ٢٠ حتى آية ٢٦ من سورة الروم .

أيام قليلات ثم يدرك ويحس بعد أيام طويلات . فهل هذا الانتقال من حال إلى حال ومن طبيعة إلى طبيعة أخرى مباينه فطبيعة الدم غير طبيعة الماء (المنى) وطبيعة اللحم غير طبيعة العظم والسن والظفر والشعر . ثم هذا كله وهو فى ظلمات ثلاث بعيداً كل البعد عن المؤثرات ثم وجود مراكز الإحساس فى الإنسان .

هل هذا كله يتم صدفة أو بطبيعة عمياء أو لظ وف طارئة لا يعقل أن يكون هذا أبدا ، ثم من علم النبى الأمى الذى نشأ فى مكة من أربعة عشر قرنا ، هذه الحقائق العلمية الدقيقة وهذا التطور العجيب ثم هذه الفروق بين السمع ، والبصر ، والإدراك .

ألا إن هذه أدلة أوضح من الشمس فى رابعة النهار على أن الإنسان من خلق الله وآية من آيات الله الدالة على ربوبيته وألوهيته الكاملة سبحانه وتعالى عما يشركون .

(ب) المرحلة الثانية — تهتم بما يترتب على الخلق بمراحله الأولى ، وما ينشأ عنه من أطوار وأحوال هذه الأطوار وتلك الأحوال المختلفة المتباينة مع اتحاد الأصل والمنشأ ألا تدلنا على وجود الله القادر العليم الحكيم وأنه هو الله وحده لا شريك له سبحانه وتعالى عما يشركون . فمن الذى جعل من الماء — المنى — بشراً سويا ثم كان له نسب وصهر ثم من الذى خلقكم من تراب ثم جعلكم أزواجا وأصنافا كل بقدر معلوم . ثم من الذى خلقكم وجعلكم مختلفين لونا وشكلا ولغة وإدراكا . من الذى قدر الآجال والأعمار والأرزاق ؟ من الذى خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، ثم خلق لكم مستقراً ومستودعا وكنتم فى بطون أمهاتكم فى ظلمات ثلاث ، فمن الذى صوركم فى الأرحام . ورزقكم من الطيبات وحدد لكم الآجال ، ووهب لمن

يشاء ذكورا ولمن يشاء إناثا وجعل من يشاء عقيما . من الذى جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة « مالكم لاترجون الله وقارا وقد خلقكم أطوارا» أليس الذى خلقكم فسواكم فعدلكم فى أى صورة شاءها صوركم أليس ذلك هو الله رب العالمين فاعبدوه واشكروه وحده ولا تشركوا به شيئاً .

* * *

ولم يكن القرآن الكريم ليهمل الدعوة إلى الله وإلى عبادته وألوهيته فى المدينة المنورة ، نعم إن السور المكية حافلة بهذا لأن أهدافها الدعوة إلى عبادة الله وحده وإلى إثبات وحدانيته ثم إثبات الوحى والرسالة ، والتحدث عن قصص الأنبياء كأسلوب مقرر للرسالة ثم الحديث عن البعث والجزاء ومايتبع ذلك من ذكر أوصاف الجنة والنار ومشاهد يوم القيامة ، ومع ذلك فالأساس الأول عبادة الله وتوحيده ولقد تعرّضت لها السور المدنية كذلك فى سورة البقرة ينادى الناس جميعا :

﴿ ... يا أيُّها الناسُ اعبدُوا ربَّكمُ الذى خلقكمُ والَّذينَ مِنْ قبلِكم لعلكم تتقُون ... ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكيف تكفرُونَ باللهِ وكنتم أمواتاً فأحْياكمْ ثمَّ يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليهِ ترْجعُونَ . هُوَ الَّذِى خلقَ لكم مافِى الأرْضِ جميعاً ثمَّ اسْتوَى إلى السَّمَاءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ وهُو بكُلِّ شىءٍ عليم ﴾ .

وفى سورة البقرة كثير من الآيات الدالة على قدرته .

وفى سورة الرحمن بناء على أنها مدنية يقرر على مسامع الدنيا أنه هو الرحمن الذى علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان . إذ كيف تعلم الإنسان الإفصاح عما فى نفسه والإبانة عما فى ضميره بنطق صحيح سليم وكلام مرتب وكيف فهم

عن غيره مايريد . وأنه خلق أوله من صلصال كالفخار فكيف هو اليوم يعقل ويفكر وقد يكفر بالله .

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً ﴾ سؤال لايكون جوابه إلا . . بنعم . . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ـ أخلاط ـ فيها من الذكر وفيها من الأنثى مع صغرها فجعلناه بعد ذلك سميعاً بصيرا سبحان الله الواحد الأحد[1] .

هو الله وحده الذى خلق الإنسان فكان منه المؤمن وكان منه الكافر ، والله بما تعملون بصير ، هو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير .

هل ترى بعد ذلك بياناً وتفصيلا ؟ هل ترى بعد ذلك إحكاما وتقديراً ؟ هل ترى بعد ذلك حجة لكبير العقل أو صغيره . . هل ترى مثل ذلك البيان . . هل ترى أن ذلك يصدر من إنسان ؟

هل يتصور أن رجلا أميا عربياً عاش فى الجزيرة العربية من أربعة عشر قرنا يقول مثل ذلك؟ وأخيراً ألم تر إلى وحدة الموضوع وتسلسل التنزيل ، وإحكام الحجة إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) ينظر كلام المهندس عثمان حلمى ص ١٨ من كتابه (من آيات الله فى الكون) .

الحيوان خلقه ومنافعه :

الكائنات الحية التى فى هذا الكون من إنسان وحيوان . ونبات كلها ترجع فى الأصل إلى شىء واحد. ثم انفصل الحيوان عن النبات ، وتكاثر هذا وذاك وكان الإنسان مع الحيوان فى أصل الخلقة إذا الكل من ماء وطين ﴿ إنى خالق بشرا من طين ﴾ والله خلق كل دابة من ماء . . .

إلا أن الله كرم الإنسان وشرفه عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير ، وبالكلام والبيان وبتسخير كل شىء فى هذا الكون له ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ١٣ من الجاثية وصدق الله ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ .

ولأن أصل الخلقة فى الإنسان والحيوان واحد لم يتعرض القرآن الكريم عند الكلام على الحيوان لأصل خلقته ، فلقد سبق هذا عند الكلام على الإنسان ونشأته ودلالة ذلك كله على ألوهية الله سبحانه وتعالى وتفرده بالعبادة والتشريع .

ألا ترى أن أول آية تكلمت عن الحيوان فى سورة يس وهى فى ترتيب النزول بعد الثلاثين وقد تكلم القرآن فيها عليه كـكائن حىّ مستدلا على ألوهية الله بذلك الحيوان وماخلق فيه وما ركب لافتا نظر الإنسان إليه كنعمة أسداها الله له حيث خلق الله له الحيوان وانتفع به .

والقرآن الكريم قد اتجه هنا لمكانه فى الدنيا، ولعلاقته بالإنسان ، وأنه مثله فى خصائصه التكوينية من ناحية التناسل. والتكاثر والتوالد ، واختلاف

فى الشكل واللون والطبع. فهيا بنا نقرأ الآيات التى نزلت فى الحيوان وندرسها لنقف على بعض ما يريده القرآن منها . قال الله تعالى :

﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملتْ أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ ٧٣ سورة يس ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ٢٨ فاطر .

﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقُها ، ويعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ ٦ من هود ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ... ﴾ ٢٨ من الأنعام .

﴿ ومن الأنعام حمولةً وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين . ومن المعز اثنين . قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ١٤٤ من سورة الأنعام . ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم . وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتْنا فيها من كل زوج كريم ﴾ ١٠ سورة لقمان .... ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ ٦ سورة الزمر ﴿ والله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته فأى آيات

الله تنكرون ﴾ ٨١ سورة غافر ﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ... ﴾ ١١ ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ ٢٩ الشورى ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ١٤ الزخرف ﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ ٤ سورة الجاثية ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ ١٢ الغاشية ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ ٩٧ ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ ... ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سُبُلَ ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ٦٨ سورة النحل ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ ١٩ سورة الملك .

التوضيح والبيان للآيات السابقة :

يقول الله تعالى : فى سورة يس ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها ما لكون . . . . ﴾

فهو إذ يخاطب المشركين والكفار ناعيا عليهم كفرهم وتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم مع وضوح الدلالة على صدقه يقول : أعموا ولم يروا أنا الله الذى خلقهم قد خلق لهم أنعاما ، وذللها لهم وملكهم إياها ألم تر إلى الطفل الصغير يقود الجمل الكبير ، والحارس الماهر يقود ذلك الأسد الكاسر حقا إن من نعم الله

علينا أنه خلق لنا الحيوان وملكنا أمره ، وذلله لنا حتى انتفعنا به فى كل وجوه الانتفاع فمن الحيوان نركب ، ومنه نسخر ، ومنه نأكل ، ولنا فيه منافع فى حمل الأثقال وجر العربات ، والانتفاع بوبره وصوفه وشعره ، بل وعظمه وجلده وسنه ولنا منه مشارب من لبن وغيره أفلا يشكر الإنسان هذه النعم ويؤمن بالله وبرسله معتبرا أن هذا من دلائل ألوهية الله ووحدانيته ، وإلا فمن الذى سخر الحيوان الضخم الكبير للإنسان الضعيف البسيط فى شكله ولا يعقل أن تكون الطبيعة أو الصدفة أو الظروف فالطبيعة لا تفرق والظروف قد تعمل العكس ، والصدفة لا يعقل أن تكون فى كل زمان ومكان مضطردة ، ونظرية بقاء الأصلح وقضاء القوى على الضعيف تتنافى مع الإنسان والحيوان .

ثم انتقل القرآن بالإنسان إلى مرتبة أعلى لافتاً نظرنا إلى خاصية فى كل موجود فى هذا الكون وهى اختلاف لونه وشكله ، ولعل السر فى ذلك ـ والله أعلم ـ أن الاختلاف مما يقضى على أكذوبة الصدفة . . أو الطبيعة الذاتية . . . أو الظروف الطارئة . فإن الاختلاف وراءه قدرة وعلم وإرادة وحكم . . وهذا لا يكون إلا لله سبحانه الواحد القهار « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه . كذلك » وقبل ذلك قال عن الجبال والثمرات : إنها مختلفة الأشكال والألوان ، وليس وراء اختلافها هذا إلا القدرة القادرة والحكمة التامة ، ولأمر ما عقب على ذلك كله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فإن العلماء إذا وقفوا على أسرار الاختلاف لا يسعهم ـ إذا كانوا يؤمنون بالغيب وقلوبهم مفتحة للخير ـ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ويخشوا الله حق خشيته .

فالكائنات كلها إما من الأرض مباشرة كالجبال والرمال وإما منها بواسطة كالنبات والحيوان ؛ واللون والشكل فى الجميع ـ كما قال علماء الطبيعة ـ ينشأ من

أن الله جلت قدرته خلق عناصر الأرض فيها خصائص شتى فمنها ما يمتص بعض الألوان ، ولا يمتص البعض الآخر ومنها ما يمتص الكل ، ومنها ما لا يمتص شيئا أبداً وهذا يكون أبيض اللون [١] وما يمتص كل الألوان يكون أسود وما يمتص البعض ويطرد الأحمر مثلا هو الأحمر [٢] .

فسبحان الذى بيده كل شيء ، وله وحده الحكم وإليه ترجعون ، وحقا .. إنما يخشى الله من عباده العلماء ، أى الذين يؤمنون بقوى غيبية أما الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالمادة فهم لا يمكنهم أن يؤمنوا بالله أبدا ، إذ ينظرون إلى السبب المادى ويتركون خالق الأسباب والمسببات وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ١٠٥ من سورة يوسف .

* * *

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى معنى فيه شيء من الدقة . . ذلك هو أمر الرزق ، والرزق للحيوان لازم من لوازم الحياة ، والإنسان منا قد يستخدم عقله وفكره فى جلب الرزق فتراه يزرع ويحفر . ويحتال ويصيد ، ويبحث بفكره ، وقد يختزن للمستقبل ، ولكن الحيوان ليست عنده القدرة على ذلك ، ولم يكن من طبعه هذا .

اللهم إلا بعض أنواع كالنمل والنحل وغيرها .

---

(١) انظر إلى الحيوان الصحراوى ، وإلى أخيه الذى يعيش وسط الخضرة انظر إلى الذئب يعيش فى الأصقاع الشمالية بين الثلوج والمياه وإلى أخيه الذى يعيش وسط الصحراء أو الجبال السود .

(٢) انظر رسالة آيات الله فى الكون للمهندس عثمان حلمى .

وهنا تبرز القدرة الإلهية والإرادة الربانية والعلم والإحاطة بكل شيء في مجال تفهم الحقيقة الإلهية فيقول الله « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها . . . . . »

ياسبحان الله كل دابة في الأرض قد ضمن الله لها الرزق كله ، فالحيوان في الصحراء المحرقة مرزوق وهو في وسط الجليد وفي الأصقاع الشمالية مرزوق والدود في الحجر الجلمود مرزوق والجنين في ظلماته الثلاث مرزوق ، والطير في أجواز الفضاء مرزوق . والسمك السابح في أعماق الماء مرزوق ، وكل شيء عنده بمقدار وهو على كل شيء قدير : أليس هذا دليلا على كمال العلم وإحاطته سبحانه وتعالى بكل شيء ، وعلى أنه قادر مريد رحمن رحيم .

ياسبحان الله في الحيوان يقول القرآن ويعلم مستقرها ومستودعها أي الدابة وفي الإنسان يقول القرآن فمستقر ومستودع ، فمستقر الإنسان أصلاب آبائه ومستودع الإنسان بطون أمهاته ولا يكون غير ذلك أما مستقر الحيوان ومستودعه قد يكون كذلك ، وكثيراً ما كان غير ذلك فقد تكون الحشائش أو الأرض أو الماء أو أي مكان آخر مما يعرفه الحيوان ويجول بخاطر الإنسان وقد يكون المستودع أرضا خاصة في العالم كله فلا يوجد ثعبان السمك إلا في جزيرة واحدة في المحيط الهادي ، وليس لهذا النوع مستودع إلا هناك .

أرأيت إلى الحيوان في توالده وتكاثره ، وأنه كالإنسان تماما في الإزواج والمستقر والمستودع وفي سورة الأنعام يذكر القرآن أن الله جعل من الأنعام حمولة تحمل ، من إبل وغيره وجعل منها فرشاً لقربها من الأرض كالغنم والماعز أو لأنه يتخذ منها الصوف والجلود للفرش والأنعام كل بهيمة أحلت للأكل « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . ولها أنواع تعتبر كالأصول ذكر وأنثى من

من الضأن ، ومن البقر ومثل البقر الجاموس وكذلك من الإبل اثنين ومن المعز اثنين فتلك ثمانية أزواج من ذكر وأنثى وذلك للتوالد والتكاثر ولكن لا تنس الذكر الأول والأنثى الأولى من خلقهما ؟ ! !

الله جل جلاله ومن قال بغير ذلك فأولئك هم الظالمون .

يقول الله (ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء) يا سبحان الله مملكة الحيوان مملكة لها نظام خاص فى بقائها وتوالدها ومحافظتها على نوعها فى مملكة الحيوان والطير . مملكة النحل التى تضرب أروع المثل فى تنظيم العمل ، والانقياد للرياسة والتعاون فى العمل مع الدقة والحكمة فى صنع البيت وخلايا العسل .

قل لى بربك من علم الحيوان هذا ، ومن أوحى إليه بهذا ؟ كما سيأتى فى سورة النحل إنه الله لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

* * *

ثم جاء القرآن الكريم فى سورة لقمان . فلفت أنظار العالم إلى بعض أسرار الكون المذهلة فقال (الله الذى خلق السموات بغير عمد ترونها) نعم خلقها معلقة فى الهواء فمن ربطها ورفعها . وأمسكها مع كثرة دورانها وقوة تحركها . ؟

الله الذى ألقى فى الأرض رواسى من جبال وهضاب ، وبث فيها من كل دابة تدب ، وأنزل من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . اقرأ آية الرعد :

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . . . ﴾ ، ولقد عبر القرآن الكريم بالإنزال بدل الخلق أو الجعل للإشارة إلى أن المراد أنزل الأسباب التى منها نشأت الأزواج الثمانية أو هدى إليها . ، وأظهر لكم من الأنعام ثمانية أزواج مختلفة التكوين كل نوع منها معد لمهمة خاصة لا يقوم بها الآخر ، وهذا التناسل فى الحيوان كالإنسان ، يخلق الله الجميع فى بطون الأمهات خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث .

ولكن من الذى خلق أول ذكر وأول أنثى ؟ ! لا يعقل أن تكون الصدفة أو الظروف أو الطبيعة ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾ .

هذه الأنعام التى خلقها الله ثمانية أزواج خلقها لكم، حيث جعل لكم منها ما تركبون وجعل منها ما تأكلون ، وجعل منها منافع لكم غير هذا من الانتفاع بكل شىء منها ، وجعلها كذلك لتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون . ثم قولوا شاكرين إذا ركبتم : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . ثم يعود فيذكرنا بأن خلقنا من تراب ثم من نطفة، وما ينشر الله فى الأرض والسماء من دابة أو طير كل ذلك عن طريق الأزواج آية من آيات الله الدالة على قدرته وعظمته ولكنها لقوم يوقنون .

والله يكرر هذا المعنى ويذكرنا به فى سور متعددة وكل المعنى يدور حول خلقنا أزواجا وخلق الأنعام كذلك . ثم يتحدث عن نعم الله علينا حيث سخر لنا كل شىء فى الكون كل ذلك لنتجه إلى الله فنذكره ، ونستدل بهذا على أن الله هو الخالق البارىء وهو المستحق للألوهية وحده لا شريك له .

* * *

ثم يلفت نظرنا إلى حيوان هو عماد الثروة الحيوانية فى الصحراء ألا وهو الجمل سفينة الصحراء . ولا تعجب من ذكر الجمل هنا أومن ذكر الإبل والبقر والغنم والمعز هناك .فإنهذه هى الحيوانات الأليفة التى يراها العربى وينتفع بها .

ولذا لفت الله نظرنا إلى الإبل خاصة لما لها من أثر حى فى حياة العربى البدوى :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرونَ إلى الإبِلِ كيفَ خُلِقَتْ ﴾ من سورة الغاشية .

حقاً إن تصميم هذا الحيوان لا يمكن أن يصدر عبثاً أوصدفة أو لظروف طارئة أو لطبيعة عمياء فإن الجمل سفينة الصحراء حقا .

أنظر إلى خفه . . . . إلى عنقه . . . . إلى جسمه وهو رفيع ممتد من جهة رأسه وذنبه وإلى ضخامة جثته فى الوسط . . . . أنظر إلى كرشه وما فيه من مخازن للماء ، وإلى سنامه وخزنه للدهن ، وإلى فرطحة خفه وأنه رخو رخص حتى لا يغوص فى الرمال؟ أليست هذه كلها معدات الصحراء ؟ أليس ذلك كله من صنع الله العليم الخبير ؟

ومع الإبل السماء كيف رفعت . . . . الأرض كيف سطحت . . . . .

وهل للعربى البدوى إلا أرض أقلّته ، وسماء أظلته ، وإبل سقته وحملته . إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب .

* * *

ثم جاء دور سورة النحل وهى سورة النعم التى أنعم الله بها على الإنسان الذى خلقه من نطفة فإذا هوخصيم مبين لله الذى خلقه فسوّاه وكرّمه، ولـكن قُتِل الإنسان ما أكفَرَه !! .

ولقد فصل الله فى هذه السورة بعض الحديث عن الأنعام وعن النعم التى ساقها الله فيها للإنسان .

... نعم خلق الأنعام لنا ، ولنا فيها دفء من أصوافها وأوبارها وأشعارها ولنا فيها منافع سيأتى الحديث عنها قريباً . من الأنعام ماهو مسخر للأكل . ويظهر أن الأنعام هنا أعم من الإبل والبقر والغنم .

ولكم فيها جمال يريح النفس ويرضى الخاطر حينما تعود من المراح وحين تذهب وتسرح إلى حيث المرعى والعشب فى الصباح وتحمل أثقالكم وأحمالكم إلى بلد بعيد ناء لم تكونو لتبلغوه إلا بجهد ومشقة .

ثم ذكر الخيل والبغال والحمير وأنها للركوب والزينة ويخلق مالاتعلمون ، ولقد صدق الله وعده وتحقق إخباره بالغيب فلقد خلق لنا غير هذا المذكور أشياء ما كنا نعرف عنها شيئا من سفينة وطيارة وسيارة ودراجة ..

وهناك عبرة مابعدها عبرة وآية ناطقة على ألوهية الله ووحدانيته .

تلك العبرة فى الأنعام ولبنها :

﴿وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين﴾ ٦٦ من سورة النحل .

نعم إنها لعبرة مابعدها عبرة لبن خالص أبيض ناصع سائغ للشاربين . يخرج من بين فرث قذر ذى رائحة كريهة ودم أحمر قان ، فقدخرج اللبن أبيض طيبا ليس فيه لون ولا ريح . إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون .

وهذه عجيبة أخرى: نبات أخضر يأكله الحيوان فيخرج منه لبن أبيض.

ويأكله النحل الدوار فيخرج منه عسل مصفى مختلف الألوان فيه شفاء للناس ويأكله نوع من الدود فيخرج منه حرير أبيض .

وبأكله الظبي فيخرج منه مسك أسود .

إن فى ذلك لآية دالة على أن هذا من صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ولم يكن من صنع الطبيعة ولا من صنع الصدفة الطارئة ، ولا من صنع الظروف الملائمة . سبحانه وتعالى عما يشركون .

وها هى ذى عجيبة أخرى فى النحل : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ من سورة النحل .

من الذى علم النحل أن يتخذ من الجبال بيوتا هندسية وأن تتخذ من الشجر بيوتا دقيقة . وأن تتخذ مما يصنع الإنسان بيوتاً فى غاية الدقة والحكمة . أن فى مملكة النحل وما فيها من عجائب ورياسة وقيادة وجند وعمل فى جد متواصل إن فى ذلك كله لآية لقوم يتفكرون . من الذى أوحى إلى النحل أن يأكل الثمرات وأن يسلك سبل ربه ذللا وأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

إن هناك جامعة أمريكية قد سخرها الله لتفسير قوله تعالى : « فيه شفاء للناس » تفسيرا عمليا ببيان أن فى العسل شفاء لكثير من الأمراض وقد تعجب إذا عرفت أن العسل مما يخفف السكر ، وصدق رسول الله حينما جاءه رجل يشكو علة فى بطن أخيه فقال : اسقه عسلا فجاء يشكو العلة ثانية فقال النبى : اسقه عسلا . فجاء الثالثة فقال النبى صلى الله عليه وسلم . صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فشربه وبرىء . والآن أجرى الطب عن غير قصد دينى طبعا أبحاثه عن العسل . فالتقى مع كلام القرآن من أربعة عشر قرنا . ومع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

ثم أخذ القرآن بعد هذا يعنف المشركين ويوجه إليهم الحديث قائلا :

أو لم يروا إلى الطير تسبح فى أجواز الفضاء حالة كونها صافات أجنحتها ويقبضن ، من الذى يمسكها فى الفضاء ، ومن الذى أودع فيها القدرة على ذلك ؟ الواقع أنه ما يمسكهن إلا الرحمن . إنه بكل شىء عليم وبصير . وصدق الله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوقهم صَافَّاتٍ ويقبضن ما يُمسِكُهُنَّ إلاَّ الرحمنُ إنه بكل شىء بصير ﴾ من سورة الملك .

المرحلة المدنية : وفيها يقول الله تعالى :

﴿ إنَّ فى خَلْقِ السَّمَوات والأرضِ واختلافِ اللَّيل والنَّهارِ . والفُلْكِ التى تجرى فى البحرِ بما يَنْفَعُ الناسَ . وما أنزل اللهُ من السَّمَاءِ مِن مَّاء فأَحْيَا به الأرضَ بَعْدَ مَوتِهَا وَبَثَّ فيها من كلِّ دابَّةٍ وتصريفِ الرياح والسحاب المسخَّر بينَ السَّمَاءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ من سورة البقرة .

﴿ ألم تر أن الله يُسَبِّحُ له من فى السمواتِ والأرضِ والطيرُ صافَّاتٍ كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحه ... ﴾ ٤١ سورة النور .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ له من فى السموات ومن فى الأرضِ ، والشمسُ والقمرُ . والنجومُ والجبالُ . والشجرُ . والدَّوابُ وكثير من الناس .... ﴾ ١٨ من الحج .

وهذه هى الآيات المدنية التى تلفت أنظارنا إلى طبيعة الحيوان وما فيه من أسرار عميقة دالة على القدرة والحكمة لله سبحانه وتعالى .

ففى سورة البقرة تحدث القرآن عن الكون كله كظاهرة عامة وقال إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وفى سورة النور لفت الأنظار إلى مرحلة أعلى وأدق تلك مرحلة التسبيح والتقديس لله جل جلاله وتخصيصه بالعبادة لا يشاركه فيها شىء أبدا .

وتمتاز سورة النور بما يأتى :

١ — بدلالتها على التسبيح والتقديس والدلالة على خالق الله لهذه الأشياء كما فى سورة الإسراء ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ٤٤ من سورة الإسراء .

٢ — اتفاق جميع الحيوانات فى أصل الخلقة « والله خلق كل دابة من ماء . . . . » وتنوعها لا يخرجها عن أصلها وحقيقتها . .

٣ — دلالتها على وحدانية الله وألوهيته الكاملة ، ، بل تثبت أنها تقوم بعبادة الله على نحو يتلاءم وطبيعتها وإن كنا لا نفقه شيئا من تسبيحها .

فتسبيح الكائنات كلها لله وتقديسها له هو سجود لله وانقياد لحكمه إذ هو صاحب الأمر وله الملك وإليه ترجعون كما فى سورة الحج .

* * *

أرأيت كيف تسلسل الموضوع ، وانتقل القرآن الكريم من حال إلى حال لافتا النظر إلى بعض الأسرار الإلهية فى عالم الحيوان .

أرأيت إلى القرآن الكريم وهو فى مكة لم يتكلم عن بدء خلقه فالله خالق كل دابة من ماء وا كتفى بالكلام عن الإنسان إذ هو مما يدب على الأرض ولكنه لفت نظرنا إلى تسخير الحيوان لنا وتذليله لمصالحنا ، وإنه خلق لمنفعتنا ثم إلى اختلاف الألوان والأشكال مع الاتحاد فى الأصول ، ثم إلى رزق هذا الحيوان مع أنه لا يعقل ولكنه مفطور على البحث عن الرزق والله يهيء له أسبابه .

ثم إلى هذه الحيوانات وأنها أمم وطوائف ، وأنواع ، منها ما قد وصل إلى ما يقرب من أمم الإنسان ؛ انظر إلى هذه الحيوانات واختلافها وتنوعها

إلى ذكر وأنثى وكل نوع له سلالة تختلف عن غيره ولكل نوع خاصية خاصة به : فمنها ما هو للأكل ومنها ما هو للحمل ومنها ما هو للركوب والزينة ومنها ما هو أليف ومنها ما هو مفترس ، ومنها الظاهر ومنها الخافى ، ومنها السابح ، ومنها الزاحف ، ومنها الماشى ، ومنها مالا يعيش إلا فى أقصى درجات البرد وهكذا .

ثم لفت نظرنا إلى ما يخرج منها من لبن أبيض نقى يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . . . . ثم لفت نظرنا إلى عالم الطير السابحات فى الفضاء والقابضات الباسطات وهكذا . . .

هنا جاء دور السورة المدنية وفيها يتنقل بالإنسان من طور إلى طور ومن سلم إلى سلم كما عرفت . .

أرأيت إلى وحدة الموضوع وتناسقه وتسلسله وتجمعه ، واتحاده وترابطه الحمد لله له ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ، صدق الله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » أول هود . . .

مبحث النبـــات وعالمه

النبات فى عالمنا الفسيح لسان من ألسنة التقديس والتسبيح لخالقه جل جلاله وتعالت أسماؤه وتعددت آلاؤه .

تحسبه ميتا جامدا لا يتنفس ، فإذا به كائن حى يحس ويتنفس، وقد تظنه قابعا فى حفرته ساكنا ، فإذا هو بعد البحث والدراسة متحرك له خصائص الكائن الحى ويقوم بكافة عمليات الحياة من غذاء وإفراز وتنفس ونمو وتناسل وتزاوج فهو دليل من الأدلة الكونية على وجود الله تبارك وتعالى وكمال ألوهيته وأنه هو خالقه الذى خلق فسوى وقدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى .

وصدق الله حيث يقول فى سورة الإسراء : ﴿ تُسَبِّحُ له السمواتُ السَّبْعُ والأرض ومَنْ فِيهِنَّ وإن من شَىْء إلاّ يُسَبِّحُ بحمدِه ولَـكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهم إنّهُ كان حَلِيما غَفُوراً ﴾ ٤٤ من الإسراء .

والقرآن الكريم تعرض لبعض خواص النبات ولفت أنظارنا إلى بعض تصاريف القدرة فى عالم النبات التى تستطيع عقولنا أن تتفتح عليه وتهضمه مما لا يمكن أن يصدر إلا عن قدرة واسعة وعلم تام وحكمة بالغة لله سبحانه وتعالى .

ونحن قد التزمنا ما التزمناه من جمع الآيات النازلة فى النبات ، وترتيبها حسب ماوصل إلينا فى شأن ترتيب السور فى النزول المكى منها والمدنى .

وكانت دراستنا وفق المنهج الذى ارتضيناه فى مقدمة الرسالة .

وسنرى أن الآيات فى حصرها وتتبعناها قد بلغت بضعا وثلاثين نجما من نجوم القرآن ومع ترتيب النزول قد سارت ثلاث خطوات محكمات .

الخطوة الأولى : النبات كيف بدأ وتعدد ، ومن الذى بدأ الخلق .

الخطوة الثانية : هذا النبات إنما ينشأ فى بيئة من تراب وماء فمن الذى أوجد الماء وكيف نزل وهل يسير بنظام أم هو أمر طبيعى .

الخطوة الثالثة : دور السور المدنية وفيها ترق بالإنسان إلى نظريات أوسع وآفاق أعلى وأبعد حتى أقر المشركون بل والجميع أن الله سبحانه هو الخالق ولا خالق سواه .

هيا بنا ندرس الآيات القرآنية لنرى ماذا تقول وبماذا تشير . مبتدئين بالسور المكية قال الله تعالى :

﴿ والّذِى أخرجَ المرْعَى فجعلهُ غثاء أحْوَى ﴾ من سورة الأعلى .

﴿ فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ أنّا صبَبْنا الماء صبًّا ثمّ شقَقْنا الأرْضَ شقًّا فأنبتنا فيها حبًّا وعِنباً وقضْباً وزيتُوناً ونخلاً وحدائقَ غُلْباً وفاكهةً وأبًّا مَتاعاً لكم ولأنعامِكم ﴾ ٣٢ سورة عبس .

﴿ والأرْضَ مَدَدْناها وألقيْنا فيها رواسِيَ وأنبتنا فيها منْ كلِّ زوجٍ بَهيجٍ تَبْصِرةً وذكرَى لكلِّ عبدٍ مُنيبٍ ونزّلْنا من السّماء ماء مُباركا فأنبتْنا به جنّاتٍ وحبَّ الحَصيد والنَّخْلَ باسِقاتٍ لها طَلْعٌ نضيدٌ رزقاً للعبادِ وأحيَينا به بَلدةً ميْتاً كذلك الخُروجُ ﴾ ١١ سورة « ق » .

﴿ والسّماء ذاتِ الرّجْعِ والأرضِ ذاتِ الصّدْعِ ﴾ ١٢ سورة الطارق .

﴿ وهو الذى يُرسلُ الرِّياحَ بُشْرًا بين يَدىْ رحمتهِ حتى إذا أقلَّتْ سَحاباً ثقالاسُقْناهُ لبلدٍ ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلِّ الثّمراتِ كذلك نخرجُ الموتى لعلكم تذكرون والبلدُ الطّيبُ يخرُجُ نباتهُ بإذنِ ربِّهِ والذى خَبُثَ لا يخرُجُ إلاّ نَكِداً كذلك نُصرِّفُ الآيات لقومٍ يشكُرُون ﴾ ٥٨ من سورة الأعراف .

﴿ وآية لهمُ الأرضُ الميتــةُ أحْيَيناها وأخرجْنا منها حبًّا فمنه يأكلون وجعلْنا فيها جنّاتٍ من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمرِهِ وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ ٣٥ من سورة يس .

﴿ وهو الّذِى أرسلَ الرِّياحَ بُشْرًا بَين يدىْ رحمتهِ وأنزلْنا منَ السّماء ماء طهُوراً ليُحْيِيَ به بَلدةً ميتاً ونُسقيَه مما خَلقْناه أنعاماً وأناسِيَّ كثيراً ﴾ ٤٩ سورة الفرقان .

﴿ واللهُ الذى أرْسلَ الرِّياحَ فتُثيرُ سَحاباً فسقناهُ إلى بَلَدٍ ميِّتٍ فأحيَينا به الأرضَ بعدَ موتِها كذلك النُّشورُ ﴾ ٩ من سورة فاطر .

﴿ ألم ترَ أنّ اللهَ أنزلَ منَ السّماء ماء فأخرجنا بهِ ثمرات مُختلفاً ألوانُها ومِنَ الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سودٌ ﴾ ٢٧ سورة فاطر .

﴿ الّذِى جعلَ لكم الأرضَ مَهْداً وسلكَ لكم فيها سُبُلا وأنزل من السّماء ماء فأخرجنا بهِ أزواجاً منْ نَباتٍ شَتّىْ كلوا وارْعَوْا أنعامكم إنّ فى ذلك لآياتٍ لأولِى النُّهى ، منها خلقنا كم وفيها نُعيدُكم ، ومنها نُخْرِجُكم تارةً أخرَى ﴾ ٥٤ من سورة طه .

﴿ أفرأيتُم ما تَحْرُثون أأنتُم تزرعُونه أمْ نحنُ الزّارعون لو نشاء لجعلْناهُ

حُطاماً فَظَلْتم تَفَكَّهون ﴾ ٦٥ من سورة الواقعة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الأرضِ كَمْ أنبتنا فيها مِنْ كلِّ زوجٍ كريمٍ . إنَّ في ذلك لآيةً وما كانَ أكثرُهم مؤمنين ﴾ ٧ من سورة الشعراء .

﴿ ألاَّ يسْجُدوا لله الَّذي يُخرِجُ الخَبْءَ في السَّمواتِ والأرضِ ويعلَمُ ما تُخْفُون وما تُعلِنُون ﴾ ٢٥ ﴿ أمَّن خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ لكم من السَّماء ماءً فأنبتنا بهِ حدائقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كان لكم أن تُنْبتُوا شجرَها أإلهٌ مع الله بَلْ هُم قومٌ يَعْدِلون ﴾ ٦ من سورة النمل .

﴿ والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ وأنبتنا فيها من كلِّ شيءٍ مَوْزونٍ ﴾ ١٩ من سورة الحجر .

﴿ إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخرِجُ الحيَّ منَ الميِّتِ ومُخْرِجُ الميِّتِ من الحيِّ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ ٩٥ من سورة الأنعام .

﴿ هو الذي أنزلَ من السَّماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرجنا منه خَضِراً نُخْرِجُ منه حبًّا مُتراكِباً ومنَ النخلِ مَنْ طَلْعِها قِنوانٌ دانيةٌ وجناتٌ من أعنابٍ والزيتون والرُّمان مُشتبهاً وغيرَ مُتشابه انظرُوا إلى ثمرِهِ إذا أثمرَ وينْعِه إنَّ في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾ ٩٩ من سورة الأنعام

﴿ خلقَ السَّمواتِ والأرضِ بغيرِ عَمَدٍ ترَوْنها وألقَى في الأرضِ رواسيَ أن تَميدَ بكم وبثَّ فيها مِن كلِّ دابَّةٍ وأنزلْنا منَ السَّماء ماءً فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ ﴾ ١٠ من سورة لقمان .

﴿ ألَمْ ترَ أنَّ الله أنزل مِن السَّماء ماءً فسلَكَهُ ينابيعَ في الأرضِ ثمَّ يُخرِجُ به زرعاً مختلفاً ألوانهُ ثمَّ يَهيجُ فتراهُ مُصفرًّا ثمَّ يجعلهُ حُطاماً إنَّ في ذلكَ لَذِكرى لأولي الألبابِ ﴾ ٢١ سورة الزمر .

﴿ ومِن آياتِهِ أنّكَ ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّتْ وربَتْ إنّ الذى أحْياها لَمُحْيِي الموْتى إنّهُ عَلَى كلِّ شيء قديرٌ ﴾ ٣٩ سورة فصلت .

﴿ والّذِى نَزّل من السّماء ماء بقَدَرٍ فأنشَرْنا به بَلْدَةً ميْتاً كذلك تُخْرَجون والذى خلقَ الأزْواجَ كلّها وجعلَ لكم مِنَ الفُلْكِ والأنعامِ ما تركبُون ﴾ ١١ ، ١٢ من سورة الزخرف .

﴿ واختلافِ اللّيلِ والنّهار وما أنزلَ اللهُ من السماء من رِزْقٍ فأحْيا به الأرضَ بعدَ موتِها وتَصْريفِ الرياحِ آياتٌ لقومٍ يَعقِلون ﴾ ٥ من سورة الجاثية .

﴿ هو الذى أنزلَ مِن السّماء ماء لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمُون يُنْبِتُ لكم به الزّرعَ والزيتُونَ والنّخِيل والأعناب ومن كلِّ الثّمراتِ إنّ فى ذلك لآيةً لقوم يتفكّرُون ﴾ ١١ من سورة النحل

﴿ الله الذى خلقَ السّمواتِ والأرضَ وأنزل منَ السماء ماء فأخرجَ به من الثّمراتِ رزْقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجْرِيَ فى البحرِ بأمرِه وسخّرَ لكم الأنهارَ ﴾ ٣٢ من سورة إبراهيم .

﴿ وأنزلنا من السّماء ماء بقَدَرٍ فأسكنّاه فى الأرضِ وإنّا عَلَى ذهابٍ بهِ لقادِرُونَ فأنشأنا لكم به جنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ لكم فيها فواكهُ كثيرةٌ ومنها تأكلون ، وشجرة تخْرجُ مِن طورِ سَيْناء تَنبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين ﴾ ٢٠ من سورة المؤمنون .

﴿ أوَلم يَرَوْا أنّا نَسُوقُ الماء إلى الأرضِ الجُرُزِ فنُخْرِجُ بهزرعاً تأكلُ منه أنعامُهُمْ وأنفسُهُمْ أفلا يُبْصرون ﴾ ٢٧ سورة السجدة .

﴿ وأنزلنا من المعصِرَاتِ ماء ثَجَّاجاً لنخرِجَ بهِ حبًّا ونباتاً وجنّاتٍ ألفافاً ﴾ سورة النبأ .

﴿ وأخْرَج منها ماءها ومَرْعاها والجبال أرْساها مَتَاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ ٣٧ من سورة النازعات .

﴿ يُخرجُ الحيَّ منَ الميِّتِ ، ويُخرجُ الميِّت من الحيِّ وَ يُحْيِي الأَرضَ بعد موتِها وكذلك تُخْرَجونَ ﴾ ١٩ من سورة الروم .

﴿ ولَئن سألْتَهمُ مَن نَزَّلَ من السَّماء ماء فأحْيا بهِ الأرضَ مِن بعدِ موتِها ليَقولُنَّ اللهُ .. قلِ الحمدُ لله بلْ أكثرُهم لا يَعقِلون ﴾ ٦٣ من سورة العنكبوت .

وها هى ذى السورة المدنية :

﴿ إن فى خلق السمواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيل والنّهارِ والفُلكِ التى تجرِى فى البحرِ بما يَنفعُ النّاس وما أنزلَ اللهُ منَ السّماء من مّاء فأحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها وبَثَّ فيها من كلِّ دابّةٍ وتَصْريفِ الرِّياحِ والسَّحاب المسخّر بين السّماء والأرضِ لآيات لقوم يعقلون ﴾ ١٦٤ سورة البقرة .

﴿ وهو الذى مدَّ الأرضَ وجعل فيها رَوَاسِيَ وأنهاراً ومن كلِّ الثّمراتِ جعلَ فيها زَوجيْنِ اثنيْنِ يُغشِى اللّيل والنّهارَ إنّ فى ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكّرُون ، وفى الأرضِ قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ وجنّاتٌ منْ أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوَانٍ وغيرُ صِنْوَانٍ يُسْقى بماء واحدٍ ونُفَضِّلُ بعضها عَلَى بعضٍ فى الأكلِ إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقِلون ﴾ ٤ من سورة الرعد .

﴿ والنّجْمُ والشّجرُ يسجُدانِ ﴾ ٦ ﴿ والأرضَ وضعَها للأنامِ فيها فاكهةٌ

والنَّخْلُ ذاتُ الأَكْمَامِ والحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحانُ فبِأَيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبانِ ﴾ ١٣ سورة الرحمن .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزلَ منَ السَّماءِ ماءً فتُصبِحُ الأَرضُ مخضَرَّةً إن الله لطيفٌ خبيرٌ ﴾ ٦٣ سورة الحج .

هيا بنا نعود إلى الآيات نستوضح منها الحقيقة ، ونستلهم من الله الهداية والرشد « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » .

نعم سبح اسم ربك الأعلى وعظمه وقدسه بما تستطيع من مظاهر الإجلال والكمال وبما يستحق من كمال الألوهية والعبادة فهو الذى خلق عالمنا كله فسواه تسوية تامة كاملة لا عوج فيه ولا اضطراب ولا نقص ولا زيادة بل كل شيء فيه فى وضعه الصحيح السليم يؤدى الغرض الذى من أجله خلق ، فهو الذى قدر فهدى .

والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى . . وهذا مثال على الخلق السوى والتقدير الإلهى فكيف ذلك ؟ وهنا نقف وقفه قصيرة مع العلم الحديث لننظر ماذا قال هنا .

يقول علماء الحفريات وعلماء الجيولجيا[1] . »

إن أول الخلق كانت كائنات متناهية فى الدقة تتغذى بما تمتصه من الهواء وماء البحر والأملاح وكانت أشبه شيء بوحدة الخلية كبعض أنواع البكتريا ثم تفرعت إلى نوعين أولهما كان مستسلما وديعا والثانى كان متحركا نشيطا مالبث النوع الثانى أن آثر أن يعتدى على النوع الأول ليمتص ماادخره من مادة غذائية من السكر والنشاء ! فكان هذا أصل النبات ممثلا فى النوع الأول وأصل الحيوان ممثلا فى النوع الثانى .

(١) من مذكرات الشيخ السماحى الأستاذ بكلية أصول الدين .

وفى هذا الطور كانت هذه الكائنات الصائدة والمصيدة وحيدة الخلقة لاترى إلا بالمجهر وكانت تملأ البحار والخلجان : من هذه الأصول المفردة الخلايا تكونت النباتات المتعددة الخلايا بعد أن ابتدأت التقلصات الأرضية تظهر شيئاً فشيئا على سطح البسيطة . وكانت هذه النباتات التى تطورت حتى شملت أصول جميع النباتات بيئة صالحة لتكاثر الحيوانات الأولى ونجاحها فى تطور معجز عظيم لايدرى كنهه :

إذن العلم يقول : إن أول النبات كانت الأعشاب والمراعى ..

وهذا القول دليله الحدس والتخمين . وعماده الظن لا اليقين . ولكن تعال بنا إلى القرآن الكريم ، وإلى أول آية نزلت تتحدث عن النبات وما فيه « والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » .

يا سبحان الله هذه أول آية نزلت فى شأن النبات وهى تدلنا من طرف خفى على أن أول منشأ النبات كله أعشاب وحشائش « أخرج المرعى » .

وهناك عجيبة أخرى :

هذا النبات والمرعى قد اكتسب لون الخضرة من الطاقة الشمسية فإذا مابلغ غايته وقضى أجله عاد إلى جفافه وذهبت الخضرة منه وعاد لونه أسود وصار غثاء أحوى تحمله مياه البحار والوديان وتكدسه على الشواطىء والخلجان ، وعادت خضرته إلى المادة الكربونية ولهذا كان لونه أسود .

فإذا ما كثر هذا وتراكم بعضه على بعض من الغابات الكثيفة والأشجار الضخمة بمساعدة الجو الملىء بالرطوبة والأمطار حتى صار كالجبال وما لبث أن طمر فى باطن الأرض وتحول بالضغط مع مرور الزمن إلى فحم استخدمه العالم وقودا ردحا من الزمن ولهذا سمى هذا العصر بالعصر الكربونى [1] .

---

(١) راجع كتاب من آيات الله فى الكون للمهندس عثمان حامى ص ٤١ .

أرأيت إلى أبحاث العلم كيف انتقلت من عصر المراعى والأعشاب إلى عصر الفحم الكربونى . وصدق الله جل جلاله الذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى. سنقرئك فلا تنسى .

ماذا نقول ؟ ! !

هل يتصور أن يكون هذا من الصدفة ؟ ! أم هو فعل الظروف والبيئة ؟ أم هل يتصور أن يكون هذا فعل الطبيعة ؟ إن هذا لا يتصوره عاقل أبداً .

ثم تعال معى : من الذى قال . أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى .

أيعقل أن يكون هذا كلام رجل أمى عاش فى القرن السادس الميلادى أيام أن كانت الدنيا كلها عماء فى عماء ، وهل كان فى البيئة المكية من يعلمه أم هل كان فى البيئة المكية كلها أو فى الجزيرة العربية كلها من يدرك هذا ؟ ! ! قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

إنما مصدر هذا الكلام هو الله جل جلاله المستحق للعبادة وحده لاشريك له المنفرد بالقوة والجبروت سبحانه وتعالى عما يشركون .

ثم أخذ القرآن يخطو خطوة ثانية ويأخذ بيد الإنسان إلى سلم أعلى قليلا لافتا نظره إلى قدرة الله التى لاتحد ، وإلى نعمة التى لاتحصى .

« فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامهِ ، أنّا صببنا الماء صبًّا . ثمّ شققنا الأرضَ شقًّا فأنبتنا فيها حبًّا : وعنبا وقضبًا ... »

أرأيت إلى قدرة الله وعظمته ، وفضله ونعمه فحقا هو الله لا إله إلا هو ... الكائن الحى لايتغذى إلا من أصله الذى تكون منه ، ولذا أمر الإنسان أن ينظر إلى طعامه فسيجد أنه من الطين والماء . إن الله صب الماء من السماء صبا ثم شق الأرض بجذر النبات وشقه شقا فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضباً . ياسبحان الله حقا إنه كتاب أحكمت آياته .

الله جل جلاله صب الماء من السماء صبا بالمطر ، ولا شريك له فى ذلك إلى الأبد وما حاول به الضالون فرذاذ لايسمن ولا يغنى من جوع هذه هى المرحلة الاولى .

وأما المرحلة الثانية وهى وضع البذور فى الأرض لم يتحدث عنها إذ هى من صنع البشر وغيره من رياح أو مياه أو حشرات .

وأما المرحلة الثالثة فشق الأرض بالجذر الضعيف إلى أسفل لتتكون الجذور الممتدة وبالنبتة الصفراء الملتوية الهشة تشق الأرض الصلبة الجافة وقد تكون صخرة عاتية إلى أعلا ليكون منها الساق والأوراق .

فلينظر الإنسان إلى طعامهِ الذى به قوامه ، كيف تفضل الله به عليه وهو فى أشد الحاجة إليه فلينظر الإنسان إلى نعم الله كيف حول له بعض عناصر الأرض طعاما هنيا فى شكل جميل ولون جذاب وطعم مستساغ حلو المذاق مع أن بعض الزروع والفواكه لاتتغذى إلا بالسماد العضوى وأنت تعرفه ماهو ؟!

ياسبحان الله إذا عرفنا أن الأصل واحد كما قلنا فمن الذى جعله أزواجا وأشكالا من حيث هو مأكول كالقمح والذرة والفول ، أو هو فاكهة جميلة كالعنب والنخيل والزيتون وغير هذا كثير مما يأكل قضبا كالقثاء والتفاح أو قطعا كغيره وناهيك بالحدائق الفيحاء الملتفة الأغصان وهذه السهول الخضراء كل ذلك متاعا لكم ولأنعامكم !! بالله خبرونى لو لم يكن هناك قدرة وعلم وإرادة وحكمة هل كان ذلك يكون ؟

فيصير النبات أزواجا مختلفة الأشكال والألوان والأنواع فبعضها يقول وبعضها فاكهة وبعضها يؤكل قضبا والآخر يؤكل جافا يابسا الخ مافيها مما لايحصيه إلا الله .

ومن نعم الله على الإنسان أن الأرض وهى قطعة من الشمس وكانت

قطعة نار ملتهبة ثم بردت قشرتها وتقلصت بعض أجزائها فكان منها البحار والوديان والسهول والجبال كل ذلك حتى يستطيع الإنسان والحيوان أن يكون على الأرض ولذلك يقول الله تعالى مامعناه والأرض مددناها وهيأناها للسكنى والمعيشة وألقينا فيها رواسي شامخات وأنبتنا فيها من كل زوج وسلف بهيج وأنزلنا من السماء ماء مباركا فيه فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد متراكب بعضه فوق بعض كل ذلك كان رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك البعث يوم القيامة والسماء ذات الرجع ـ المطر الذى يرجع إلى الأرض وقد خرج منها وسبحان من هذا كلامه . والأرض ذات الصدع أى الشق فقد شقت الأرض بالنبات مع ضعفه وصلابتها ، ولكنها القدرة وهذا هو الكلام الفصل ، وما هو بالهزل .

* * *

وهنا يتقدم القرآن الكريم خطوة ثانية فيأخذ بأيديهم لافتا نظرهم إلى الماء الذى يصبه من السما صبا ، فينشأ عنه أن تنشق الأرض بالنبات شقا .

هذا الماء .. من أين جاء ؟؟ ومن الذى أنزله ؟ !

أعد معى آية ٥٧ من الأعراف التى مرت بك قريبا[١] فهذا معناها :

وهو الله جل جلاله الذى يرسل الرياح مبشرات بالخير ، ونزول الأمطار حاملات للسحاب الثقال التى يصيب بها من يشاء من عباده ، ويصرفها عمن يشاء من عباده ، فإذا أنزل الماء منها على بلد ميت أحياها بأمره جل جلاله ، وأخرج الله به من كل الثمرات رزقا لكم ، ومتاعا إلى حين وكذلك يكون البعث لعلكم تذكرون .

---

(١) هى قوله تعالى « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت ، سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ... » ٥٧ من الأعراف .

أرأيت إلى هذا التصوير البديع الرائع ، وإلى وصف الرياح بأنها مبشرات يعرف هذا سكان الصحراء ويعرفون مقدار هذه البشرى ، ثم بعد نزول المطر تحيا الأرض بالنبات وتلبس ثوبا من سندس أخضر مزدان بالزهور ، ثم بعد هذا يجف ويذبل مثل هذا الصنع المتقن المحكم من إحياء الأرض بعد موتها يكون الخروج إلى البعث والحساب ﴿ إنّ الذى أحْيَاها لمحيي الموتى وهُو على كلِّ شيء قديرٌ ﴾ .

واستمع معى لقوله تعالى فى سورة النور آية ٤٣ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أنّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثم يُؤلِّفُ بينه ثم يجعلهُ رُكاماً فترى الوَدْقَ يَخرجُ مِنْ خلالهِ ، ويُنزِّلُ من السماء من جبالٍ فيها مِن برد فيُصِيبُ به من يشاء . ﴾

إن نظرية المطر كما صورها القرآن الكريم فى سورة النور والأعراف وغيرها لم تكن معروفة لدى العالم أجمع فى هذا العصر يستوى فى ذلك العرب وغيرهم بل كان الناس يصورونها بصور مضحكة ، كل أمة ترسم صورة حسبما يمليه عليها خيالها .

استمع معى لشاعر عربى وهو يقول واصفا السحاب :

شربْنَ بماء البحر ثم تَرفَّعَتْ متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهن نئيج[1]

فمن أين تعلم النبى العربى ذلك ؟ أليس عجيباً أن هذه النظرية هى التى عرفها العلم حديثا وياسبحان الله حين يقول « يكادسنا برقه يذهب بالأبصار »[2]

---

(١) كانت العرب تزعم أن السحاب له خراطيم ضخمة تأتى إلى البحر فى مكان خاص فتشرب منه بخراطيم لها صوت عال (وهذا هو الرعد) ثم ترتفع فى الجو وتسير حيث ينزل الماء .

(٢) لقد ثبت أن البرق ضوءا شديدا جدا مما جعل الطيارين يلبسون نظارات تقيهم وهج الضوء إذا طاروا وسط السحاب .

اللهم لايكون هذا إلا وحيا من السماء من عند الإله الواحد القهار . وإذا كان الأمر كذلك . أليس إحياء الأرض بعد موتها بالنبات والحيوان يصلح أن يكون آية دالة على الألوهية والوحدانية . وآية لهمُ الأرضُ الميتةُ باَلجدْبِ والجفاف أحياها ربك بالنبات والحيوان كما قال تعالى فى سورة يس الآيات من ٣٣ - ٣٦[1] .

ألم تخرج الأرض من طبيعة إلى طبيعة ، ومن خاصية عدم الإنبات إلى خاصية أخرى بحياة النبات والحيوان .

من الذى فعل هذا ؟ ومن يقدر على هذا ؟ ! إنه الله لا إله إلا هو .

لقد تحير الناس وتحيروا ، وتخبطوا فى تعليل ذلك وتخبطوا !!

فهذه ظواهر مكشوفة وملامح مرموقة . وحقائق مادية .

فقال البعض . إنها صدفة عرضت ثم كان التكاثر والتوالد مع بقاء الأصلح

وقال آخرون إنها ملاءمة الظروف . ومساعدة الأجواء .

وقال آخرون لا .. إنها الطبيعة الجارفة . والقوة العارمة .

وجاء العلم بخيله ورجله . ومعامله ومخابره ، فاعترف بالعجز عن التعليل وقصر دون الوصول إلى الدليل ... قائلا إننا لاندرك العلة ، ولكنها قوى عاتية وسلطان على الكون لاندرى مصدره .

---

(١) ولقد ختم الله هذه الآيات بقوله تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » من حيوانات وغيرهم فسنة الله جارية فى الكل على سنن الزوجية باطراد فهل هذا خلق طبيعى أم إيجاد على نمط يحتاج إلى اتصال بين الذكر والأنثى فهذه نظرية توقف العلة على المعلول . وإذن لابد من الوقوف عند بدء السلسلة والقول بالقدرة الخالقة لله سبحانه وتعالى .

والعجيب أن القرآن الكريم أسند ذلك كله إلى الله من أربعة عشر قرنا مضت إحقاقاللحق وتمشياً مع الواقع ، وتكريماً للإنسان حتى لا يضل فى الأوهام أو يعبد طبيعة صماء بكماء .

أما المؤمنون بالله فقالوا لعلماء الطبيعة والنبات إن هذه القوة الخارقة والإرادة القوية التى حيرتكم إنها قدرة الله القوى القاهر إنه هو الله لا إله إلا هو العزيز الحكيم أليس إسناد تصريف هذا الكون لله أكرم وأفضل من إسناده إلى صدفة حائرة أو ظروف مبهمة أو طبيعة جامدة .

والقرآن حينما قال وآيه لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا . . » [سورة يس] إنما يدعم رأيه بحجج قوية . . . ذلك أنا لو سلمنا أن الخلية الأولى وجدت صدفة أو تحت تأثير ظروف وطوارىء ملائمة . أو بقوة مبهمة ليست لها إرادة وحكمة .

ولكن كيف نعلل تركيب الكائن الحى فى النبات من خلايا ، وكيف تنتج هذه حبوباوثمارا ولها أشكال وألوان ، ثم لها نظام رتيب كامل ، وأوقات محدودة تماماً ! ! أليس ذلك دليلا على قدرة الله وألوهيته ومن العجيب أن هذا الحب وذلك الثمر فيه خصائص نوعه كلها على صغر حجمه ولكل نوع حب وثمرة ، وصدق الله :

﴿ والأرضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فيها رَواسى وأنبتنا فيها من كلِّ شىء موزُونٍ ﴾ ١٩ من سورة الحجر .

نعم كل شىء موزون بدقة فورقة الشعير غير ورقة البر ، وثمره وشكله ثم من الذى علم الكون أن هذا الحب غذاء الإنسان وهذا غذاء الحيوان ، وهذا يدخر وذلك لا يدخر .

ثم ما هذا الذى نراه فى دنيا النبات هذا ينتج حبوبا لتأكل الناس والأنعام وهذا نبات ينتفع بورقه وزهره للزينة أو للعلاج وهذا نبات طفيلى لا يستنبت وقد يكون فيه خير ونحن لا نعرفه ، وهذا نبات للفاكهة والتلذذ كل ذلك لنشعر بنعم الله علينا ومن العجيب أن لكل بذرة فى النبات مدة تكون فيها حية تستنبت وبعدها تموت ، هذه المدة تختلف فبذرة المانجو تعيش مدة قصيرة وبذرة نبات الهالوك تمكث حية بضع سنين . ومن العجيب أن بعض النبات يستنبت بلا بذور ولا تلقيح تعال معى وتعجب إذا كان الأصل خلية واحدة نشأت على أى سبب فمن الذى خلق هذه الأزواج والألوان المختلفة المتباينة تباينا كليا ! !

خذ مثلا واحدا النخل . هذا النبات الضخم الطويل . صاحب الجذع الجاف ، ومع هذا ينقل الغذاء من الأرض إلى أطوال بعيدة فيها الجمار الأبيض والرخو اللين عجبا لها يتكون منها الجريد والليف والقنو . والعرجون ، ثم بعد ذلك البلح المختلف فى الشكل واللون انظر لها وهى دائمة الخضرة طوال العام وقد تعيش عشرات السنين ، ثم إلى نبتة القمح تعيش مدة ثم ينتهى أجلها ، وانظر إلى تلقيح النباتات واختلافها وكيف ينقل اللقاح ؟ ! تارة باليد وأخرى بالرياح . وثالثة بالطيور أو الذباب إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

إن القول بعد ذلك بالصدفة أو بالطبيعة المبهمة أو الظروف الملائمة ، جهل بقدرة الله واحتقار للإنسان ، وامتهان لكرامته ، والله قد كرمه وشرفه وجعله خليفة له .

والقرآن الكريم لفت الأنظار مرارا إلى نزول المطر ، وما يترتب عليه ، وأن الذى يعيش فى الصحراء يدرك أثر هذا الكلام ، ويدرك عمق الأثر

الذى يحدثه الحديث عن المطر وما ينشأ عنه ، وأنا أريد منك يا ساكن الوديان أن تعرف أن ساكن الصحراء تتوقف حياته هو على الماء فما بال الأرض والنبات والحيوان .

ولذلك كرر القرآن الحديث عن ذلك فى سورة الفرقان . . . . وفى سورة فاطر وفى سورة طه .

ثم يعود فيكرر لهم تنوع الأنواع والزوجية فى النبات وجعل ذلك آية لأولى النهى ثم بعد ذلك يكون الانتقال إلى طريق الإلزام .

أفرأيتم ما تحرثون من الأرض للانبات أأنتم تزرعون هذا النبات حيث شققتم الأرض ووضعتم البذر أم هناك قوة خفية هى التى تزرع وتنبت إن كنت أنت الزراع الذى شق الأرض ووضع البذر فأنا أطالبك بضمان لكل ما تزرع أن يخرج زرعاً أخضر يانعا إنه ليس فى الوجود من يضمن ذلك بل إذا أفسد الزرع صفق بيديه وأخذ ينتحل الأسباب والعلل .

لا . . . . إنما الله هو الزارع وهو المحيي وصدق الله . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون .

وهذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب فى الزراعة وغيرها ، فإن الله ربط الأسباب بالمسببات والأخذ بالأسباب لا يتنافى مع الإيمان الكامل بالله هو الخالق البارئ والشواهد على ذلك فى ميدان النبات كثيرة .

وهذه الأنواع الكثيرة فى عالم النبات مما يؤكد أن هذا خلق الله بلاشك ولا يجيز إنسان عاقل أن يفهم أن ذلك من باب الصدفة أو بمحض الطبيعة أل بملاءمة الظروف إذ هذه الأزواج كلها تحتاج إلى من يوجد الأصل الأول الذى ينشأ عنه الذكر الأول والأنثى الأولى .

وصدق الله ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض .

فالسموات والمخبوء فيها من ماء لا يعلم أحد متى ينزل ؟ ومن رزق لا يعلم أحد لمن يكون ومن كواكب وأفلاك كانت مستورة ثم ظهرت حقائق شاهدة على قدرة الله وأما الأرض والمخبوء فيها من نبات يظهر ، ومن بذر ينبت ، ومن معادن وغازات تتفجر وتتفجر فحقائق ناطقة بأن ذلك من آيات الله الدالة على وجود ألوهيته الكاملة سبحانه وتعالى :

ثم ينبههم إلى حقيقة كبرى فى النبات ، وأنه لا يخرج عفوا بلا تقدير . أو ينبت هملا بلا حساب ، بل كل شىء بقضاء وتقدير كامل ، وكل نبات بميزان دقيق ثابت . . . ﴿ ومن الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . . . ﴾ [من سورة طه] .

انظر معى إلى أنواع من فصيلة واحدة ثم انظر إلى شكل كل نوع ولونه وحجمه وليونته أو صلابته وطعمه هل هو حلو المذاق أوفيه حموضة أو مذاذة ألم تر إلى الليمون ، والبرتقال واليوسفى والليمون الحلو وغير ذلك كثير .

أليس هذا الاختلاف بتقدير محكم وثابت وصدق الله ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾

أليس ذلك دليلا قاطعا على أن الله هو الذى أنبت ، وأنه قادر على كل شىء وأنه مريد عالم وأنه الواحد لا إله إلا هو .

ألم تعلم بأن الله فالق الحب والنوى فيخرج من هذه الحبة الجافة اليابسة نبتة صفراء لينة ثم تكون رطبة خضراء يانعة فهو يخرج الحى من الميت ، ولا شك أن النبات فيه حياة ونمو وحركة والنوى ليست فيها حياة بهذا المعنى ، والله هو الذى يخرج الميت من ، الحى فهو الذى يخرج الثمرة والحب والنوى من النباتات الحية .

أما حياة النبات فمظاهرها تنفس النبات حيث يخرج أكسيد الكربون ليلا والأكسوجين نهاراً ونموه وإحساس بعضه وأما الميت منه والحبة والثمرة والنوى ، وهذا يظهر كذلك فى الحيوان كالعسل من النحل ، والحرير من دودة القز .

والحيوان الحى حياة كاملة من الحيوان المنوى الحى حياة ناقصة .

ذلكم الله ربكم خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل .

ثم أخذ يذكرنا بنزول المطر من السماء (مرة أخرى) الذى أخرج الله به نبات كل شيء يا سبحان الله ! ! ماء واحد ، وأرض واحدة ، ثم يخرج منهما أنواعا من نبات شتى يخرج من النبات حبا متراكبا مصفوفا بنظام ودقة ـ انظر إلى ثمار الذرة وسنابل القمح وبعض الفواكه ، وإلى النخل وطلعها كيف يخرج منها قنوان دانية محمله بالثمر والبلح المختلف الأشكال والألوان والحجوم والطعوم ، ومن الماء أيضا تخرج الجنات من الأعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه فى الطعم والذوق وصدق الله : ﴿ أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ٩٩ من سورة الأنعام .

أرأيت إلى الأنواع المتعددة والأشكال المختلفة ، وماقدر لكل نوع ؟ !

أيعقل أن يكون هذا صدفة أو من فعل الطبيعة أو لظروف وبيئة ؟ ! !

إنها القدرة الكاملة لله سبحانه وتعالى العليم الخبير .

ولقد تكرر ذلك الحديث من الماء ونزوله ، وما يسلكه فى الأرض ينابيع تنبت به الحدائق والزروع فى الصحراء القاحلة ثم هذا الاختلاف فى النوع والشكل يكرر القرآن ذلك فى عديد من السور حتى يقضى على فكرة الصدفة أو الطبيعة أو البيئة .

* * *

ومن آياته الدالة على القدرة الإلهية والعلم الكامل والحكمة الحكيمة أنك ترى الأرض ساكنة لا حركة فيها ولا حياة فإذا أنزل عليها الماء من السماء أو النهر اهتزت وانتفخت وهنا نقف عند قوله تعالى اهتزت وانتفخت فقد عرفنا العلم ذلك حديثا أليس هذا دليلا على أن هذا الكتاب من عند الله جل جلاله نعم إن الذى أحياها لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير .

ثم أكد القرآن ذلك فى سورة الجاثية . . وفى سورة النحل . . وفى سورة إبراهيم . . وفى سورة المؤمنون . . وفى سورة السجدة .

وفى قوله تعالى فى سورة النبأ : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتاً وجنات ألفافاً » وفى قوله تعالى فى سورة النازعات « والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم فإذا جاءت الطامة الكبرى »

وفى قوله فى سورة الشمس : « وإذا البحار سجرت . . » .

وهذه خلاصة مركزة ودقيقة للأرض ومافيها ونهايتها عند الطامة الكبرى فإن الماء يتكون من الأوكسجين والأيدروجين بنسبة خاصة لا تكون إلا من عند العليم الخبير حتى إذا أراد نهاية العالم فصلهما عن بعض عندئذ تكون البحار مليئة بالنار الملتهبة فتبارك الله أحسن الخالقين . . . .

ثم انظر إلى الأرض حيث أخرج منها ماءها ثم بعد ذلك المرعى ، ثم كانت التقلصات فى القشرة الأرضية فكانت الجبال أرساها وجعلها رواسى ، كل هذا جعله الله متاعاً لكم يا بنى آدم ولأنعامكم ، وأين كنا نحن وأنعامنا ، ولكن هذه الحياة فى كتاب مسطور سيقرأ فى حينه بعد هذا كله ، ولئن سألتهم من الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ، فإنه لا جواب

إلا هذا إذ هم كانوا — يعتقدون أن الله هو الخالق البارىء ولكن عبدوا الآلهة للشفاعة فما كانوا — يخصونه بالألوهية ولا بالعبادة ولا بالتشريع .

ثم جاء الدور للسور المدنية .

فترى أن القرآن أخذ بأيديهم إلى سلم أعلى فى الدلالة على الألوهية الكاملة سبحانه وتعالى حيث لفت أنظارهم إلى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فوق سطح الماء . وإلى الماء الذى ينزل من السماء فيحيى به الأرض بعد موتها ومابث فيها من كل دابة وتصريف الرياح وتحويلها وإلى السحاب المسخر المرفوع بين السماء والأرض .

أليس فى هذه المظاهر الكونية آيات ودلائل ولكن لقوم يعقلون (سورة البقرة) وهو الذى مد الأرض وبسطها وشق فيها أنهارها ورفع فيها جبالها مع أنها كانت قطعة واحدة منفصلة عن الشمس فمن الذى رفع جزءاً حتى تكون جبل وخفض جزءاً فكان نهراً وجعل بين هذا وذاك سهولا وصحارى

وخلق بسبب الماء كل زرع ونبت وجعل من كل الثمرات زوجين اثنين وجعل الليل ، يغشى النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

ومن أعجب العجب أن فى الأرض قطعاً متجاورات مختلفات متباينات وفيها جنات من أعناب وزروع وفاكهة ونخيل صنوان وغير صنوان فرعان من أصل واحد فرعان لكل منهما أصل .

هذا النبات المتعدد الأنواع يسقى بماء واحد ونفضل بعضه على بعض فى فى الأكل الحق أن هذه آيات قطعاً وإلا فكيف نفهم فى نبات له جذور يتغذى من ماء واحد وفى أرض واحدة ثم يكون هذا الاختلاف .

لقد علل العلم بأن كل جذر له قدره وقابلية لنوع خاص من الغذاء

كما علل اختلاف ألوان الزهور بين الأسود القاتم والأبيض الناصع والأصفر الفاقع والأحمر القانى بأن كل زهرة أو ورقة تمتص غير لونها من أشعة الشمس فالأصفر مثلا يمتص كل الألوان ماعدا الأصفر وهكذا ثم لا تنسى عامل الوراثة

أقول إن تعليل العلم سليم ولكن بقى من الذى أوجد هذه القدرة فى الجذر أو الزهرة أهذا بالطبيعة أم بالصدفة أم بالبيئة الحق أنها قدرة الله جلت قدرته وتعالت حكمته .

* * *

إن الأدلة على وحدانية الله وكمال ألوهيته وقدرته وسمو حكمته وإرادته فى النبات وعالمه قد سلك القرآن فيها مسلك التدرج والانتقال من سلم إلى سلم مع الارتباط التام ووحدة الموضوع فى الآيات مرت بخطوات :

أولا — كانت الخطوة الأولى مركزة على مظهر النبات وكيف ينبت ؟ مع الحديث عن اختلافه وتعدده وإنزال الماء ولكن بإيجاز .

وفى هذه الخطوة لفت نظرنا إلى شىء يقرره العلم : هو تقدم النبات والمراعى فى الخلق على غيره مع الإشارة إلى نهاية النبات وما يتخلف عنه .

وقد كان امتنانه على الإنسان بذكر طعامه ، وأنه من الأرض ، ثم كان منه الحب والثمر والعنب والتفكه بالفواكه . ، والتمتع بالحدائق والحشائش والمراعى كل ذلك كان متاعاً لنا ولأنعامنا ، وأين كنا نحن والحالة هذه .

فقد مد الأرض وبسطها ، وألقى فيها الرواسى الشامخات ؛ وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزل من السماء ماء مباركا فأنبت به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات ، والفواكه والأعناب

كل ذلك رزقا للعباد وهكذا كانت حياة الأرض بالنبات وكذلك الخروج يوم القيامة للبعث والحساب .

إن أول آية نزلت فى النبات « والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى »

وقد عرفت منها كيف بدئت الخليقة ، وكيف بدىء عصر المراعى ؛ ثم كان العصر الحجرى ثم لفت نظرنا إلى النبات وأنه ما يتغذى . من الأرض لأنها أصله ؛ ثم صار غذاء لنا مع اختلاف الأنواع والأشكال والطعوم والألوان مع أن الجميع كله يدور فى فلك واحد ﴿ صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا . . . ﴾

فمن الذى أوجد فى البذره قوة الإنبات ، ومن الذى أقدرها على شق الأرض بالجذور والساق ؟ ومن الذى جعل منها الحب والثمر ؟

ومن الذى أوجد العنب والنخل والبقول والفاكهة والحدائق والأشجار إذا كان المعمل واحداً ؟ ! !

هل يعقل أن يكون ذلك كله من باب الصدفة أو من الظروف الملائمة أو من صنع الطبيعة العمياء . بالله خبرونى لو لم تكن هناك قدرة تامة وعلم وإرادة وحكمة وتدبير هل يتصور أن تكون هناك أزواج مختلفات شكلا ولونا وطعما وذوقاً .

ذلكم الله ربكم خالق كل شىء فأعبدوه وهو على كل شىء وكيل .

ثم كانت الخطوة الثانية وفيها تدرج القرآن بالإنسان فلفت نظره إلى منشأ النبات وإلى عناصر تكوينه من ماء وتراب ، ثم هذا الماء العذب الفرات كيف ينزل ومن أين يجىء ؟ وهنا يصحح القرآن للناس معلوماتهم عن المطر ويقرر لهم حقائق لم تعرف إلا بعد قرون ثم يتكلم بإيضاح عن النبات وتعدد

أشكاله وألوانه ، وكيف تحيا به الأرض الميتة مع أن الأصل فى الكل ماء وتراب ! ! .

ثم هذا النبات قد أوجده الله للنفع المادى لكم ولأنعامكم ، ولتنتفعوا به فى استجلاء مظاهر القدرة والعظمة لعلكم تشكرون ، وتؤمنون بالله إيماناً عن عقيدة راسخة ولقد أطال القرآن فى هذا وأعاد حتى يتحقق الهدف الأعلى فى تقرير وحدانية الله وألوهيته كما سبق أن قلناه .

ثالثاً كانت المرحلة المدنية وتظهر جلية فى آية البقرة حيث ربط الله الكون كله برباط . القدرة والحكمة الإلهية وقال إن فى هذا كله لآيات لقوم يعقلون .

ألست معى فى أن هذه الآيات البينات التى نزلت فى موضوع النبات وتكرر نزولها منجمة فى السور المكية من القرآن والمدنيات تكون موضوعا واحداً سار على ترتيب محكم دقيق وانتقل بالإنسان من سلم إلى سلم ومن نظرة إلى نظرة صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وإن هذه الوحدة الموضوعية لهذا الموضوع ليس بين آياتها تخالف ولا تنافر ولا تباين وإنما هى آيات يكمل بعضها بعضاً ويقوى بعضها بعضاً وصدق الله ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ ١٣٨ سورة البقرة .

الكون وما فيه ودلالته على الألوهية

يقول الدكتور جمال الدين الرمادى[1] :

« إن كل الحقائق العلمية التى يعتنقها العلماء فى العصر الحديث فى مشارق الأرض ومغاربها تثبت بالحقائق الدامغة والدلائل الناصعة قدرة الله عز وجل . وعظمته وجبروته ، فلم يعد العلم اليوم يناقض الدين .

لقد جاء العلم ليثبت القلوب الواجفة، ويهدئ القلوب المضطربة ويقر العيون الزائغة ويجعل كلمة الله هى العليا ، ويزيد المؤمنين إيماناً فوق إيمانهم .

ولقد أثبت الله أنه هو القادر المتصرف على هذا الكون كله ، وأنه جعل له نظاماً رتيبا لا يمكن أن يختل فلا الليل سابق النهار ، ولا النهار يسبق الليل ، بل كل فى فلك يسبحون ، ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ..... ﴾ .

وإن هذا الكون الفسيح ، وما فيه من آيات بينات دليل واضح على أن لهذا الكون إلهاً قادراً عليما ... وهاك بعض مظاهره .

لقد قدر العلماء المسافة بين الأرض والقمر بأنه لو قام قطار سرعته فى الساعة ٤٠ ميلا لقطع المسافة التى بينهما فى ثمانية أشهر على فرض أنه لن يتوقف أبداً فتكون المسافة ٢٤٠ ألف ميل ، وأما المسافة التى بيننا وبين الشمس فقدروها ٩٣ مليون ميل عن الأرض أما حرارة الشمس فحدث عنها ولا حرج فمع هذه المسافة الواسعة نشعر بحرارتها الشديدة إذا ما تعامدت علينا أو أوشكت فى الصيف .

---

(١) ملحق الجمهورية ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٨٦ فى مقال له (قدرة الله والعلم)

وإذا كان هذا حال الشمس فما بال حرارة جهنم التى وقودها الناس والحجارة وأما أبعاد النجوم فتفوق حدود الوصف والخيال[١] .

وبطبيعة الحال لن نصل إلى أى نجم من هذه النجوم مهما كان . . . لأننا لا نخرج عن حدود المجموعة الشمسية التى هى عبارة عن الشمس والكواكب السيارة حولها التى منها الأرض .

وإذا كانت المسافة بين الأرض وبين الشمس ٩٣ مليون ميل فإن النجوم القريبة منا تبعد عدة سنوات ضوئية مع أن سرعة الضوء ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية الواحدة ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا... ﴾ أى لا سبيل إلى الوصول إليها .

الكون وما فيه آية من آيات الله الناطقة ، وبرهان من البراهين الساطعة التى تنادى بأن هذا الكون له مدبر يدبر أمره ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهو على كل شىء قدير ولهذا ينادى الله الناس جميعاً: ﴿ يأيُّها الناسُ اعبدُوا ربَّكم الّذِى خلَقكم والذينَ مِن قَبلِكم لعلكم تتّقون الذِى جعَلَ لكم الأرضَ فِراشاً ، والسّماء بِناء وأنزلَ من السّماء ماء فأخرجَ بهِ مِنَ الثّمراتِ رِزقاً لكم فلا تَجْعلوا لِلّهِ أنْدَاداً وأنتم تعلمون ﴾ ٢٢ من سورة البقرة .

وقد لفت الله أنظارنا إلى الكون وما فيه من عجائب لنستدل بها على الخالق سبحانه وتعالى عما يشركون .

لفت أنظارنا بكل الأساليب :

﴿ أفلا ينظُرُون إلى الإبِلِ كيف خُلِقت .. وإلى السّماء كيف رُفِعَتْ .. ﴾ ١٨ من الغاشية .

---

(١) منبر الإسلام للدكتور جمال الفندى فى باب العلم .

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج ﴾ ٧ من سورة « ق » .

﴿ قل : انظروا ماذا في السموات والأرض ... ﴾ .

﴿ الذي خلقَ سبع سموات طباقاً ما ترى في خلقِ الرحمنِ من تفاوتٍ فارجعِ البصر هل ترى من فطورٍ ثم ارجعِ البصرَ كرّتين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسيرٌ ﴾ ٣ من الملك .

ولقد أقسم الله ببعض ما في الكون ليلفت نظرنا إليه وإلى من خلقه ونظمه لعلنا نثوب إلى رشدنا فنؤمن بالله إيمانا سليما كاملا .

فهيا بنا إلى آيات القرآن في هذا :

قال الله تعالى : ﴿ كلا والقمرِ والليلِ إذْ أدبر والصبح إذا أسفرَ إنها لإحدى الكبرِ . نذيراً للبشر ﴾ ٢٦ من المدثر .

﴿ فلا أقسمُ بالخنّسِ ، الجوارِ الكنّسِ ، والليلِ إذا عسعسَ ، والصبحِ إذا تنفسَ ، إنه لقولُ رسولٍ كريم ﴾ ١٩ من التكوير .

﴿ والليلِ إذا يغشى والنهارِ إذا تجلّى وما خلقَ الذكر والأنثى إنّ سعيكم لشتّى ﴾ من سورة الليل .

﴿ والفجرِ وليالٍ عشرٍ ، والشفعِ والوترِ ، والليل إذا يسرِ ، هل في ذلك قسمٌ لذي حجْر ﴾ ٥ من سورة الفجر .

﴿ والضحى ، والليل إذا سجَى ، ما ودّعك ربُّكَ وما قلَى ﴾ .

﴿ والعصرِ إنّ الإنسانَ لفي خسرٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصبر ﴾ سورة العصر .

﴿ والنَّجْمِ إذا هَوَى ، ماضلَّ صاحبُكم وما غَوَى ، وما يَنطِقُ عن الهَوَى ، إنْ هُوَ إلاّ وَحْىٌ يُوحَى ﴾ سورة النجم ﴿

﴿ والشَّمسِ وضُحاها ، والقمرِ إذا تَلاَها ، والنَّهارِ إذا جلاَّها ، واللَّيلِ إذا يَغْشاها والسَّماء وما بَناها والأرضِ وما طَحَاها ونفْس وما سوَّاها فألْهَمَها فُجُورَها وتقْواها قدْ أفلح مَن زكَّاها وقدْ خابَ مَنْ دسَّاها ﴾ سورة الشمس .

﴿ والسَّماء ذاتِ البرُوجِ واليومِ الموْعُود وشاهِدٍ ومَشْهود ﴾ ٣ من البروج .

﴿والمرْسَلاتِ عُرفاً فالعاصفات عَصفاً والنَّاشرَات نشراً فالفارِقَات فَرْقاً فالمُلْقِيَات ذكراً عُذراً أو نُذْراً ﴾ من المرسلات .

هذه بعض آيات أقسم الحق تبارك وتعالى فيها ببعض المظاهر الكونية من أرض وسماء ونجوم وأفلاك ، وليل ونهار ، وفجر وضحى ، وفلك ونجم وشمس وقمر وكان المقصود فيما نعلم - والله أعلم - هو لفت أنظارنا إلى الكون وما يحتويه من أسرار عجيبة ، وما فيه من نظام بديع محكم إذ كل يجرى إلى أجل مسمى عنده وكل فى فلك يسبحون ، لا يصطدم هذا بذاك ، ولا يتخلف هذا عن ذاك ، ولا يبطىء فى سيره ، ولا يختل عن موعده وصدق الله وكل شىء عنده بمقدار الذى أحسن كل شىء خلقه وفى كل قسم من هذه الأقسام حكم خاصه وأسرار عجيبة ، ومناسبات دقيقة قد يظهر لنا فيها بعض الشىء والله أعلم بأسرار كتابه المحكم ، وكونه المتقن فتبارك الله أحسن الخالقين .
وهاك نظرات فى بعض الآيات .

اقرأ معى سورة المدثر ، من أولها وما فيها من نداء يتلطف فيه صاحبه جل جلاله مع حبيبه المصطفى إذ يأمره بالقيام والجد والتكبير والتقديس لله

الواحد القهار ، مع تطهير القلب من كل شيء سوى الله ، فلست كغيرك ﴿ والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ﴾ وسيصيبك ما أصاب إخوانك الدعاة قبلك فاصبر صبرا طويلا حتى يوم الجزاء ، فإنه يوم عسير على الكافرين غير يسير .

وفى الدنيا ذرنى ، وزعماء الشرك والضلال ، ذرنى ومن خلقته وحيدا ثم أنعمت عليه بما غمره ثم هو مع ذلك أتى بما تشمئز منه النفوس السليمة فكانت النتيجة الحتمية .

﴿ سأصليه سقَرَ وما أدراك ما سقَر لا تُبقى ولا تَذرُ لوَّاحةٌ للبشر عليها تسعةَ عشر ﴾ وما أمر العدو فيها إلا فتنة وابتلاء ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ !

وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر .

كلا ! ! ليست ذكرى لهؤلاء الكفار لأنهم لا يتذكرون ، والقمر .. والليل إذا أدبر . والصبح إذا أسفر .... الآيات .

الكلام إلى هنا فى سقر — جهنم — والعياذ بالله وأنها عاقبة طغاة المشركين، ولذا كان المقسم عليه .. أنها لإحدى الكبر — أى سقر — .

وكان القسم هنا بالقمر . والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ... لافتاً أنظار الناس إلى هذه المظاهر الكونية من أفلاك تظهر ثم تغيب ، وما ينشأ عن ذلك من ليل ونهار ، وكل ذلك بحكمة ونظام ودقة وإحكام بحيث صار طلوع القمر ومغيبه ، ومجيء النهار وذهابه ، ضوابط تضبط بها الأيام والشهور والسنين والدهور « يَسْأَلُونك عن الأهِلّة قلْ هى مواقيتُ للنَّاسِ والحجِّ » ١٨٩ من سورة البقرة .

وهنا نقف وقفة إزاء هذا النظام المحكم الذى يجرى على سنن مضطرد حتى إن بعض من يعرف حساب الفلك ، وحركة الشمس والقمر يضع حساباً للشهور قد يتجاوز سنين فى المستقبل .

هذا النظام العام فى الكون أيتصور أن يكون صدفة ؟ وهل يعقل أن يكون صدفة ؟ وهل يعقل أن يكون من صنع طبيعة أو من صنع الظروف الطوارىء ... ؟ ! !

أظن لا يتصور هذا ولا ذاك أبداً ، فالصدفة صدفة قبل أن تعود ، والطبيعة لا يحصل فيها تغيير ولا تبديل أبدا ، ولكننا نشاهد أن شهراً يكون ثلاثين ، وشهرا يكون تسعا وعشرين (والشفع والوتر) على أن كسوف الشمس وخسوف القمر وحدوثهما فى أوقات مختلفة دليل كذلك على أن الكون يسير بتدبير حكيم عليم ، وأما قولهم بأنها الظروف الطارئة فهراء لا يستحق الرد . فلم يبق إلا أن الله جل جلاله هو صاحب الأمر والتصريف .

ولكن أيخلق الله هذا عبثاً أوسفهاً ؟ أظن لا يمكن أن يكون هذا ولاذاك ؛ بقى أنه يكون هذا الإتقان فى الكون إلى هذه الدرجة ثم يترك الإنسان سدى بلا حساب ولا جزاء ، أظن هذا لا يمكن كذلك وصدق الله ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات والأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ من سورة سبأ .

وإذا كان الأمر كذلك فآمنوا بالله ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وآمنوا برسله وكتبه واليوم الآخر . ولا تنس أن السر فى اختيار القمر المضىء بعد الليل البهيم وقد أدبر ، ثم ما كان بعد ذلك من صبح مشرق مسفر هو الإشارة الدقيقة ، والبشارة الأكيدة ، بأن الليل الذى ظهر فيه نور القمر وأنه قد أدبر وسيعقبه صبح ذو ضياء قوى .

وكذلك ليل الشرك والجاهلية قد أدبر وقد أعقبه نور الحق فيمحو الله به الباطل ﴿ وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهُوقًا ﴾ ٨١ . من سورة الإسراء.

﴿ فلا أقسِمُ بالخنّسِ الجوارِ الكنسِ . والليلِ إذا عَسْعَسَ والصُّبح إذا تنفّس . إنه لقول رسول كريم ﴾[1] ١٩ من سورة التكوير.

يقسم الله تبارك وتعالى بعد أن تكلم عن يوم القيامة ومقدماته بالخنس الجوار الكنس، وبالليل إذا عسعس، وبالصبح إذا تنفس، إن هذا القرآن لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ، وما هو إلا تبليغ عن رب العالمين ، وما صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم بمجنون كما يدعى المشركون . فالمناسبة ظاهرة ، ولعل السر فى القسم بهذه الأشياء على أن القرآن قول رسول كريم للإشارة إلى أن الليل البهيم لابد فيه من ضوء خافت ثم يعقبه صبح بنور ساطع . وهكذا كان الحال مع الشرك وليله البهيم كان فيه ضوء خافت فى آخره أعقبه نور الشمس فى رأد الضحى بعد الصبح المشرق البهيج . أيعقل أن يكون هذا الصنع المتقن فى الليل وظلامه ونجومه وأفلاكه ، التى تظهر وتختفى وتسير وتثبت وكل فى فلك دوار ، ثم يترك الكون بلا إرسال رسل وإنزال

---

(١) (الخنس) النجوم التى تختفى ثم تظهر بالليل ، وقيل الرواجع إذ بينما نراه فى آخر البرج إذ تراه كر راجعاً إلى أوله (الجوار الكنس) هى النجوم الخمس الدراري:زحل ، والمشترى، وعطارد والمريخ ، والزهرة. ومعنى الكنس التى تغيب بعد ظهورها كالظباء يدخل الكناس ـ بيته ـ (وبالليل إذا عسعس) أى أقبل وأدبر

قال الشاعر :

حتى إذا الصبح لها تنفس وانجاب عنها ليلها وعسعس

كتب ؛ فلا بد من حق يجلى للناس سواد الشرك وظلامه الدامس وقد كان ذلك كذلك على يد الرسل الكرام .

* * *

إن أهداف الإسلام تتلخص فى تقرير وتحقيق الألوهية الكاملة لله حتى يعبد وحده ، وتقرير مبدأ الثواب والعقاب يوم الجزاء ، وتقرير مبدأ إرسال الرسل وإنزال الكتب ، ولذلك نرى القرآن الكريم فى أول سورة الليل يقسم بالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى .

أقسم بالليل إذا يغشى الكون بظلامه وبالنهار إذا تجلى بنوره ، وبما خلق الزوجين الذكر والأنثى ، أقسم بهذا كله على أن سعى الإنسان لشتى فمنهم من سعى سعياً محمـــوداً ومنهم من عمل عملا مذموماً ، فمنهم شقى ومنهم سعيد .

فأما من سلك الخير فآمن وأعطى وأنفق فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى بماله وجاهه فسنيسره للعسرى ، وان يغنى ماله ولا أى شىء عن عذابه شيئا إذا تردى فى جهنم بعد حساب دقيق والازدواج ظاهر فى جو هذه السورة ليل ونهار ، وظلمة وضياء ، وعمل صالح وآخر طالح ، وذكر وأنثى ، ونهاية سعيدة وأخرى شقية ، وجنة ونار . أمن فعل هذا كله بحكمة وقدرة وعلم يعجز عن أن ينظم للعالم تنظيما كاملا . بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

* * *

ولا بد من زلزلة قلوبهم بتذكيرهم بما فعل مع من تقدمهم من الأمم السابقة وكانوا مثلا فى الكفر والضلال . والغرور بالمال والسلطان .

وكان السبيل إلى ذلك بالقسم . . . فأقسم فى سورة الفجر .

بالفجر وضوئه الذى يبتدىء بسيطا ثم يعقبه الضوء الساطع ، وبليال عشرهن الليالى المتوسطة من كل شهر . ولذا نكرها وإنما خصت لأنها الليالى التى ينتشر فيها ضوء القمر فيبدد ظلمة الليل لهى الليالى المقمرة فى كل شهر وما قبلها ، فضوء بسيط يكبر شيئاً فشيئاً ، وما بعدها فضوء آفل لا يلبث أن يكون محاقاً . وأقسم بالشفع وهو كل شهر متكامل : وبالوتر وهو كل شهر ينقص يوماً ،ولا يتعدى الشهر الهلالى ثلاثين يوماً ولا ينقص من تسع وعشرين يوماً . وأقسم بالليل إذا يسر أى يمضى ويذهب ، ومثله فى ذلك ليلة المحاق التى لا يكون فيها ضوء للقمر ، وإنما أضواء خافتة مبعثره هنا وهناك من نجوم السماء .

وهذا القسم بالفجر وضوئه الوليد ، وبالليالى البيض من كل شهر ، وبالشهر كله ، وبالليل إذا سار وذهب إنما يشير إلى نظام الظلام والضوء فى الليل والنهار كمجموعة ، وفى الشهر الهلالى كله كمجموعة كبرى .

وهكذا الباطل والحق فى بيئته الصغيرة والكبيرة ، ولا يلبث أن يقطع حجب الليل الكثيفة بفجر صادق وضوء لامع وإذا استمر مدة من الزمان فلا يلبث أن ينقشع وهو فى ظلامه لا بد أن يتخلله نور بسيط يظهر هنا وهناك . فمدة الباطل قصيرة ومهددة بالزوال ،وزمن الحق طويل ومؤيد بالبقاء والثبات وهذا نظام الكون فى الليل والنهار شاهد بذلك .

كما يشهد أن المدبر له هذا التدبير ؛ والمصرف له هذا التصريف الدقيق لا يمكن أن يكون عبثاً ولا سفهاً بل لا بد أن يكون من وراء ذلك حكمة عالية بقدر ما فى ذلك من إتقان .

فما هى هذه الحكمة ؟ !!

هل فى ذلك قسم — المقسم به — لذى حجر وعقل ؟ يحجره عن التمادى فى الباطل يقول الإمام الزمخشرى فى ذلك: أى فيما أقسمت به من هذه الأشياء قسم أى مقسم به لذى حجر وعقل بمعنى : هل يحق عنده أن تعظم هذه الأشياء بالإقسام بها أى لذاتها . . والمقسم عليه عنده محذوف تقديره ليعذبن بدليل قوله ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ﴾ .

والزمخشرى رحمه الله سار فى القسم سيرة ماذاع وشاع من أن القسم بالأشياء لتعظيمها. والظاهر أنه مع هذا التعظيم الذى ذهب إليه الكل فهناك حكمة بالغة فى هذا القسم .

إذ لو كان ذلك النظام المتقن ، وذلك التدبير الإلهى فى هذه المظاهر الكونية والمعالم الإلهية لغير غاية يريدها صاحب الأمر والتدبير سبحانه وتعالى لما فعل بقبيلة عاد ما فعل .ولما أوقع بثمود ما أوقع ، ولما صب على فرعون ما صبه مما هو مذكور فى تلك السورة .

ثم نزلت سورة : والضحى ... ترد على دعوى من يقول : إن الله هجرك وقلاك يا محمد فأقسم الله بالضحى . وبالليل إذا سجا . ما ودعك ربك وماقلا ...

والضحى أول النهار بعد ارتفاع الشمس قليلا ، والليل إذا سجا سكن كل من فيه ، وغطى الأفق بظلامه .

وعلى ما فى القسم بالضحى وضوئه الوضاح ، وبالليل إذا أرخى سدوله على الجميع من لفت للأنظار ، وتجلية لها حتى نتفكر فى صانعهما جل جلاله ، وما يجب له. فإن هناك سراً وراء هذا ، هو أن اليوم الشمسى فيه ضوء ساطع . وليل دامس ، وما كان هذا لاختلال أو ضعف أو قلى أو بغض ، وإنما دورة الفلك اقتضت هذا وحكمة الله الحكيم أرادت هذا .

وإذا قلنا: إن ذلك تمثيل للأمور المعنوية فالمراد : لاتحزن يا محمد ولاتبتئس بما كانوا يقولون فذلك هو نظامنا فى الكون ضوء قوى ، وظلام شجى ، فإن انقطع عنك الوحى فترة كالظلام فتلك لحكمة إلهية .

وأقسم بهذا ما ودعك ربك وما قلاك ، والآخرة عندك خير لك من الأولى . وأظن أن هذا خير من أن نذهب كما ذهب فضيلة الشيخ السماحى فى مذكراته إلى أن نظام الله فى كونه ظلام ساج يبدده ضوء مشرق ، وقد سجى الكفر مدة ، وأشرقت شمس الوحى فبددت وعلت فى أفق السماء مؤذنة بضحى بهيج والشمس لا ترتد إلى الوراء ، وضحوة النهار لا يتأتى بعدها ظلام ساج .

وهذا كلام يتم لو أن القرآن أقسم بالليل ثم بالضحى لكنه عكس والله أعلم .

* * *

ويستمر نزول القرآن فى مكة مقسما هنا بالعصر على أن الإنسان لفى خسر [سورة العصر] .

والعصر هو الزمن المتسع أشبه ما يكون بالقرن الذى تعيش به الأمة .

أقسم الله بالعصر إن الإنسان لفى خسارة وضلالة بغرائزه وميوله المادية إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق — حتى يكسروا حدة الغريزة — وتواصوا فيما بينهم بالصبر فأولئك هم المهتدون الموفقون .

ولعل القسم بالعصر على ما فيه من لفت الأنظار إليه إشارة إلى أن هذا الحكم هو الحكم الطبيعى الذى يحصل فى كل عصر من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

ثم تنزل سورة النجم وفيها يقسم الله بالنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى .

والقسم بالنجم إذا كان مائلا إلى المغيب أو صاعداً للظهور ليبدد الظلام فيسير السائر فى ضوئه ويهتدى بنوره وصدق الله : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ .

وإذا كان الله لم يترك السارى يتخبط فى ظلام الليل والصحراء الموحشة فهل يترك السارى فى بيداء الحياة بلا نجم اللهم لا .. ونجم العالم أجمع هو المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن لكى يخرج الناس من الظلمات إلى النور والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها .

والشمس وضحاها — ارتفاعها وظهورها — أقسم بها لأنها تبدد ظلمة الليل البهيم ، والقمر إذا تلاها فإنه ينير ظلمة الليل بنوره الهادى العميق ، وقيده بأن تلاها لأنه هو الذى يعكس ضوءها على الأرض ، أما إذا لم يتلها بل ظهر فى أواخر الليل أو أوائل النهار فإنه يكون ضعيفاً أولا يظهر نوره مع الشمس والنهار إذا جلاها أى أظهرها ، وذلك أن الأرض تدور حول نفسها فنصفها المقابل للشمس يكون نهاراً فهو إذا يجلى الشمس وبظهورها ، والنصف الثانى يكون ليلا يغشى الشمس ويحجبها بجرم الأرض وهذا معنى الليل إذا يغشاها .

والسماء وما بناها من أفلاك وكواكب ونجوم وغيرها ، والأرض وما طحاها من بسط لها وتهيئة للسكنى والعمارة فيها . ونفس وما سواها من

تعديل وتقويم فألهمها فجورها بغرائزها وميولها ، وألهمها تقواها بعقلها وروحها وهدايتها .

هذا هو المقسم ، وأما المقسم عليه فقوله : قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، وهذا يلفت لأنظار الإنسان إلى هذا الكون الفسيح وعوالمه .

فهاهى ذى الشمس وضوؤها من الذى أودع فيها هذه القوة الضوئية وهى على بعد هائل وبحجم ضخم ولولا هذا لفنى العالم ولما كانت حياة .

والقمر وهو أقرب الكواكب إلى الأرض يستمد نوره من الشمس .

أما الليل والنهار وتعاقبهما من دوران الأرض حول نفسها فتلك عجيبة من عجائب القدر ، فلولا هذه الدورة لظل النهار نهاراً والليل ليلا ، وما كانت حياة أبداً بل فناء دائم وصدق الله « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون : ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ٧٣ سورة القصص .

وأقسم بالسماء وما بناها ؟ ؟ فمن بناها ؟ ؟ إنه الله القوى القادر .

وأقسم بالأرض وما طحاها أى بسطها ، فمن بسطها ؟ إنه الله القوى القادر

وأقسم بالنفس وما سواها ؟ فمن سواها وهيأها للحياة ؟ إنه الله القوى القادر .

فألهمها فجورها وتقواها فمن ألهمها فجورها وتقواها ؟ ؟ إنه الله القوى القادر .

وأما المقسم عليه فهو فلاح من زكى نفسه وخسارة من دس نفسه . فالقسم بكل ما ذكر يدل على الإبداع والجمال والقدرة والعلم لننتقل إلى فهم الحكمة التى من أجلها خلق ودبر وأحكم، وخلق الإنسان وسواه وألهمه فجوره وتقواه كل ذلك لننتقل إلى الحكمة العليا وهى فلاح المؤمن الصالح وخسارة العاصى. ولا شك أن بين الشمس والقمر والليل والظلام وبين نور الإسلام والهداية وظلام الشرك والضلالة تقابلا بديعاً وأن النور يرفع الحجب الحسية ، فكذلك نور الإسلام وفلاح من سعى فى تزكية نفسه فإنه يزيح من طريقه فساد المفسدين وتدسية الفاسدين .

وبعد القسم بالمشاهد فى عوالم هذا الكون من سماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار وظلام ونور ، ينتقل فى القسم إلى عوالم الغيب ليربط كذلك بين المقسم به والمقسم عليه فيقول فى سورة البروج .

﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود ﴾ فأقسم بالسماء ذات البروج . ذات المنازل المعدة للنجوم والأفلاك وأقسم باليوم الموعود يوم الجزاء والحساب وبالشاهد والمشهود عليه اللذان يحضران الحكم والتنفيذ فأقسم بهذا كله على أن أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ملعونين[1] فإن من جعل للسماء بروجاً لا تتعداها نجومها وسارت بمنتهى الدقة والنظام وقد جعل اليوم للموعود والشاهد والمشهود . لا يوفى كلا

---

(١) وفى الكشاف عند تفسير هذه الآيات (كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك لأن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وعند ذلك تكون المناسبة ظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه ، ورأى الكشاف أصح وأوضح .

حقه المعلوم إنه المدبر الحكيم لأموره الآخذ بناصيتها ، وإلا فكيف يسود هذا النظام ويثبت ولا يتغير وكان يوم الجزاء هو اليوم الموعود لتحصل الغاية فتأتى النهاية ، وكان الشاهد والمشهود لتكون العدالة فى أخلاقه فلا يدل ذلك على أن أصحاب الأخدود سيلقون جزاءهم كاملا ؟

* * *

﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكراً عذراً أو نُذراً . إنما توعدون لواقع ﴾ « من سورة المرسلات » .

لقد رأى بعض المفسرين أن المرسلات عرفا فالعاصفات عصفاً . أنها الملائكة وقيل إنها الرسل التى أرسلت بالمعروف فعصفت عصفاً بالمنكر ، ونشرت الشرائع نشراً . ففرقت بين الحق والباطل فرقا ، فألقت للعالم كله ذكراً عذراً أو نُذراً .

ورأى بعضهم أنها الرياح على معنى والرياح المرسلات إرسالا متتابعاً تتابع عرف الفرس فعصفت عصفاً وبالرياح التى تنتشر فى الجو فتنشر السحابة ففرقت بينها ، أو هى التى تنشر الموات فيفرقن بين من يشكر الله ويذكره وبين من يعرض ، فينسى فيكون هذا إنذاره .

والله أعلم أن تفسيرها بالرياح أقرب إلى الصواب فإن المرسل ما عهد جمعها جمع مؤنث سالم وهذه الأوصاف أظهر فى الرياح وأكثر من غيرها .

هذا هو المقسم به وأما المقسم عليه فهو وأنما توعدون لواقع ولا شك أن من يقدر على هذا كله قادر على تحقيق وعده بإتيان يوم الجزاء ووقوعه وهذا النوع من القسم لفت أنظارهم إلى ما جاءهم من الهدى والبينات حتى يذكروا أن وعد الله حق لاريب فيه ، فلا يكون هناك عذر لمعتذر بعد هذا البيان الكافى .

«أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها .وزيناها . ومالها من فروج» ٦ ، ٧ ، ٨ من سورة ق .

ولا شك أن من سجل هذا كله فى كتاب الكون المشهود ، وأنزله فى كتابه المقروء ، المنزل على رسوله قادر على تحقيق اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود . وأن ما توعدون به أيها الناس لواقع . . .

ومن هنا بدأ القرآن يعرض عليهم الأدلة فى قوة وصرامة طالباً منهم النظر إلى آيات الله الكونية ليعملوا الفكر ، ويسددوا النظر فى ملكوته ليتوصلوا إلى الحقائق الإلهية التى يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى من تقرير وحدانية الله وألوهيته. وتقرير مبدأ الرسالة ، ومبدأ البحث للثواب والعقاب .

* * *

« والسماء والطارق . وأما أدراك ماالطارق . النجم الثاقب. إن كل نفس لما عليها حافظ . فلينظر الإنسان مما حلق خلق من ماء دافق . . » سورة الطارق.

أقسم الحق تبارك وتعالى بالسماء وما فيها وخاصة الطارق ! ! وما أدراك ماالطارق هو النجم الثاقب الذى يثقب غلاف الظلام بشعاعه ، أقسم بهذا كله على أنه ما كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها ويحصى عليها كل أفعالها ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . فالمقسم عليه جاء بأسلوب الحصر الذى لا يدع منفذاً لرأى أو حجة لشخص والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه أن السماء مسرح للنجوم التى تضىء الطريق وكذلك الوقوف على هذه الحقيقة التى تطرق القلب وتفتحه تنير لنا الطريق .

ولا شك أن من خلق السماء وبناها ورفع سمكها فسواها ، وأنزل فيها نجمها الثاقب ليرشد السارى فى ظلام الطريق حتى يصل إلى غايته المنشودة ، لا يعقل أن يترك الإنسان الحائر بين الدنيا والآخرة بلا هداية وإرشاد ؟

أظن هذا لا يعقل أبدا .

ولذلك أمره أن ينظر إلى نفسه مما خلق ؟ خلق من ماء دافق ....[1]

والذى قدر على أن يخلق الإنسان بهذا الشكل قادر على كل شىء سبحانه وتعالى عما يشركون .

كلمة موجزة عن القسم فى القرآن :

أقسم الله سبحانه وتعالى فى القرآن بالسماء ومابناها ، والأرض وماطحاها والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ، وبالذاريات ، وبالطور ، وبالنجم ، وبالمرسلات وبالنازعات وبالضحى ، وبالعصر . الخ ما جاء .

ولقد قال ابن قيم الجوزية :

«وإقسامه ـ تعالى ـ ببعض مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته» .

وقد سادت فكرة تعظيم المقسم به وسط آراء العلماء والباحثين إلى وقتنا هذا .

فالكل يجمع على أن الإقسام ببعض المخلوقات تعظيم لها ، ولفت الأنظار إليها حتى نستدل بها . على الخالق البارىء المصور ، كما ذهب إلى ذلك القدماء من المفسرين والمحدثون منهم مثل الشيخ محمد عبده وغيره .

وهذا رأى حسن ولا مانع أن يلحظ مع ذلك أن هناك علاقة وثيقة بين المقسم به والمقسم عليه ، وأن الغاية البيانية من القسم هو تمثيل الأمور المعنوية

---

(١) مجلة الدكتور العدد الثانى من السنة الأولى تحت عنوان موانع الحمل .

بالمشاهد والمحسوس لتتمكن فى النفس أيما تمكن ، وما فيه من معنى الإعظام إنما يقصد به إلى قوة اللفت إلى عظمة خالقها مع ملاحظة أن المقسم به تراعى فيه الصفة التى تناسب الموقف .

فالقرآن الكريم فى قسمه بالصبح إذا أسفر ، وإذا تنفس ، والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والليل إذا عسعس ، . . إنما يجلو بذلك معانى الهدى والنور والقرآن ، مع ظلام الضلال والباطل والبهتان .

ممثلا ذلك بماديات من النور والظلمة ، وهذا بيان للمعنوى بالحس .

ثم جاء القرآن الكريم وعرض للآيات عرضاً صريحا ليكشف الإنسان عن دلائلها بعقله وفكره ويعمل إحساسه كله ليصل إلى النتائج المرجوة .

ولأن الله جل جلاله يعلم أن هذا الكتاب هو آخر الكتب السماوية ، وأن نبيه عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء . . . تراه يمس الموضوع بعبارة مرنة لها قوة السحر ومرونة الزئبق ثم هى لها عدة وجوه واحتمالات ، ولها أكثر من مدلول واحد ، كل عصر من العصور يفهم فيها منها ما يؤدى إلى المقصود منها أو يقارب .

ثم إذا أتى عصر آخر واكتشفت حقائق علمية جديدة جئنا إلى عبارة القرآن الكريم فنجدها وسعت كل شىء وتعالى الله جلت قدرته وعظمته حيث يقول :

﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ . . ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ ٥٣ من سورة فصلت .

اقرأ معى قوله تعالى فى سورة الأنبياء :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » .

على حسب ما نفهم الآن ويفهمون قوله « وجعلنا من الماء كل شىء حى » على حقيقته .

وماذا كان الناس يفهمون فى قوله « وكان عرشه على الماء » .

لقد ذكرت كتب التفسير أقوالا متعددة ، وكلها تحتملها الآية على قرب فى بعضها وعلى بعد فى البعض الآخر .

فلما جاء العلم الحديث وأثبت من التحليل لأجرام السماء وأشعة الشمس ولأجزاء الأرض أنهما من عنصر واحد تأكد القول بأن الأرض والسماء كانتا رتقاً أى سداً بمعنى أنهما كانتا قطعة واحدة لا رتوق فيها ثم انفصلت كل واحدة منهما عن الأخرى بأمر الله وقدرته .

وفى قوله تعالى ﴿ وكان عرشه على المـــاء ﴾ روى المفسرون عدة آراء وروايات الله أعلم أن فيها كثيراً من الدمس ، وإن كانت قدرة الله لا تقف عند حد ، فلما جاء العلم الحديث وأثبت أن مبدأ الخليقة كان على ما يشبه الماء ، ومن الماء تكون كل شىء وكانت نظرية السديم لا يأباها العقل الإسلامى.

استطعنا أن نفهم هذه الآية فهماً يوقفنا على مدى قدرة الله الواسعة وعلى عظمته الكاملة استمع إلى قوله تعالى : [فى سورة الحجر] : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » . ثم استمع إلى النظريات العلمية فى النبات وشكله ولونه وصنعه تدرك مدى قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾ .

وصدق الله جل جلاله حيث يقول :

«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

ثم نعود إلى عرض القرآن الكريم للآيات الكونية فى السموات والأرض وما ينشأ عنها من ليل ونهار ، وحر وبرد .

نجد القرآن قد عرض لهذا فى أكثر من سبعين موضعاً حتى ينكشف للإنسان نواحى العظمة والقدرة فيؤمن بأن خالق هذا الكون هو الله لا إله إلا هو العزيز الغفار ﴿ ذلكم اللهُ ربُّكم لا إلهَ إلاّ هو خالقُ كلِّ شىء فاعبُدوه وهو على كلِّ شىء وكيلٌ ،لا تُدْركه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ ١٠٣ من الأنعام .

اقرأ معى قوله تعالى : فى سورة يس :

﴿وآية لهم اللّيلُ نسلَخُ منه النّهار فإذا هُم مظلِمُون ،والشّمسُ تجرى لمستقرّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ، والقمرَ قدّرناهُ منازل حتى عاد كالعُرجونِ القديمِ ، لا الشّمسُ ينبغى لها أن تُدْرك القمرَ ولا الليل سابقُ النهار وكلٌّ فى فلكٍ يَسْبَحون ﴾

إن الإنسان الذى عنده إلمام باللغة العربية وأساليبها ليقف أمام التعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿ نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ إنه لتصوير رائع جداً لذهاب النهار بضوئه ـ فإذا الليل بحجافله عم الكون فإذا هم مظلمون . نعم هى مفاجئة تتم فى دقائق تغيب الشمس بعد اصفرارها فيحمر الأفق ثم يأتى الظلام فيلف الكون كله . وسبحان الله وتعالى عما يشركون والشمس تجرى لمستقر لها : نعم الشمس تجرى والأرض تجرى وصدق الله وكل فى فلك يسبحون . . . .

لقد كنا نعلم ونحن أطفال أن الشمس تجرى ثم جئنا فى الأزهر فى سنواته الأولى فقالوا لنا : إن الأرض تجرى وأما الشمس فلا تتحرك فوجمنا لأننا نحفظ

القرآن الكريم وفيه (والشمس تجرى لمستقر لها) فوقفنا أمام هذا فى حيرة وشك وإن كان الجانب الدينى غالباً فآمنا بأن الشمس تجرى وإن خالفنا فى ذلك بعض نظريات العلم .

ولقد كانت هذه الحيرة إحدى سمات هذا العصر ، أما المثقفون ثقافة مدنية فجروا وراء النظريات العلمية فى حقها وباطلها وأما نحن فلم نتحرك بل ظللنا مؤمنين بنظرية القرآن وإن خالفت العلم .

وأذكر أن المرحوم الشيخ المراغى قال لنا فى بعض دروسه : إن حقائق العلم لا تتنافى مع القرآن أبدا ، ولكن النظريات العلمية التى لم تستقر بعد بأدلة يقينية ثابتة قد تختلف وهنا يقف المسلم ويعيد البحث فى النظرية وتكون النتيجة أن النظرية تعدل بعد أبحاث كثيرة وظلت قضية القرآن كما هى « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

ولقد أثبت العلم فى أدق نظرياته أن الشمس لها مدار تجرى فيه وأنها كبيرة جدا وأن الأرض تجرى فى مدارها وحول نفسها والشمس كذلك تجرى فى مدارها . وصدق الله « كل فى فلك يسبحون » .

وكان النظام الكونى فى منتهى الدقة والإحكام فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر وكيف تدركه ونوره منها حينما تكون فى النصف الثانى من الأرض وهو يضىء للنصف الأول ولا يعقل أن يسبق الليل النهار بل هذا فى نظام رتيب يجرى على سنة واحدة لا تختلف أبدا سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وذلك ينعدم القول بالصدفة أو الطبيعة الجاهلة ولم يكن إلا علم العليم الخبير وقدرة القوى القدير سبحانه وتعالى .

تعال معى لنقرأ من سورة الفرقان قوله تعالى :

﴿ ألَمْ تر إلى ربك كيف مد الظل . ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمسَ عليهِ دليلاً ثمّ قبضناه إلينا قبضًا يسيراً ، وهو الذى جعَل لكم اللّيل لِباساً والنّوم سباتاً وجعل النّهارَ .. نُشُورا ، وهو الذى يُرسلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَين يدىْ رحمتِه ، وأنزلنا منَ السّماء ماء طهُوراً لنُحْيِيَ بِه بلدة ميْتا ونُسْقيه مما خلَقنا أنعاماً وأناسِيَّ كثيرا ولقد صرّفناهُ بينهُمْ ليذكروا فأبى أكْثرُ الناسِ إلاّ كفُورا ﴾ ٥٠ الفرقان .

﴿ تباركَ الذى جعَل فى السماء بُرُوجاً وجعلَ فيها سِراجاً وقمراً مُنِيراً . وهُو الذِى جعلَ اللّيلَ والنهارَ خِلفةً لمنْ أراد أن يذّكّر أو أرادَ شكُورا ﴾ ٦٢ الفرقان .

ألم تنظر إلى صنع ربك الذى أتقن كل شىء ! !!

أنظر إلى الظل كيف مدّه . ومما تكون ؟ . . والحديث عن الظل فى البلاد العربية والبلاد الصحراوية هو حديث عن نعمة وأى نعمة ! !

ومد الظل بسطه وامتداده إلى جهة المغرب صباحا وإلى جهة المشرق مساء ولو شاء ربك لجعله ساكنا لا يتحرك ولا يمتد . وفى الكشاف : سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه ، وعكس ذلك سكونا .

ثم جعلنا الشمس عليه دليلا نعم فإنا نستدل بالشمس على اتجاه الظل وبه على أبعادها طولا وقصرا . ففى الصباح يمتد غربا وبعد الظهر يمتد شرقا ، وماذاك إلا أن الشمس دليل تدلنا على ذلك ثم قبضناه حينما يتقلص الظل قبضا يسيرا هينا وفى قبضه بيسر ورفق نعمة وأى نعمة .

وهو الذى جعل الليل لباسا بأستاره وظلامه وجعل النوم انقطاعا عن العمل للراحة وجعل النهار للعمل والنشور ، وهو الذى أرسل الرياح مبشرات

بين يدى رحمته الكبرى ونعمته العظمى بالمطر ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا صافياً لا يشوبه كدر ، ولادنس . ولم يعلق به شيء من الدنس ولا من الأخلاط والجراثيم ، كما قد يطرأ على بعض المياه الأخرى مما يصادفها فى سيرها أو فى منابعها وإنما يقصد القرآن هذا — ولعلها من معجزات العلم الحديث — ولا يعقل أنه يقصد الطهارة من الأحداث . تبارك اسم ربك وتكاثر خيره وبره . الذى جعل فى السماء بروجا ومنازل لكل نجم وكوكب ، لا يمكن أن يتعدى شيء منها منزلته أو برجه .

أليس هذا دليل الحكمة والقدرة؟ أرأيت إلى ما جعله ربك فى السماء من الشمس والقمر المنير ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة يخلف الليلُ النهارَ ، والنهارُ الليل ؛ أرأيت لو كنا فى ليل دائم ، أو نهار دائم لما كانت حياة ولا زرع ولا ضرع ، جعلهما خِلْفة لمن أراد أن يذكر نعمة الله أو أراد أن يشكر ربه وسبحانه وتعالى . حقا وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

أرأيت إلى هذا العرض السريع فى الظل والليل والنهار ، وفى الأرض والسماء والرياح والمطر والسحاب المسخر بين السماء والأرض .

أرأيت إلى الشمس والقمر ، ولبـــاس الليل وسباته وضوء النهار ونشوره .

أرأيت إلى خِلْفة الليل والنهار ولو شاء لجعله نهارا دائما أو ليلا دائما عند ذلك يفقد الكوكب الأرض الحياة .

أرأيت إلى هذا وغيره .؟

ثم تعال معى ننظر أهذا يكون مصادفة ؟ . . لا . . .

أهذا يكون من صنع طبيعة جاهلة عمياء ؟ . . لا . . .

أهذا يكون بفعل الظروف الملائمة ؟ . . لا . . .

إنها القدرة الإلهية إنه العلم والحكمة الربانية إنها الإرادة النافذة .

إنه الله لا إله إلا هو فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا . الحمد لله فاطر السموات والأرض .

وعلى هذا الأساس وبتلك الطريقة أخذ القرآن يناقش المشركين ويعرض مظاهر القدرة والإرادة بكل أسلوب ، وفى كل سورة حتى أحصاها بعضهم سبعين موضعاً فى القرآن الكريم .

وها نحن نتكلم بإيجاز عن معظمها تاركين ما يبقى للقياس ولفهم القارئ .

* * *

وعلى هذا الأساس استمر القرآن يذكر آيات الله فى الكون ، وما يتصل بذلك من رياح وأمطار وفصول . وحر وبرد .

وبنى على ذلك كله استحقاقه للعبادة والشكر ، لأنه الإله الواحد الأحد الخالق البارىء المصور وحده لا شريك له .

﴿ فلله الحمدُ ربِّ السَّمٰواتِ وربِّ الأرضِ ربِّ العالمين . وله الكبرياء فى السَّمٰواتِ والأرضِ وهو العزيز الحكيم ﴾ ٣٧ من الجاثية .

﴿ الحمدُ لله الذى خلق السَّمٰواتِ والأرضَ وجعل الظُّلُماتِ والنورَ ثمَّ الذين كفروا بربِّهم يَعْدِلُون ﴾ أول الأنعام .

﴿ الحمدُ لله فاطرِ السَّمٰواتِ والأرضِ جاعِلِ الملائكةِ رُسُلا . . ﴾ أول فاطر .

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عَمَدٍ تَرَوْنها . ثم استَوَى عَلَى العرشِ ﴾ ٢ ، ٣ ، ٤ من الرعد .

﴿ إن ربَّكم اللهُ الذى خلق السَّمٰواتِ والأرضَ فى ستَّة أيامٍ ثمَّ استوى على العرشِ يُدَبِّر الأمرَ ما مِن شفيعٍ إلاّ مِن بعدِ إذنهِ ذٰلِكم اللهُ ربُّكم فاعبُدُوه أفلا تذكَّرُون ﴾ ٢ سورة يونس

﴿ له ما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ ٦ من سورة طه .

﴿ الَّذِى جعَلَ لكم الأرض مهْداً وسلَك لكم فيها سُبُلا وأنزل منَ السَّماء ماءً فأخرجنا بهِ أزْواجاً من نبات شتى ﴾ ٥٣ سورة طه .

﴿ الَّذِى جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً والسَّماءَ بناءً وأنزل منَ السَّماء ماءً فأخرج به منَ الثَّمراتِ رِزقاً لكم . فلا تَجْعلوا للهِ أنْدَاداً وأنتم تعلمون ﴾ ٢٢ من سورة البقرة .

والآيات التى تعرضت لهذا الموضوع كما قلنا كثيرة منها المكى ومنها المدنى وهى كما قلنا تبلغ السبعين أو تزيد .

* * *

إن هذا العرض الهائل العظيم لأدلة الألوهية لله الواحد الأحد .

فى الإنسان ونشأته ... فى الحيوان وخلقته .

فى النبات وهيئته ... فى الكون وآياته .

إن هذا العرض الدقيق الشامل لكل الجزئيات والكليات ، والمتدرج فى نزوله تبعاً لعقلية العرب وظروفهم .

إن هذا العرض الدقيق لو كان من عند غير الله لما كان بهذا التصوير الرائع، وصدق الله ﴿ أفلا يتدبّرُون القرآن ولو كان منْ عندِ غيرِ الله لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ٨٢ من النساء .

أرأيت إلى الوحدة الموضوعية فى هذا المقام كيف يتم بناؤها بدقة وحكمة فلا تجد فيها اعوجاجاً ولا اختلافا ولا تناقضاً بل كل آية أو آيات فى سورة تهدف إلى لفت النظر إلى الألوهية الكاملة لله سبحانه وتعالى .

* * *

ثم هناك عجيبة من عجائب هذا الكلام الإلهى .

فقد تكلم عن أمور مادية من سماء وأرض ، ورياح ومطر ؛ ومن إنسان وحيوان . وتكلم عن حقائق أخرى . فماذا كان موقف العلم المادى من هذه النظريات ! !

الحق الذى لا يقبل الشك أن الحقائق العلمية التى توصل إليها العلم أخيراً وجدنا أن القرآن من أربعة عشر قرناً تحدث عنها على لسان نبىّ أمىّ عربىّ نشأ فى بيئة عربية جاهلة ، ولم يكن بين الإسلام وبين العلم عداء أبدا وكيف يكون ذلك وأول آية فى القرآن :

﴿ اقْرَأْ باسم ربِّك الذى خلق خلق الإنسانَ منْ عَلَقٍ اقرأْ وربُّكَ الأكرَمُ الذى عَلَّمَ بالقلمِ علّمَ الإنسانَ مالَمْ يَعلم .. ﴾ سورة العلق .

نعم قد يكون هناك خلاف بين القرآن وبعض النظريات العلمية التى لم تبحث ولم تدرس بعد دراسةً كاملة حتى إذا ما دُرِسَت وأصبحت حقيقة علمية نجدها التأمت مع القرآن ولم تعارضه .

وبهذه المناسبة فمن أراد أن يتفهم من القرآن مبدأ علميا يتخصص فى هذا

العلم ويدرسه دراسة كاملة تامة ثم. بعد ذلك يأتى للقرآن فيجده قد سبق البحث الحديث والحقائق العلمية ، وأتى بالحقائق الرائعة التى لا تقبل شكا ولا جدلا لأنه تنزيل رب العالمين الذى خلق فسوى .

* ٥ *

لقد تكلم القرآن عن أمور مادية من سماء وأرض ، وإنسان وحيوان لا يقصد البيان العلمى وإنما يقصد تقرير حقيقة الألوهية للذى خلق هذا الكون بما فيه ، فتراه كشف بعض الأسرار ، ولفت الأنظار إلى حقائق نجد أن ما قرره القرآن فيها من أربعة عشر قرنا قد توصل إلى بعضها أخيراً .

وذلك كله ليتحقق صدق قوله تعالى ﴿ سنُرِيهِمْ آياتِنا فى الآفاقِ وفى أنفسِهم حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ أوَ لم يَكْفِ بربِّكَ أنَّه عَلَى كلِّ شىء شهيدٌ ﴾ ٥٣ من الشورى .

ولنأخذ مثلا نظرية المطر فالقرآن قال عنها ـ كما عرفت ـ .

﴿ وهُو الذى يُرْسلُ الرياح بُشْرًا بين يَدىْ رحمتِه حتى إذا أقلَّت سَحاباً ثِقالاً سُقْناه إلى بلدٍ ميِّتٍ فأنزلْنا به الماء فأخرجنا به من كلِّ الثَّمراتِ كذلك نُخْرجُ الموتى لعلَّكم تذكَّرُونَ ﴾ ٥٨ من سورة الأعراف .

﴿ ألم تر أن الله يُزْجى سَحابا ثم يؤلِّفُ بينه ثم يجعلهُ رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرجُ منْ خِلاله فيُصيبُ به مَن يشاء ويصْرِفهُ عمَّن يشاء يكادُ سنا بَرْقه يذهبُ بالأبصار يُقلِّبُ الليلَ والنهارَ إن فى ذلك لعبْرة لأولى الأبصارِ ﴾ من سورة النور .

فأنت تعلم أن العرب كانت تفهم أن السحاب له خراطيم تنزل إلى

المحيطات فتشرب منه ثم تصعد إلا السماء فتنزل المطر ـ كما سبق أن قلنا ذلك نقلا عن مشاعرهم »[١] .

وفى القرون الوسطى كان الإنجليز يعزون قلة المطر من حين إلى آخر إلى ذنب ارتكبته الضفادع ، فعندما لا تجود السماء بالماء كانوا يضربون ضفادعهم المسكينة لينهمر المطر[٢] .

أرأيت إلى هذه النظريات وكيف تحكم عليها .

ثم انظر إلى ما قاله القرآن الكريم فى المطر وجعله آية لأول الأبصار حتى يؤمنوا بالله العزيز الحميد وما وصل إليه العلم الحديث وأصبح حقيقة علمية ، أرأيت بينهما اختلافاً ؟ !!

ليس بينهما اختلاف إلا فى شىء واحد ، فالمؤمنون بالله يقولون : إن هذا صنع الله الذى أتقن كل شىء وهو خلقنا أول مرة ، وهو صاحب النعم ، ويقول غيرهم : إنها الطبيعة .

أو هى الصدفة .

أو هى الظروف المواتية ؟

وما علموا أن الطبيعة لا تكون مصدراً لهذه الدقة والحكمة ، وأنه يصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، وقد تأتى سنة بلا مطر ، وأخرى كثيرة المطر ، والصدفة صدفة ، أما الظروف المواتية فإنا نرى ظروفا مواتية ولكن لا أثر لها فتعالى الله سبحانه عما يقولون علواً كبيرا .

---

(١) وفى كتاب آثار البلاد للقزوينى يصف سحابة تنزل من السماء قرب حلب « وتدلت فأخذت كلبا يعوى إلى السماء والناس شهود » وهذه على ما أظن لا تزيد عن أنها نافورة مياه .

(٢) سلسلة اقرأ للدكتور جمال الفندى فى عجائب الأرض والسماء .

وما نظرية بدء التكوين وخلق المرعى وجعله غثاء أحوى منك ببعيدة

وخير ما نختم به مقالنا هو ما نقله الدكتور محفوظ فى كتابه « حياة طبيب » .

« ولقد كان الرأى السائد بين الفلكيين إلى عهد قريب أن الفضاء الكونى لا منتهى له ، ولكن الأبحاث الجديدة تقول : إن هذا الفضاء محدود وأنه معمور بعشرات الألوف من المجموعات الكوكبية منها مجموعتنا الشمسية ، وأن الأبعاد بين بعض المجموعات والبعض الآخر يجب أن تكون . بحيث يبقى الجو المحيط بها محدوداً .

التشبع الكونى : وهذه المجموعات تتجه فى سيرها أماماً حتى تصل إلى حدود الفضاء ويتم ذلك فى ألف مليون من السنين ، ثم ترجع من حيث أتت فى مثل هذا الزمن ، وأن هذه المجموعات فى حركتها الاتساعية إلى الأمام يعترى الجو الذى تسير فيه نقص فى التشبع الكونى ولكن ، هناك قوة خفية لم يدرك العلماء كنهها اليوم تخلق كواكب أخرى تحفظ نسبة التشبع الكونى على الدرجة المطلوبة . ونحن الآن فى أطوار الاتساع إلى الأمام .

ولما سئل العلماء عن هذه المادة التى تخلق منها الكواكب التى تحفظ نسبة التشبع فى الفضاء الجوى ... أجابوا : لا ندرى فلما سئلوا من يخلقها ؟

قالوا : قوة لا يدرك العلم كنهها[1] .

وهذا تعليق الشيخ السماحى فى مذكرته :

ألا نقدر أن نفهم مما وصل إليه العلم إلى الآن أن السموات والدنيا مزينة بزينة الكواكب والشمس والقمر يجريان فيهما بحسبان ، وأن العالم المرئى

(١) انظر الأخبار ١٥/١١/١٩٦٣ تحت عنوان آمنت بالله للأستاذ موسى صبري .

جميعه بما فيه من مجرات وكواكب إنما يجرى فى إطار هو نهاية كوننا والذى يمكن أن نجده فى السماء الأولى وأن عوامل الفناء والخلق جارية فى كواكب السماء ونجومها ومجراتها كما هى جارية فينا .

﴿ ولِلّه مُلْكُ السّمواتِ والأرضِ وما بينهُما يخلُقُ ما يشاء واللهُ على كلّ شىء قديرٌ ﴾ ١٧ من المائدة .

﴿ لله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما فيهِنّ وهُو على كلّ شىءٍ قدير ﴾ ١٢٠ من المائدة .

﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ ١١٦ من التوبة .

هل هذه الأدلة قطعية ؟

الأدلة التى مضت قريباً ، وكان عمادها النظر فى الآيات القرآنية الدالة على ألوهية الله سبحانه وكمال وحدانيته فى الإنسان ونشأته ... والحيوان وتكوينه .. والنبات وتنوعه .. والكون وترتيبه ونظامه .

هذه الأدلة بمقدماتها ونتائجها إنما تعتمد أولا على البدهيات العقلية التى لا تحتاج إلى عمق فى الفلسفة أو توسع فى العلوم والمدركات .

وهكذا شأن الإسلام والقرآن فى كل شىء يخاطب الطبيعة المجردة ولا يصادمها « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تَبْدِيلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدِّينُ القيِّمُ » .

هذه الأدلة يدركها العقل الطبيعى المجرد الخالى من الفلسفات والتعقيدات بالقدر المشترك الموجود فى كل إنسان موجود ، ومع هذا فإذا سلطنا عليها الأضواء العلمية وبحثناها فى معاملنا وجامعاتنا بالمجهر والمكبر نجد العلماء الباحثون — إذا كانوا يؤمنون بالغيب — ساجدين عابدين وتلك من معجزات القرآن .

إذا لم يكن الأمر كذلك كان مخاطبة العرب بها — وهم قوم أميون لا يعرفون فلسفة ، وليست لهم علوم بالمعنى المعروف — عبثاً وضرباً من الحماقة والجهل وإذا عجزوا عن إدراك المقدمات ونتائجها لبعدها عن مستوى عقولهم الفطرية لقالوا :

لولا فصلت آياته !!! أفلسفات وعلوم ونحن قوم أميون .

وصدق الله « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » ٤٤ من سورة الشورى .

* * *

هناك مدركات أولية يدركها العقل البسيط المجرد الذى أعطى للإنسان دون سائر الحيوان .

العدم المحض لا يمكن أن ينقلب إلى وجود من غير فاعل قادر .
الموجود لا يمكن أن يتحول من حال إلى حال بدون فاعل قادر .
فاقد الشىء لا يعطيه لنفسه ولا لغيره .
تلك بدهيات لا يختلف فيها اثنان .

فإذا ثبت أن هذه الأشياء كانت لاشىء فمن أوجدها أولا أى من أوجد الحية الأولى أو الذكر الأول والأنثى الأولى ؟ لا بد أن يكون موجدها هو الله الموجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر له ، ولا يعقل أن تكون هى التى أوجدت نفسها ضرورة أن فاقد الشىء لا يعطيه لا لنفسه ولا لغيره .

وإذا ثبت أن العناصر لا تقبل الحياة بخواصها ثم وجدناها تتحول إلى خلايا حية بواسطة البذور ، نقول : لا بد من سبب أقوى من طبيعتها حولها إلى البذور ثم إلى خلايا حية ، ثم جعل نظام تحويلها بواسطة تلك البذور وهذه الخلايا إلى الكائنات الحية مرتبطاً بأسباب ظاهرية ، والذى فعل ذلك كله هو الله وحده .

ثم لا بد أن يكون معطيها الحياة حياً قادراً يملك أن يعطى الحياة لغيره . ثم هذه الحياة تتطور وتنتقل إلى أنواع وأنواع أرقى ، فلا بد أن تكون القوة الموجودة القادرة الحية التى منحتها الحياة الأولى متصفة بالعلم والإرادة فإنه لا يعقل

أن يكون فى البناء إصلاح وتهذيب وتطور بدون علم وإرادة وحكمة تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

وإذا نظرنا للإنسان وجدناه مكوناً من أجهزة متعددة وإلى الكون وجدناه مكوناً من أفلاك ونجوم وشموس وأقمار كل له حركه خاصة فى مجال خاص وجميع الكون له ارتباط عام شامل ، مع العلم بأن كل واحد من هذه الأجهزة المتعددة ، والأفلاك الكثيرة له خصائص ورسالة يقوم بها بكل حكمة ودقة . فلابد أن تعلم أن هناك رابطة تربط تلك الأجهزة وقوة تسيطر عليها، وأن فى هذا الكون رباطا قويا محكما يسيطر على السموات والأرض ، هذا الرباط فى يد قدرة قادرة وعلم قام وإرادة محكمة ، وتدبير أعلى يدبر الأمور فلله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . فإذا أدرك الإنسان أن وراء هذا الكون العجيب وهذه المخلوقات المتعددة رباً واجب الوجود متصفاً بالقدرة والإرادة والعلم وبالحياة وقد أوجدها من العدم ثم ربط وجودها بعد ذلك بالأسباب والمسببات والعلل والمعلولات التى تنتهى قطعاً إلى سببها الأول الذى لا أول لوجوده ولا آخر له المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، كان هذا الإدراك إنما هو بالفطرة التى فطر الناس عليها .

أما إذا لم يدرك أن من وراء هذه الكائنات ربا قادراً عالما كان كمثل إنسان سائر فى الصحراء المحرقة فوجد قصراً ضخماً قد استكمل كل أسباب الحياة ، فأخذ يتمتع ويلهو ويلعب ولا يسأل من الذى بنى هذا القصر؟ ومن الذى رتبه ونظمه ، ومن الذى أمده بالماء والغذاء ؟ ومن الذى أثثه بالفراش ؟

بل أخذ يأكل كالأنعام ثم جاء صاحبه يوماً وأخذ يحاسبه فأسقط فى يده وقال ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً غير الذى كنت أعمل ﴾ عند ذلك

يندم ولكن لاينفع الندم » من هذا كله نرى أن هذه الأدلة قطعية الدلالة .

أولا : لاعتمادها على أمور عقلية قطعية وأن تكون بدهية .

ثانياً : قد كررت مراراً كثيرة فى أماكن مختلفة كلها تتلاقى على معنى واحد ، وهذا مما يجعل العقل يحيل أن يكون المراد غير ذلك .

ثالثاً : ولقد كان فهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعمله ، وكذا فهم الصحابة وعملهم على هذا الأساس بل كانت مهمتهم وحروبهم لتثبيت تلك الدعائم التى أولها إثبات الألوهية والوحدانية لله سبحانه وتعالى : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام »[1]

وإذا كان الأمر كذلك فما بال هؤلاء المنكرين لتلك الحقائق الناصعة القوية ؟ ألهم شبهة فى إنكارهم ؟ وإذا كانت فهيا بنا نلم بها حتى نزداد إيماناً ويقيناً .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عمر كتاب الإيمان .

الشبهات الواهية حول خلق الحيوان والإنسان

هناك شبه واهية ... القصد منها إبطال الحقائق الدينية القائلة بأن الإنسان خلق من تراب وأن الذى خلقه هو الله . وقد نشأت هذه النظريات تحت ضغط رجال الكنيسة على العلم والعلماء ضغطاً جعلهم يفكرون فى الإلحاد والكفر نكاية فى رجال الدين المسيحى وتتلخص هذه الشبهة فيما يأتى :

الشبهة الأولى :

١ — أجمع علم التشريح المقارن للحيوان ، وعلم الأجنة وعلم الحفريات على أن الكائنات الحية فى الحيوان عامة تدرجت من أصغر ذرة إلى الإنسان تدرجاً طبيعيا ، وهذا التدرج خاضع لقوانين تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وقانون الترقى وقد تمسكوا بأن الإنسان متطور عن جده الأعلى (القرد) وتلك حلقة من حلقات التطور فى الثدييات . . مستدلين على ذلك .

(ا) بأن فى الإنسان تراكيب أثرية كعضلات خلف الأذن لا تستعمل أبدا عنده ولكنها تماثل العضلات الموجودة فى الحيوانات متى تحرك أذنها لتلتقط الأصوات من الجهات كالخيل والكلاب . . وهذا دليل على تطور الإنسان .

(ب) وبوجود الزائدة الدودية وليس لها أى عمل للإنسان ، ولكنها لها عمل عند الحيوانات آكلة العشب كالأرانب ، بينما تختفى عند الحيوانات آكلة اللحوم كالقط ، فوجودها فى الإنسان بلا فائدة دليل على تطوره من الحيوانات آكلة العشب .

(ج) وجود فقار عصعصية فى مؤخرة عموده الفقرى ، وهى تشير إلى ذيل اختفى دليل على أن أصل الإنسان حيوان له ذيل كالقرد مثلا ، على أن بعض الأطفال يولد بهذا الذيل .

٢ — هذا الجنين فى بطن أمه يمر بأدوار كالأدوار التى مرت بها أسلافه من الحيوانات وإلا لو كان خلقه مستقلا لما كانت له خياشيم تشبه خياشيم السمك وهو فى بطن أمه ، وفتحات خيشومه وهو جنين يندفع فيها الدم من قلب يشبه قلب الأسماك ، وما زال إلا أنه يحكى لنا عن أسلافه حلقة من حلقات حياتهم فالإنسان هو والسمك من أصل واحد وأصاب الإنسان التطور .

٣ — وفى دراستهم للحفريات وجدوا أن الطبقات القديمة تحتوى على الكائنات البسيطة وفى الطبقات الحديثة وجدوا الكائنات أرقى وأقرب إلى الكائنات الحية المعاصرة .

ونظرية التطور عند الداروينيين وأمثالهم تنبنى على مقدمات هى :

١ — تقوالد الأحياء بكثرة .

٢ — يميل عدد الأفراد فى النوع إلى أن يظل على الزمن البعيد ثابتا إلى حد ما وبهذا ينشأ التنافر بين الأفراد والأنواع ، وهذا مما يقلل عددها وهذا هو تنازع البقاء .

٣ — جميع الأحياء تميل إلى مخالفة بعضها للبعض حتى ولو كانوا من نوع واحد وهذه المخالفات قد تورث .

٤ — ومع وجود مبدأ تنازع البقاء فالذى يبقى هو الأقوى والضعيف يباد ، وهذا ما يسمى بالانتخاب الطبيعى .

٥ — مع استمرار الانتخاب الطبيعى وبقاء الأقوى يجتمع فروق صغيرة حتى يتكون فرق كبير وهذا هو التطور .

هذه هى نظرية التطور فى النبات والحيوان لا تخضع إلا لقانون التطور القائم على تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى .

الشبهة الثانية : تدور حول أن النظام الثابت لا يحتاج إلى خالق وموجد. ولذا يقول الدكتور بختر الألمانى : لا يمكن أن يتصور أحد اتفاق حكمة أزلية إلهية مع نواميس طبيعية ثابتة . . فإما أن يكون الأمر للنواميس الثابتة التى لا تتخلف ولا تشذ ، وإما أن تكون ليد خارجة ـ الله ـ .

وإذا كنا نشاهد أن القوانين الطبيعية والنواميس ثابتة فهى إذن الحاكمة المتصرفة، إذ لم تشاهد فى الفضاء البعيد بالتلسكوب حادثة شاذة عن النظام تُسَوِّغُ للإنسان أن يقول بضرورة وجود قوة مطلقة ذات تأثير على الكائنات .

ويقول : هوتشن كتل : كل ما فى الوجود من أول ذرة الهباء إلى عقل الإنسان محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير، وبناء عليه فلا صانع للوجود .

الشبهة الثالثة : وجود شذوذ فى بعض الأنواع والأحوال دليل على عدم وجود خالق .

مثلا وجود الخنثى ولها أعضاء تناسلية للذكر والأنثى ، ولا تلقح نفسها مع وجود حيوانات كثيرة الإخصاب جداً لدرجة لو تركت لملأت الجو كله مثل دودة القطن، والدود الذى يهلك الحرث والنسل . . .

الشبهة الرابعة : الأشياء الموجودة أمامنا تتكاثر بطريق الطبيعة وما عدا ذلك لا نثبته ولا ننفيه، وهذا مذهب الماديين فهم لا يثبتون إلها خالقا ولا ينفون ، فهم على الحياد التام .

ونحن الآن مع مؤلف كتاب الله والإنسان [1] الذى يقول: كل شيء فى الدنيا له سبب ، وكل شيء سبب لما بعده ، ونتيجة لما قبله وينتج عن هذا سؤال كيف يكون الله فى قلب الكون وكيف يقال إنه حركة الكون وقانونه ؟ .

أمن المعقول أن تكون هناك حركة بلا محرك ونظام بلا منظم وحدث كونى عظيم اسمه الوجود بدون موجد ؟

هذا سؤال وجيه ولكن هذا الكلام يحتوى على مغالطة وخطأ منطقى ، أما المغالطة فإن قانون السببية ينطبق على الجزئيات أما الكلى فلا يسأل عن سبب وجوده إذ وجوبه ذاتى من نفسه لأن الكلية غاية وسبب فى ذاته ولا يحتاج إلى سبب من الخارج. وسؤالنا عنه كمن يسأل لماذا تبدو الأشياء المتساوية متساوية ؟ .

والرد أن قانون السببية عقلى لاشواذ فيه ولا استثناء ومن يستثنى منه كمن يقول: يتساوى المتماثلين إلا فى الخشب أو الحديد .

وأما الخطأ المنطقى على قول فيلسوفنا أن سؤالنا من خلق الكون ؟ معناه أن الكون كان معدوماً فى البداية ، ثم خلق وكيف يكون المعدوم كيان ؟ إن

---

(١) الحمد لله لقد عاد مؤلف هذا الكتاب إلى الحق فى مقالات نشرت فى مجلة صباح الخير التى تصدر بالقاهرة أوائل عام ١٩٧٠ بعنوان التفسير العصرى للقرآن الكريم .

المعدوم معدوم فى الزمان والمكان وساقط فى حساب الكلام ، ولا يصح القول بأنه كان ، وانعدام الكون يحتاج إلى برهان بعكس وجوده ، فهو بدهى أن من يسأل هذا يلقى فى داخله حقيقة غير منطقية ودعوى تحتاج إلى دليل بعكس المنطق البسيط :أن الوجودموجوه والعدم معدوم. فالوجود إذن ممتد إلى الأبد والأزل ولم يكن منعدماً فى وقت حتى نسأل من الذى خلق ؟ (١) .

(١) يراجع فى ذلك مذكرات الشيخ السماحى وكتاب « نظرات فى القرآن» للشيخ الغزالى .

الرد على الشبه

الشبهة الأولى : الداروينية - والتى هدفها إنكار وجود الخالق لهذا الكون حيث اعتمد أصحابها على أن هذا الكون كله بما فيه من عوالم متدرج فى الخلق و متطور ، يتحكم فيه قانون الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة إلى خالق مبدع .

فإذا فاجأتهم بقولك : ماسبب وجود هذا العالم بهذا الشكل ؟ قالوا : إنه لا يحتاج إلى سبب فهو موجود بذاته ، والأصل هو الوجود . والعدم محال .

إن هذا كلام هراء .

(ا) قد أفحمهم القرآن بالحجة البالغة .

(ب) وقفوا حيارى عندما جوبهوا بأسئلة عن بعض مظاهر العالم .

(ح) وقف بعض العلماء الأحرار موقف المستريب من نظرية النشوء والارتقاء .

وها نحن نبحث سوياً ما قاله القرآن . وأنت تعرف أن القرآن يقدم بسهولة ووضوح حجته الدامغة مطالباً بالنظر الحر البرىء لما حولك من مظاهر الخلق فقال :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير » ٢٠ من سورة العنكبوت .

بهدوء ويقين يتقدم القرآن للإنسان لافتا نظره إلى الخلق كله ليقف على كيفية بدء الخلق فإن الخلق كله خاضع للأسباب والمسببات . لكن لو اتجه العقل البشرى إلى كيفية بدء الخلق لأيقن أن هناك قدرة كبرى هى السبب الأول .

فالكائنات الحية تتوالد وتتكاثر من اتصال الذكر بالأنثى، إلقاء منى الذكر في رحم الأنثى وهما متوقفان قطعا على الذكر والأنثى هكذا .

وإذا توقفت العلة على معلولها في سلسلة وجودية فلابد إذاً من علة أولية خلقت نفس الذكر الأول والأنثى الأولى من مادة أخرى مخالفة .

وفي النبات يتوقف النبات على البذر والبذر على النبات الذي يخرجه ويثمره إذاً لابد من سبب موجود لأول نبات ينتج ثمراً أي لابد من تدخل قدرة قادرة حولت الطبيعة من وضعها الأول إلى وضع آخر يحمل في ثناياه التكاثر والتوالد باللقاح .

فوجود الحياة نفسها في النبات والحيوان حالة كونها ناشئة من عناصر لاحياة فيها دليل أكبر على تدخل قدرة قادرة وهبت تلك العناصر طبيعة غير طبيعتها .

ونفس الذرة وجدت بالبحث العلمي أنها مكونة من الإلكترون والبروتون والنيترون وغيرها فمن ركبها من هذه العناصر بالذات ؟ أليس ذلك دليلا على وجود إله حي قادر يعمل هذا .

والماء الذي نشربه ونطفيء به لهب النار أو العطش مكون من الأكسوجين والإيدروجين بنسب معينة مع أن كلها من عناصر إما محرقة أو مساعدة على الاحتراق ، ومع هذا نطفيء به لهب العطش أو لهيب النار فمن الذي صنع هذا ؟ إنه الله جل جلاله ! ! .

توضيح المقام : إذا كانت النطفة علة في تطور الجنين إلى علقة فمضغة فلابد للعلة من وجود علة لها تكون هي معلولة لها ، فالنطفة علة لما بعدها وهي معلولة لعلتها وهكذا فيلزم على ذلك التسلسل وهو محال أو ينتهي الأمر إلى موجد أول ليس له علة بل هو المبدأ والأول في وجود ما عداه وهو الله جل جلاله .

ويقول القرآن مرة أخرى :

﴿أم خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيء أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنونَ ﴾ .

بمنتهى البساطة يقول القرآن للناس .

أخلقتم أنفسكم ؟

أم خلقتم من غير شيء ؟

أم خلقكم الله ؟

أما خلقهم أنفسهم من العدم فذاك محال لأن فاقد الحياة لا يعطيها لنفسه ولا لغيره .

أما خلقكم من غير شيء فباطل قطعا ، لتوقف الخلق الأول على سبب موجد ، وافتقاره إلى من يهبه الحياة كما وضحنا سابقاً .

لم يبق إلا أن الله هو الذى خلق الخلق وفطر السموات والأرض .

ويشير قوله تعالى : أم خلقوا السموات والأرض إلى أن السماء مكونة من ذرات والذرات مكونة من عناصر فهى محتاجة إلى من يكونها وينظمها ، على أن فى السماء نظاماً دقيقاً وحركة دائبة متواصلة مع عظم الأجرام واتساع الفلك واختلاف الاتجاه فهل هذا صدفة أم طبيعة أم هو صنع الله الذى أتقن كل شيء

والقرآن الكريم لفت الإنسان إلى خلقه فقال :

﴿ فلينظُر الإنسانُ مِمَّا خُلِقَ ؟ خلِقَ من ماء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْب والتَّرَائب ﴾ من سورة الطارق

ثم يقول مرة أخرى : ﴿ ومِن كلِّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون ﴾ ٤٩ سورة الذاريات .

ويقول : ﴿ وآيةٌ لَّهُمُ الأرضُ الميْتةَ أحْيَيْناها وأخرجْنا منها حبًّا فمنه يأكلون ﴾ ٣٣ سورة يس .وقد مضت هذه الآيات بتعليقاتنا عليها بما فيه الكفاية .

ثم انظر إلى قوله تعالى : فى سورة الرحمن :

﴿ الشمسُ والقمرُ بِحُسْبانٍ والنجْمُ والشجرُ يسْجُدانِ . والسماء رفعها ووَضَع الميزانَ ﴾.

نعم الشمس تجرى لمستقر لها ، والقمر قدرناه منازل ، وكل فى ذلك يسبحون .

ولكن هذا كله بحسبان وأى حسبان ؟ إنه موضوع بتقدير العزيز العليم .

سبحانك يارب وضعت الميزان ميزان العدل . ميزان الحكمة . ميزان الضبط .

ولكن هل الميزان وحده يسير أم لابد من إله قوى قادر عليم يحركه ويصرفه بقدرة وعلم .

أظن لسنا فى حاجة لاستعراض مظاهر الكون كله لنعرف مدى موازين الله لكل شىء وصدق الله : « وكل شىء عنده بمقدار » .

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ».

ذرة من ماء الرجل تحمل كل خصائصه من لون وخلق وخلق وغريزة وميل ، وبويضة الأنثى تحمل مثل ما تحمل نطفة الرجل . . . . إنه على كل شىء قدير .

إن بحار القرآن واسعة عميقة ، وقد أخذنا منها ما نستطيع .

﴿ قُلْ لوْ كان البحرُ مِدَاداً لكلمات رَبِّى لنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تنفَدَ كلمات ربِّى ولو جئنا بمثلِهِ مَدَداً ﴾ ، ١٠٩ من الكهف .

فهيا بنا إلى حقول العلم ومعاهده لنقف على ماقاله العلماء الماديون .

لقد أثبت البحث أن النجوم . تتكون من ذرات أولها الأيدروجين ، وقالوا إنها تفنى وتتجدد كما نشاهد فى الإنسان والنبات والجماد .

ولكنهم عجزوا عن بيان مصادر التكوين حتى يتحقق التشبع الكونى وقالوا : إنها يد لانعرفها . . . ولكنا نقول إنها القدرة الإلهية تبارك الله رب العالمين ، ثم إنهم أقروا بنشوء الحياة على الأرض بعد أن لم تكن ؛ وعجزوا أن يعللوا كيف وجدت هذه الحياة فقال الله ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إن كنتُم فى ريْبٍ منَ البَعْثِ فإنّا خلقنا كم من تُرابٍ ثمّ من نُطَفةٍ . . . . . و . . ؟ ﴾ من الحج. وقال ﴿ سبحْ اسم ربِّكَ الأعْلى الّذِى خلق فسوى والذى قدّر فهدى والّذِى أخرْج المرعَى فجعلهُ غُثاءً أحْوى ﴾ .

وكل ما قالوا عن بدء الخليقة إنها أول ما وجدت وجدت فى شكل خلايا بسيطة التكوين ثم توالدت بالانقسام ، وعجزوا أن يعللوا كيف تحولت طبيعتها إلى ذكر وأنثى ثم كيف حدث الموت والحياة .

﴿ أفَرَأيتُم مّا تُمنُونَ ؟ أأنتم تخلُقُونه أمْ نحنُ الخالقون نحن قدّرْنا بينكمَ الموت ومانحنُ بمَسْبُوقين على أن نُبَدِّل أمثالَكم ﴾ الواقعة .

ألم تر إلى العلماء الماديين وهم يعللون اشتقاق الأنواع من أصولها من غير قدرة خالقة فعللوها بآثار البيئة والانتخاب الطبيعى وتنازع البقاء وسمو التطوير .

لكن علماء الوراثة قالوا فى نظام الوراثة : فى الأنواع حقائق تقف فى طريقهم

وانهارت لذلك كل تعللاتهم [1] وسبحان الله الذى أنزل القرآن من أربعة عشر قرناً على نبى عربى عاش وسط الصحراء ثم فصل بين العلماء الذين يبحثون فى القرن العشرين . لقد تعللوا بوجود التشابه فى الدم بين الإنسان والأنواع العليا من القرد وأن فى عصعصة الذنب فقارات، وأن الجنين يتنفس من خياشيمه كالسمك وسبحان الله كانت الحقائق العلمية تؤيد نظرية القرآن ولا تخالفه .

اقرأ معى قوله تعالى ﴿ ما تَرَى فِي خلق الرَّحْمٰنِ من تفاوُتٍ فارجِعِ البَصَرَ هلْ ترى من فُطُور . . ﴾ ٣ من سورة الملك ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

إذن الخلق يسير وفق خطة موضوعة ونظام لا يختل أبداً هاتوا جزئية واحدة من جنين ولد على أنه نزع إلى أصله وجده القرد أو هاتوا دليلا من الحفريات على ذلك . هاتوا لى من يعلل كيف تنتقل الدودة إلى شرنقة إلى فراشة طائرة أو هاتوا جزئية لحيوان برى من الزواحف أصبح طائرا . وصدق الله ﴿ هُو الّذى يُصَوِّرُكم فى الأرْحام كيف يشاء لا إلٰهَ إلاّ هو العزيزُ الحكيمُ ﴾ ٦ من آل عمران .

---

(١) ورد فى مجلة الأزهر للأستاذ محمد فريد وجدى المجلد الرابع ص ٥٤١ ما خلاصته: « هذا المذهب يعجز كل العجز عن تعليل التحولات الكبيرة فى عالم النبات والحيوان إذ أن التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ومن هذه إلى الحياة الهوائية لا يمكن أن يعتبر من نتائج تأثير البيئة فكيف يعقل أن الحيوان الزاحف كان سلفا لطائر يتولد منه أمكنه أن يتناسب هو وبيئة لم تكن له ولم تصبح له إلا بعد أن تم تحوله لطائر . . فإنه لا توجد أية علاقة بيولوجية بين الحالة الدودية التى تكون عليها كل حشرة فى أول عهدها بالوجود وبين الحالة التى تكون عليها وهى حشرة تامة .

آراء العلماء فى نظرية النشوء والارتقاء .

لقد نظر جمهرة من العلماء الأحرار إلى نظرية النشوء والارتقاء نظرة ارتياب وشك بل وعارضوها بأمثلة من واقع الحياة .

يقول باستير العالم المشهور حينما سأله سائل : كيف يا دكتور نستطيع أن نوفق بين استكشفاتك العلمية والتعاليم الدينية ؟ .

فأجابه قائلا : اعلم بأن دروسى بدلا من أن تتزعزع عقيدتى جعلتنى فى إيمانى كالفلاح الإنجليزى .

وهذا هارفى مكتشف دوران الدم فى البدن قال : ماشرحت حيوانا إلا رأيت فيه شيئا جديداً وأدلة جديدة على العناية الإلهية .

وهذا جولين يقول إن مذهب دارون ولامارك يستويان فى القصور فإنهما لا يقران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية ، إذ يقول : كيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التى ليست له أولا وهل يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور ؟ وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة ؟ أما مسألة الحشرة فإنها أشد استحالة من ذلك .

فهل هناك أية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة والحشرة الكاملة التى تنقلب إليها لأن الحشرة اعتادت الحياة الدودية تحت الأرض وفى المياه ، فكيف تصل شيئاً فشيئاً إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة لها ولا تنس ما كتبته مجلة الأزهر فى مجلدها

الرابع عن العلامه جوستاف جوليه فى دحض هـذا الرأى ص ٥٣٩ ، ٦٢٤ ، ٧٢٥ .

على أن هذه النظرية ليست لها أدلة عقلية منطقية وإنما هى من باب الحدس والتخمين على أن القرآن قال أشهدوا خلقهم ؟

لـكن إذا جاء القرآن وقال : «إنى خلقت ، الإنسان من سلالة من طين» وثبت قوله هذا بالدليل القاطع على أنه من عند الله لامن عند البشر فالمسألة مسألة سماعية لاعقلية لأن العقل لايستطيع أن ينفذ إلى الحجب المستورة من الغيب ويكتشف ما كان فى بدء الخليقة .

على أن التشابه فى الدم أو فى عصعصة الذنب أو فى العضلات التى خلف الأذن وفى الزائدة الدودية لا ينتج ماقالوه لقد قال بعضهم إن الجهاز الصوتى فى القرد يشبه الإنسان تماما لولا كيسان غشائيان على جانب الحنجرة ، عجبا لهؤلاء الناس أهم يقولون هذا ثم تستسيغ عقولهم هذا ، ولم يعملوا على إزالة الـكيسين وخاصة بعد تقدم الطب والجراحة .

ياقوم إن المسألة أخطر من هذا إن الله قال « خَلَق الإنسانَ علّمَهُ البَيَان » فيستحيل على غيره أن ينطق .

وأخيراً نعود فنـكرر ماقاله رب السماء والأرض « ماأشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

ولا بأس أن نلخص لك ماقاله كريس مريسون فى مقدمة كتابه العلم يدعو للإيمان . إذ قال بعد ردود من علم الوراثة على دارون يقول :

إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لانهاية لها ، تـكون الحياة بدونها مستحيلة ، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هو

جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون وقد أورد قول « أوسبورن » بين جميع الأشياء التى لا يمكن إدراكها فى الكون يقف الإنسان فى الطبيعة وبين الأشياء التى لا يمكن إدراكها فى الإنسان تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف وبحث وقدرة على تذليل العقبات .

ونحن لا نقول إزاء هذا الإقرار إلا قوله تعالى ﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ الجاثية .

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ الذاريات .

وخير ما نختم به هذا البحث هو ماقاله العالم الذرى هورذلر .

﴿ لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالة القرد ، وأن التجارب قد دلت على أن الإنسان من عشرة ملايين عام عاش بعيداً عن القرد ﴾

وقدم للمتحف الطبيعى بمدينة (بال) قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين عام وبتاريخ ٣١ مارس سنة ١٩٥٦ أعلن فى أمريكا أن الدكتور دويتر المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا أيد نظرية هورذلر وقال: إن نظرية دارون لاتستند إلى دليل علمى[1] .

على أن رأى دارون فى النشوء والارتقاء لا يثبت أن العالم وجد على طريق التوالد والانتخاب الطبيعى وتنازع البقاء فإن عربة الحصان تطورت إلى سيارة ثم إلى طيارة ولكن ليس هناك عاقل يقول إن عربة الحصان هى التى أوجدت السيارة على أن مبدأ تنازع البقاء وبقاء الأصلح يرده وجود العصفور مع النسر .

أما الرد على الشبهة الثانية والثالثة .

فلقد قال بعضهم إن هذا العالم المتقن الذى يسير على سنن واحد لا يختلف، هذا العالم لا يحتاج إلى خالق يدبره .

---

(١) نقلا عن كتاب نظرات فى القرآن للشيخ الغزالى

ويقول أصحاب الشبهة الثالثة: إن فى هذا العالم بعض شذوذ وهذا دليل على عدم وجود الخالق .

وهذا أمر عجيب بعضهم يجعل النظام واطراده دليلا على عدم الخالق ، والآخرون يقولون إن الشذوذ فى بعض الجزئيات دليل على عدم وجود الخالق ولكنا نقول إن النظام واطراده يحتاج إلى منظم ومقنن يرقب اطراد القوانين وأن الشذود فى بعض الأحيان فهو عندك شذوذ وقد لا يكون شذوذا وإنما هو لحكمة الله يعلمها .

أما فيلسوفنا المصرى فقد رد عليه الشيخ السماحى ردوداً مفحمة .

والشيخ الغزالى كذلك مع وضعه فى مكانه اللائق به من الجهل وعدم المعرفة والتهجم على الحقائق العلمية ، ولكنه رجع عن هذا كله كما قلنا ،[1]

أما من يقول : وجود الأشياء ثابت لا يحتاج إلى دليل وأما الخالق فلا دليل عليه ، فهذا هراء لا يحتاج إلى رد .

وهؤلاء هم الماديون النظريون وهم أشبه بالسوفسطائيين ، فإن العقل البسيط يبحث عمن أوجد هذا النظام فى الكون ، وهؤلاء لا يعتد بهم .

---

(١) موضوع الألوهية فى القرآن من المصدر نفسه مراجعة ثانية .

قصة عبادة العرب للأصنام وغيرها

كانت العرب مع تقادم الزمن قد تركت دين إبراهيم وإسماعيل إلى عقيدة مشوشة خرقها القاصرون القاسطون دون وعى وقبلها المقصدون الغافلون دون نقد ، ثم شاعت بين الجماهير على أنها عقائد موروثة كان عليها الآباء والأجداد، وما هى إلا خرافات وظنون لا سند لهم فيها ولا حجة إلا أنها موروثات الآباء والأجداد :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ١٧٠ سورة البقرة .

فقد كانت العرب من قديم الزمن تتمسك بالأصنام وتعبدها من دون الله، وقد كان لها أثر عميق فى حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وظلوا على ذلك الحال حتى جاءهم من الله نورٌ وكتابٌ مبين ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ ١٦ سورة المائدة .

ومن عقائدهم الفاسدة أنهم كانوا يدّعون أن لله بنات هن شركاء لله فى الألوهية وعند بعضهم أن له ابناً وبعضهم أن له أبناء .

ولقد جاء الإسلام ليخرج هؤلاء من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد واليقين، جاء لينقذ الإنسانية من ربقة الجهل والضلال إلى سعادة الحرية الكاملة وعبادة الله وحده ، وليضع الإنسانية فى موضع الكرامة والعزة حيث لاتخضع لصنم أو وثن أو مخلوق لاينفع ولا يضر ، ولكنها تخضع لله مالك يوم الدين ورب العالمين .

جاء القرآن ينعى عليهم عبادة غير الله ويدعوهم إلى أن يخصوه وحده بالعبادة والتقديس والألوهية والوحدانية حيث قال :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ٣٨ الزمر .

﴿ ويعبدُون منْ دونِ الله مالا يضرُّهم ولا ينفعُهم ويقولون : هؤلاء شُفعاؤنا عند الله . قل أتنبِّئون اللهَ بما لا يعلمُ فى السَّموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عمَّا يُشركون ﴾ ١٨ يونس .

﴿ وإذا ذُكِرَ اللهُ وحده اشمأزَّتْ قلوبُ الذين لا يُؤمنونَ بالآخرةِ وإذا ذُكِرَ الذين منْ دونهِ إذا هُمْ يستبشِرُون ﴾ ٤٥ الزمر .

﴿ وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علمٍ سبحانه وتعالى عمّا يصفُون . بديعُ السَّموات والأرض أنى يكون لهُ ولدٌ . ولمْ تكنْ له صاحبةٌ . وخلقَ كلَّ شىءٍ وهو بكلِّ شىء عليمٍ . ذلكمُ الله ربُّكم لا إلٰهَ إلاّ هو خالق كلِّ شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾ ١٠٢ من سورة الأنعام .

ومن مجموع هذه الآيات نستخلص ما يأتى :

١ — كانوا يعبدون الأصنام بمعنى أنهم كانوا يقدسونها ويذبحون عندها وكانوا يعتقدون أن لله بنات وأبناء ..

٢ — كانوا يعترفون بوجود الله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ولكنهم لا يخصونه بالعبادة والألوهية بل يجعلونه إلهاً كالآلهة وأن يكن كبيراً ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾ ٥ سورة ص

٣ — كانت عبادتهم للأصنام على أنها شفعاء لله مع التقديس لها ثم هم يتمسكون بها تمسكا عنيفاً وصل إلى حد العقيدة لذلك نرى القرآن ناقشهم فى هذا كثيراً واستدل على ألوهية الله ووحدانيته بما يزيد على سبعين آية ساقها بكل حجة وبرهان لعلهم يتذكرون .

ولقد ذكر الكلبي فى كتابه الأصنام عند حديثه عن العزى وعبادتها ص ٢٣ ما نصه « لما مرض سعيد بن العاص بن أمية مرضه الذى مات فيه دخل أبو لهب يعوده فوجده يبكى فقال : ما يبكيك أبا أحيحة ؟ ! أمن الموت تبكى ولابد منه ؟ !

قال : لا ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى ! ! قال أبو لهب : والله ما عبدت العزى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

قال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ، وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها .

* * *

ومن هنا يجدر بنا أن نبحث عن تاريخ عبادة الأصنام وعبادتها عند العرب حتى ينكشف لنا السر فى تمسكهم بعبادتها ، ويتضح لنا اهتمام القرآن الكريم بغرس مبادئ التوحيد وقصر الألوهية على الله جل جلاله .

روى الرواة أن أولاد إسماعيل لما كثروا بمكة ، وضاقت بهم الأرض ، ووقعت بينهم حروب وفتن هاجر بعضهم منها وتفرقوا فى البلاد طلباً للرزق وبعداً عن الحرب هجروا مكة ، وهى أحب بلاد الله إليهم ، فكان لا يظعن منهم ظاعن إلا احتمل معه حجراً من أحجار الحرم تعظيما له ، وتعلقا به ، وحبا لمكة وما فيها ، وكانوا إذا حلوا بمكان ونزلوا فيه ، وضعوا ذلك الحجر فى مكان القداسة ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة وما كان هذا لينسيهم مكة وأهلها بل ظلوا يعظمون الكعبة ومكة ، وإن بعدت الدار وشط المزار .

وظلوا يحجون ويعتمدون على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وإن اختلطت عليهم بعض الصور ، وطاف عليهم بعض الظلال .

ولما امتد بهم الزمن وطال خبا نور الحق وضعف شأن كل أمور الناس حتى سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما نقلوه معهم بعد ما نسوا الأصل ، والسبب الذى من أجله حملوه وصار إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وتلك سنة الله فى الخلق ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

وظلوا يتدهورون من حال إلى حال حتى عبدوا الأصنام عبادة كاملة ، وصح أن يقول فيهم لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ لِتُنْذِرَ قوماً ما أُنْذِرَ آباؤُهم فهم غافِلونَ ﴾ ٦ من سورة يس ﴿ لتُنْذِرَ قوماً ما أتاهُم مِن نذير مِن قبلِك ﴾

فإنهم بطول الزمن استبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه الصلاة والسلام من الأصنام على إرث ما بقى فيهم من ذكرها وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة ، والوقوف بعرفة . وإهداء البدن مع ادخالهم ما ليس فيه من ألوان الشرك وصوره اسمع لما كانت تقوله نذار . إذا أهلت بالحج .

لبيك اللهم لبيك . . . لبيك لا شريك لك . . . إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

فتراهم يوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده وصدق الله ﴿ وما يُؤمِن أكثرُهُمْ بالله إلاّ وهم مشركونَ ﴾ .[1]

وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك . ووقفت فى المواقف ثم نفرت فى النفر الأول ولم تقم إلى آخر أيام التشريق .

---

(١) هذه رواية الكلبى عن الرواة من كتابه ص ٣

ولذلك يقول الله . ﴿ ثم أفيضُوا مِن حيثُ أفاض النَّاسَ ﴾ سورة البقرة

* * *

روى الرواة أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فَنَصَّبَ الأوثان ، وَسَيَّبَ السائبة ووصل الوصيلة . و بَحَر البحيرة . وحمى الحامى . أول من فعل هذا عمرو بن ربيعة [1] وكان الحارث جد عمر لأمه هو الذى يلى أمر الكعبة، فلما بلغ عمرو بن لحى هذا مبلغ الرجال نازعه فى الولاية ، وقاتل جرهما ببنى إسماعيل فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم منها وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمَّةً إنْ أتيتها برأت فأتاها فاستحم فيها فبرئ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ماهذه؟ فقالوا : نستسقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة .

وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل ، وسموها بأسمائها على ما بقى فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل هذيل بن مدركة [2]

وكان من أصنامهم الأصنام التى عبدها نوح وورد ذكرها فى القرآن الكريم على لسان نوح عليه السلام ﴿ قال نوح : رب إنهُمْ عَصَونى ، واتَّبَعوا مَن لَّمْ يَزِدْه مالُه وولدُه إلاّ خساراً ، ومَكَروا مَكْراً كُبّاراً وقالُوا لاتَذَرُنَّ آلِهَتَكم ولاتذرُنَّ وَدّاً ولاسُواعاً ولا يَغوث وَيَعُوقَ و نَسْرًا وقد أضلوا كثيراً

---

(١) هو لحى بن حارثة بن عمرو بن الأزدى . وهو أبو خزاعة وكانت أم عمر بن لحى فهيرة بنت عمرو بن الحارث ص ٨ من كتاب الأصنام .

(٢) من كتاب الأصنام ص ٩

﴿ولاتَزِدِ الظّالمين إلاّ ضلالاً﴾ وكان لهم غيرها ...

سُواعاً : اتخذه هذيل بن مدركة ، فكان لهم برهاط من أرض ينبع ، وينبع قرية من قرى المدينة ، وكان سدنتها بنى لحيان .

وَدًّا : . . اتخذه كَلْب بدومة الجندول .

يغُوثَ : اتخذه مذْحِجُ وأهل جُرَش وقال شاعرهم :

وساربنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح

يعُوقَ : . . اتخذه خَيْوان بقرية لهم تسمى خيوان على بعد ليلتين من مكة جهة صنعاء .

نسراً : اتخذته حمير بأرض بلخع ، وكان لها بيت مقدس اسمه رئام يذبحون عنده وكان سدنته لهم جبل فيتكلمون منه ، ولكنه هدم لما انصرف تبع من مسيره إلى العراق وكان معه حبران صحباه من المدينه فأمراه بهدم رئام وتهود تبع وأهل اليمن .

ولما نقل عمرو بن لُحَىّ الأصنام وعبادتها للعرب استحدثوا هم أصناماً غير التى وردت لهم عن قوم نوح . . . وكان منها .

مناة . . . وكانت أقدمها ، وسموا بها فقالوا عبد مناة .

وكان منصوباً على ساحل البحر بمكان يقال قديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعاً تعظمه ، وتذبح عنده ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قاربهما من المواضع . . . يعظمونه . ويذبحون له ويهدون ، وكان أشدهم تعظيما له الأوس والخزرج .

روى الكلبي فى كتابه الأصنام ص ١٤ فقال :

حدثنا رجل من قريش عن أبي عبيد بن عبد الله بن أبي عبيدة بن عمار ابن ياسر .

قال : كانت الأوس والخزرج ، ومن يأخذ مأخذهما من عرب يثرب وغيرها يحجون فيقفون مع الناس المواقف ، ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوه ليحلقوا رءوسهم عنده وأقاموا . . . لا يرون لحجهم تماما إلا بهذا .

وهذا عبد العزى بن وديعة المزنى يقول :

إنى حلفتُ يمينَ صِدْقٍ بَرَّةٍ بِمَنَاةَ عند محل آلِ الخَزْرَجِ

وظلت كذلك حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثمان للهجرة عام الفتح علياً فهدمها وأخذ ما كان لها ، وكان مما أخذه سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغسانى ملك غسان أهداهما لها . . فوهبهما النبي عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبي طالب .

ومناة هذه التي ذكرها الله فى القرآن بقوله . . . « . . . . ومناة الثالثة الأخرى » ويروى الكلبي أنها كانت لهُذَيلٍ وخُزاعَةَ .

اللاتَ : . . . . وكانت بالطائف . وهى صخرة مربعة كانت ليهودى يلت عندها السويق وكان سدنتها من ثقيف . وكان أول من اتخذها قد بنى عليها بيتا ، ومنارة مسجد الطائف اليسرى مكانها اليوم .

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وكانوا يسمون بها : زيد اللات . وتيم اللات . ولم تزل كذلك حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها وكانت ثقيف قد أسلمت حينذاك .

ومما أثر من الشعر قول عمر بن الجعيد

فإنى وتركى وصلَ كأسٍ لكالذى تبرَّأ من لاتٍ وكان يَدِينها

وقال أوس بن حجر يحلف باللات :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وهذا الشعر يدل على أن العرب كانت تعتقد فى الأصنام أنها آلهة كما أن الله إله وإن كان أكبر .

العزى . . . . وهى أحدث من مناة فهن على الترتيب فى العبادة الزمنية وقد سمت . . بها العرب فقالوا : عبد العزى بن كعب . وكان الذى اتخذ العزى ظالم بن سعد ، وروى أنه مسعد بن عامر بن مُرَّة ، وكان سدنتها من بنى مرة :

وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له « خراض » بإزاء « الغمير » عن يمين المصعد من مكة إلى العراق ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال وبُنى عليها بيت ، وكانوا يسمعون فيه الصوت .

وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح ، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول :

واللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى !

وكانوا يقولون بنات الله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه : ﴿ أفرأيتم اللاّت والعُزّى . . ومَناةَ الثالثة الأخرى ألَكُمُ الذكرُ وله الأنثى تلك إذاً قسمةٌ ضِيزَى . إنْ هى إلاّ أسماء سَمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللهُ بها من سلطانٍ . . . ﴾ ٢٢ من سورة النجم .

وروى الكلبى فى كتابه (الأصنام) :

أنه قد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها يوما فقال : « لقد أهديت لها (للعزى) شاة عفراء ، وأنا على دين قومى » .

تلك رواية ما نظن إلا أنها مدسوسة فالله قد حماه من مشاهدة السمر بمكة وهو شاب يافع ، فكيف بالإهداء إلى العزى والإهداء من العبادة ؟

ومما يروى أن قريشا كانت قد حمت لها شِعْبا من وادى خُرَاض يقال له سُقام يضاهون به حرم مكة .

وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم لها يقال له « الغَبْغَب » .

فله يقول الهذلى : وهو يهجو رجلا تزوج امرأة جميلة يقال لها أسماء :

لقد أنكحت أسماء لحى بقيرة ... من الأدم أهداها امرؤ من بَنى غنم
رأى قَذَعاً فى عينها إذ يَسُوقها ... إلى غَبْغَبِ العُزّى فوضّع فى القَسْم

فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها .

وكانت قريش تخصها بالإعظام .

ولذلك يقول زيد بن عمر بن نفيل ، وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصَّبُورُ
فلا العُزّى أدِينُ ولا أبنتيها ... ولا صنمى بَنى غُنْمٍ أزُورُ .....
ولا هُبَلاً أزُورُ وكان ربّا ... لنا فى الدّهْر إذْ حلمى صغير

وكان آخر من سدنها من بنى مرة دُبَيّةَ بن حرمى السلمى ولم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه بالهدى فعابها وغيرها من الأصنام فاشتد ذلك على قريش .

اقرأ قصة مرض سعيد بن العاص التى مضت بك قريباً ص ١٣٠ .

فلما كان عام الفتح أرسل النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فأزالها

وقتل دبية وقطع الشجرات التى كانت حولها وقال :

ياعزّ كفرانك لاسبحانكَ إنى رأيتُ الله قد أهانكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حمة ، ثم عضد الشجرة ، وقتل دبية السادنة

ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : ـ

تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب ! أما أنها لن تعبد بعد اليوم . رأيت أن العزى كانت تعظمها قريش ، وتخصها بالزيارة والهدية ، وذلك لقربها منهم

وكانت ثقيف تخص اللات بالتعظيم كخاصة قريش العزى .

وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء .

وكلهم كان معظما للعزى .

ولم تكن الأصنام الخمسة التى وردت لهم من قوم نوح ودفعها لهم عمر ابن لحى بهذه المنزلة التى كانت لأصنامهم .

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة منها :

هُبَل : . . . . يروى أنه كان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب .

وكان أول من نصبه خُزَيمَةُ بن مُدْرِكَةَ بن إلياس بن مضر ، ولذلك كان يقال له : هبل خزيمة ، وكان فى جوف الكعبة وعنده سبعة أقداح .

مكتوب فى أولها صريح : ملصق . وكانا لتحديد الولد فيلحق بالنسب إن خرج صريح . ويرد إن خرج ملصق .

وقدح ثالث على الميت . وقدح على النكاح : وثلاثة لم تفسر لى على ما كانت فإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفرا وعملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده فما خرج عملوا به أو انتهوا إليه .

وعندها ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحُد :

أُعْلُ هُبَلْ

فقال النبى صلى الله عليه وسلم « الله أعلى وأجل » وكان لهم أَسَافُ وَنَائِلَةُ . . . .

وقصتهما مشهورة تدل على حماقة العرب فى اتخاذ الآلهة وكان لهم مَنَاف وكانت تسمى به عبد مناف .

وقد كانت العرب تسمى بأسماء يعبدونها ، لا أدرى أعبدوها للأصنام أم لا .

منها عبد ياليل . عبد غنم . عبد كلال . عبد رضى [1] وغيرها كثير . فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، ودخل المسجد الحرام والأصنام منصوبة حول الكعبة يقال كانت ستين وثلاثمائة .

جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعن بسية قوسه فى عيونها ووجوهها فتتكفىء وهو يقول :

---

(١) هذه الأسماء منقولة من نهاية الأرب للقلقشندى نسخة خطية دار الكتب رقم ٣/٤ .

« جاء الحق وزهق الباطل . إن الباطل كان زهوقاً » .

ثم أخرجت من المسجد فأحرقت . وبذا انتهى عهد الأصنام وبدأ عهد التوحيد ، ولكن هل أزيل عهد الأصنام بالسيف والحرب أم بالحجة والبرهان ؟ .

ولقد عرفت ما قاله القرآن فى تخصيص الله بالعبادة والألوهية ، وما نعى به على المشركين فى عبادتهم للأصنام ، وما سفه به أحلامهم .

الكفر والشرك والعلاقة بينهما

الكفر لغة الستر ، ولذا وصف به الليل لستره الأشياء فى الظلام ؛ والزارع لستره البذر فى الأرض ، وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك شكرها . . . « فلا كفران لسعيه » وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة واستعمال الكفران فى النعمة أكثر واستعمال الكفر فى الدين أكثر والكفور فيها جميعا « فأبى الظالمون إلا كفورا » ، والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية لله أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها الشرك — والمشاركة خلط الملكين وأن يوجد شىء لاثنين فصاعدا عينا كان أو معنى وعليه قولهم شركته وشاركته وتشاركوا واشتركوا وأشركته . « وأشركه فى أمرى » . « فى العذاب مشتركون » .

وشرك الإنسان فى الدين على ضربين الشرك الأعظم وهو إثبات شريك لله سبحانه وتعالى ، وعليه قولهم أشرك فلان بالله وذلك أعظم الكفر ﴿ إن اللهَ لا يغفرُ أن يُشركَ بهِ ويغفر مادُونَ ذلكَ لمن يشاء ﴾ ، ﴿ قل تعالَوْا أتْلُ ماحَرَّم ربُّكم عليكم ألاَّ تُشركوا به شيئاً ﴾ .

الشرك الأصغر مراعاة غير الله معه فى بعض الأمور كالرياء والنفاق هذا بحث لغوى[1] .

وفى اصطلاح الشرع ولسان القرآن الشرك مشترك يطلق على المشركين وعلى غيرهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ فيصبح إطلاق

---

(١) يراجع فيه كتب اللغة وخاصة مفردات القرآن للراغب الأصبهانى .

الشرك على الأصغر والأكبر فقوله تعالى : ﴿ واقتلوا المشركين كافة ﴾ .

أكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعا ، وقيل هم من عدا أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾ ١٧ من الحج .

والحق أن لفظ الشرك أطلق فى القرآن على معنى واحد بكل تصاريفه هو اتخاذ شريك لله .[1] ، وقد ذكر فى أكثر من موضع فى مقابلة أهل الكتاب اقرأ معى ﴿ ما يَوَدُّ الذينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ أن يُنَزَّلَ عليكم مِن خيرٍ من ربِّكم . . ﴾ ١٠٠ من البقرة ﴿ لَتَجِدَنَّ أشدَّ النّاس عداوةً للذينَ آمنوا اليهود والّذِين أشرَكوا .. ﴾ المائدة ، ﴿ ولا تُنكِحوا المشرِكين حتى يؤمنوا ...ولا تَنكِحُوا المشركاتِ حتى يُؤْمِنَّ ﴾..البقرة وقال فى سورة المائدة من حيث نكاح أهل الكتاب :

﴿ وطعامُ الذين أتوا الكتابَ حِلٌّ لكم . . . والمحْصَناتُ من المؤمناتِ والمُحْصَناتُ من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ﴾ .

﴿ لَمْ يكُنِ الذين كفروا منْ أهلِ الكتابِ والمشركين مُنْفَكِّين حتَّى تأتِيَهُم البَيِّنة ... إن الذين كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركين فى نارِ جَهَنَّم ﴾ سورة البينة .

وبالجملة فحيث ذكر مع المشركين وغيرهم فهو خاص بهم ، وإذا أفرد جاز أن يراد منه العموم .

والكفر أعم من الشرك .

---

(١) هذا فى مواضع عدة أكثر من مائة .

فعلى أى شىء أطلق لفظ الكفر فى القرآن ؟

لفظ الكفر عام فقد أطلق على كل من جحد الألوهية وكفر بالله على أنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، وقد يطلق على من كفر بالنعمة كقوله تعالى : ﴿ ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديدٌ ﴾ .

وقد يطلق على من أخلّ بالشريعة وترك ما لزمه فقوله تعالى ﴿ مَن كفر فعليه كفرُه ﴾ فى مقابلة ﴿ مَن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمْهَدون ﴾ . . . ٤٤ من سورة الروم .

وقد يطلق على من ترك ركنا من أركان الدين كالحج كما فى قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حِجُّ البيتِ مَنِ استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإنّ الله غنىٌ عن العالمين ﴾ ٩٧ من آل عمران . أما إطلاقه على كل من كفر بالله وجحد ألوهيته مطلقا فكثير فى القرآن كما فى قوله ﴿ وما كفرسُليمانُ ولكنّ الشّياطين كفروا ... ﴾ ١٠٢ من سورة البقرة . ﴿ ومنْ كفرَ فأمتّعُه قليلا ثم أضطرُّه إلى عذابِ النارِ وبئسَ المصيرُ .. ﴾ ١٢٦ من البقرة . ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتَيَنَّ مالاً وَولداً .. ﴾ ٧٧ من مريم . ﴿ لَسْتَ عليهم بمُسَيْطِر إلا مَن تولّى وكفر . . ﴾ ٢٣ من الغاشية ، ﴿ ولا يزالُ الذين كفروا تُصيبهُم بما صَنَعوا قارعةٌ .. ﴾ ٣١ من الرعد ، ﴿ اليوم يَئِسَ الذين كفروا منْ دينِكم فلا تخشَوْهم واخشَوْنى ﴾ ٣ من المائدة .

وقد يطلق على المشركين كما فى قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهُمْ أمْ لم تُنذِرْهم لا يؤمنون .. ﴾ ٦ من البقرة ، ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلا ؟ ﴾ ٢٦ من البقرة ، ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عندِ اللهِ مُصدِّقٌ لِمَا معهم وكانُوا منْ قبلُ يستفتِحُون على الذين كفروا . . ﴾ ٨٩ من البقرة .

﴿ وَدَّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتِكم وأمْتِعَتِكم فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدةً ﴾ ١٠٢ من النساء ، ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعى اللهُ وَحدهُ كفرتم وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا فالحُكمُ لله العليِّ الكبير .. ﴾ ١٢ من غافر .

﴿ قل للذين كفروا ستُغلَبون وتُحشرُون إلى جهنّم وبئسَ المِهادُ .. ﴾ ١٢ من آل عمران . ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتّخذِونك إلا هُزُوا ﴾ ٣٦ من الأنبياء ، ﴿ وإن يكادُ الذين كفروا ليُزْلقُونكَ بأبصارِهم لمّا سمعوا الذِّكر ويقولون إنّهُ لمجنُون ﴾ ٥١ من نون .

وقد يطلق على أهل الكتاب خاصة دون المشركين .

﴿ .. وأُشرِبوا فى قلوبهُمُ العِجْلَ بكُفرهم ... ﴾ ٩٣ من البقرة .

﴿ يا أهلَ الكتابِ لم تكْفُرون بآياتِ الله وأنتم تشهدون ﴾ ٧٠، ٧١، ٧٢ من آل عمران .

﴿ إنّ الذين يَكفرون بآياتِ اللهِ ويُقتلون النَّبيِّين بغيرحقٍّ .. » ٢١ من آل عمران ، « وبكُفرهم وقولهم على مريم بُهْتاناً عظيما ... ﴾ ١٥٦ من النساء « لقد كفر الذين قالوا إن اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ ﴾ ٧٢ من المائدة ، ﴿ لُعِن الذين كفرُوا من بنى إسرائيل على لسانِ داود وعِيسى ابن مَريم ﴾ ٧٨ من المائدة .

الشرك — عبادة غير الله مع الله بمعنى يتخذ الإنسان لله سبحانه وتعالى شريكا فيما هو من خصائص الألوهية، وأن يشرك مع الله سبحانه وتعالى شيئاً فى السلطة الغيبية أو الهيمنة على الكون التى هى فوق الأسباب والمسببات ، والتى بيدها الخلق والرزق والإحياء والإماتة وخرق الأسباب والتى يفزع إليها الإنسان بطبعه عند نزول الكرب ، ويتجه إليها عند الدعاء والرجاء .

﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجَنْبِه أو قاعِدا أو قائماً فلمّا كشفنا عنه

ضُرٍّ مرَّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه ﴾ ١٢ من سورة يونس .

هذه السلطة الغيبية ، وتلك الهيمنة على هذا الكون كله لله سبحانه وتعالى وليس له شريك فيها أبداً « لله ملك السموات والأرض .. » .

« لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدتا فسُبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عمّا يصفُون» ٧٢ من الأنبياء .

فإذا اختل عقل الإنسان وتفكيره وعميت بصيرته حتى أشرك بالله شيئا في أي شيء في هذا الكون وعوالمه فهو المشرك وإن كان يؤمن بالله . وهذا النوع من الشرك هو الذي كان فاشياً عند العرب وهو الذي جاء به القرآن وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ليرد للناس عقولهم ويهديهم إلى ربهم وإلى صراط مستقيم .

ومن هنا نفهم قوله تعالى : ﴿ أجعل الآلِهَةَ إلهًا واحِداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجابٌ ﴾ ٥ من سورة ص .

﴿ ما نَعبدُهم إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَىٰ ﴾ ٣ من الزمر .

﴿ وما يُؤمِنُ أكثرُهم باللهِ إلاّ وَهُم مُشركُون ﴾ ١٠٦ من يوسف .

﴿ وإذا دُعِيَ اللهُ وحْدَه كفرتم وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا ﴾ ١٢ من غافر .

وهناك إنكار للربوبية والألوهية أصلا .

وهذا مذهب من لا يؤمنون بالقوى الغيبية أصلا ، لا يؤمنون إلا بالمادة والحس فقط، وهؤلاء يقولون بقدم العالم ، وأنه يسير سيراً طبيعياً وإنه لا بعث ولا حساب وإنه سائر بقوة ذاتية كافية فيه هي الطبيعة .

وهؤلاء لم يعبأ بهم القرآن كثيراً مع أنهم أخطر من المشركين ، وأمعن

في الضلال والبهتان، ولكنهم كالأنعام بل هم أشد ، ولا حجة لهم ، بل ولا شبهة وإن كانت فهي أوهى من بيت العنكبوت فلا وزن لها .

وهؤلاء موجودون قديما وحديثا وهم أخطر على الأديان كلها من المشركين .

ولقد اتجه القرآن والإسلام إلى المشركين الذين وصفهم الله بقوله ﴿ولئن سألتهم مَنَ خلق السَّمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ قلِ الحمدُ لله بَل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ٢٥ من لقمان .

اقرأ آية ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وعلى هذا كانت دعوة الرسل جميعا إلى عبادة الله وحده وإلى محاربة الذين أشركوا معه غيره فيما هو من خصائص الألوهية كما قلنا ، وقد اتخذ القرآن في أكثر آياته التي وجه بها دعوة التوحيد إيمانهم بالربوبية سبيلا إلى إلزامهم بالألوهية حيث قال : ﴿ يا أيها الناسُ اعبُدوا رَبَّكم الذي خَلَقكم والذين مِن قَبْلِكم لعلكم تتقون .. ﴾ ٢١ من البقرة .

وفي سورة الأنعام بعدما عدد مظاهر القدرة والعظمة الإلهية وبين آثارها في الكون كله قال : ﴿ ذلِكم اللهُ ربُّكم لا إله إلاّ هو خالقُ كلِّ شيء فاعبُدوه .. وهو على كل شيء وكيل ... ﴾ ١٠٢ من الأنعام .

ولقد اتخذت كل أمة مشركة مظاهر خاصة بها حسب تقديرها وفهمها وما توحي به بيئتها ، فبعضهم عبد الشمس والآخرون عبدوا القمر ، والبعض عبد النار ، والبعض عبد البقر ، وبعضهم عبد الأنهار كالنيل بل بعضهم عبد المرأة بل والفرج . ومنشأ هذا كله هو انحطاط العقل البشري وقصوره عن إدراك القوة الغيبية فاتخذ إلها من الحجر أو الشجر أو من الحيوان أو من بعض مظاهر الكون بل بعضهم اتخذه من الطعام وأكله حينما جاع .

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

اتخذه إلهاً وركن إليه وقدسه وعبده من دون الله مع أنه لا يخلق ذباباً ولا يمنعه عنه إذ هو يحتاج إلى من يحفظه . ولاشك أن الشرك شذوذ في الإنسان من قديم الزمن ويتغير تبعا لظروف الحياة حتى وصل إلى الديانات فمال بعضهم عن التوحيد الحق . إلى الشرك الخفي أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على قلبه — وقانا الله شر الشرك الظاهر والخفي وحمى أمة الإسلام منه .

مبحث التشريع

الإسلام عقيدة وشريعة .

أما عقائده فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره .

وهذه العقيدة وتفصيلاتها قدر مشترك عند الأنبياء جميعا . كل نبى دعا أمته للإيمان بالله إيمانا كاملا وبملائكته على أنهم سفراء الله وبكتبه المنزلة على أنبيائه هدى وموعظة وتفصيلا لكل شىء وبرسله جميعا لا فرق بين رسول ورسول وباليوم الآخر على أنه يوم الجزاء . والوفاء ويوم الدين .

﴿ شرعَ لَكم من الدِّين ماوصَّى به نوحاً والذّى أوْحينا إليك وما وصينا به إبراهيمَ ومُوسى وعيسىٰ أن أقيموا الدِّين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ ١٣ من سورة الشورى .

وجميع قصص الأنبياء المذكورة فى سورة الأعراف وهود وغيرهما تؤيد ذلك .

أما الشريعة : وهى تلك الأحكام العملية التى تؤيد العقيدة وتحميها والتى تجدد الإيمان وترسيه على قواعد سليمة ، فإنها تختلف باختلاف الزمن وتتعدد بتعدد الأنبياء والرسل ذو الرسالة الخاصة ولقد صدق الله إذ يقول ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ ٤٨ المائدة .

هذه الأحكام العملية التى جعلها الله لكل أمة شريعة ومنهاجا تختلف فى كل أمة ومع كل نبى فما سر اختلافها . ؟

سر اختلافها أنها تدور مع مصالح العباد وتلتقى مع أغراضها التى شرعت من أجلها فوضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد فى العاجل والآجل وإن خالف فى ذلك بعضهم ، وبحثنا اليوم قاصر على الشريعه الإسلامية .

والتحقيق الذى لم يبق فيه محل للشبهة أن الأحكام قائمة على رعاية مصالح العباد، وهذه المصالح هى التى يسمونها بالعلل ، ولكن تعيين العلة وكيفية مراعاتها إنما يتلقى من الشارع نصاً أو تلويحاً . ولا مانع من أن تكون أحكام الله معللة بالغايات المحمودة إذ الغاية التى تشعر بالحاجة إنما هى الغاية العائدة إلى تكميل الحاكم أما ما يقصد به تكميل غيره فرعايتها ضرب من الكرم ومظهر من مظاهر الحكمة البالغة [1] .

وما لنا نذهب بعيدا وعندنا الاستقراء لنصوص الأحكام الشرعية ألم تسمع لقوله تعالى؟ :

﴿ رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلا يَكُونَ للناسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ ﴾ ١٦٥ من النساء .

﴿ وَهُو الذِى خَلقَ السَّمواتِ والأرضِ فى سِتَّةِ أيَّامٍ وَكانَ عَرشهُ عَلَى الماءِ لِيبْلوُكُمْ أيكُمْ أحسنُ عملا ﴾ ٧ من هود .

﴿ ما يُريدُ اللهُ ليجْعَلَ عليكمُ منْ حَرج ولَكِن يُريدُ ليُطهِّركُمْ وليُتِمَّ نعمَتَه عَلَيكمُ لعَلَّكمُ تَشْكرُونَ ﴾ ٦ من المائدة .

---

(١) تعليقات فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين على كتاب الموافقات للشاطبى ص ٢ ج ٢

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ٣٩ من الحج . وهكذا الشواهد كثيرة .

ومن هنا ثبت القياس على هذه النصوص حيث يدور الحكم مع العلة وجوداً وعدماً وثبت الاجتهاد فى حدود النص حتى يتحقق أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان .

ذكر العلامة الشاطبى فى كتاب الموافقات « ص ٤ ج ٢ » مع تلخيص واختصار إن تكاليف الشريعة ترجع فى النهاية إلى حفظ مقاصدها فى الخلق ولكن ما هى المقاصد إذن ؟

إن مقاصد الشريعة لاتعدو واحدة من ثلاث . الضروريات ، الحاجيات ، التحسينات . أما الضروريات فهى ما عليه قوام مصالح العباد فى الدين والدنيا ، بحيث لو لم يراع ذلك لم تر إلافساداً وضياعا للفرد والجماعة . وهذه الضروريات ترجع إلى حفظ الدين . النفس . العقل . العرض . المال . . . . فحفظ الدين يكون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر عن عقيدة ثابتة ، على أنه ركن من أركان الإسلام ، ودعائمه فى هذا صلاة تامة وزكاة كاملة وصوم للقادر وحج للمستطيع وما أشبه هذا .

وحفظ النفس يكون بمدها بالغذاء واللباس والسكنى والبعد عما يقتلها أو يتسبب فى قتلها وسن قانون القصاص حياة لها .

وحفظ العقل بالبعد عن كل ما يضر من مشروب أو مطعوم ؛ وحفظ العرض بالزواج على أسس الإسلام وعدم الاعتداء على الأعراض والبعد عن كل ما يدنس العرض ، وحفظ المال بوضع أسس انتقاله من يد إلى يد وتحريم

السرقة والغصب والنهب والاستيلاء عليه بغير وجه شرعى .

وأما الحاجيات فتعود إلى التوسعة على المسلم ورفع الحرج والمشقة والترخيص له عند الضرورة فإن لم تراع هذه الحاجيات دخل على المكلف حرج ومشقة قد تضر ولكنها لا تبلغ مبلغ الفساد فى ترك الضروريات ، وهى جارية فى العبادات كالرخصة فى السفر والمرض وفى العادات : كإباحة الصيد والتمتع بكل ما هو حلال ، وفى المعاملات كالقراض والسلم وفى الجنايات كالدية على العاقلة .

وأما التحسينات فهى الأخذ بمبدأ الأليق من محاسن العادات مع تجنب الدنس الذى تأنفه العقول الراجحة ، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق ، وهى جارية فيما جرى فيه الأولان من ضرورة وحاجة . ففى العبادات إزالة النجاسة وستر العورة وأخذ الزينة والصدقات . وفى العادات آداب الأكل والشراب . وفى المعاملات منع بيع النجس وفصل المـــاء وعدم تخزين الأقوات الضرورية للأمة .

عرفنا أن العقيدة فى الشرائع كلها واحدة لا فرق بين نبى ونبى ولا بين قوم وقوم ولا بين زمان وزمان : إيمان بالله وملائكه وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وأما الشرائع وهى الأعمال وصور العبادات فهى مختلفة اختلاف الزمان والمكان والقوم والرسول (ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . .) .

والإسلام يمتاز عن غيره بصلاحيته لكل زمان ومكان وبمرونته فى الأحكام وربطها بمبدأ القياس والمصالح المرسلة وبمبدأ العلة والحكمة فى الحكم .

ولقد كان الإسلام فى علاجه للجريمة واقتلاع المرض الذى تمكن فى النفوس

أو فى محاولته غرس مبدأ جديد على النفوس يلتقى مع المصلحة .

كان الإسلام يتخذ فى سبيل هذا مبدأ جديدا على سمع الدنيا وبصرها . كان يسلك مسلك الطبيب الماهر الحاذق الذى يأخذ بيد مريضه برفق ولين وينتقل به من حال إلى حال متلطفاً معه ملاحظاً وضعه ونفسيته حتى إذا استقام أمره وتهيأت نفسه جاء بالعلاج الأخير الذى به يكون عضواً صالحا فى مجتمع صالح .

والإسلام سلك هذا فى تحقيق التشريعات الهامة وتثبيت العقائد والمبادىء والمثل العليا .

ونحن هنا فى بحثنا قد اخترنا فى باب التشريع تشريع الخمر . تشريع الربا لنطبق عليهما مبدأ التدرج فى التشريع والانتقال من حال إلى حال حتى نصل إلى الذروة مع بيان الوحدة الموضوعية فى جميع مراحل التشريع .

مسألة تحريم الخمر :

من عادات العرب التى تغلغلت فى نفوسهم ودأبوا عليها حتى خالط قلوبهم حبها لدرجة قصوى : الخمر .

ألم تسمع إلى قول عمرو بن الجعيد وهو شاعر جاهلى يترجم عما يكنه فى نفسه من تعلق بالخمر :

فإنى وتَرْكِى وصلَ كأسٍ لكالذى تَبَرَّأَ من لاَتٍ وكان بَدِينُهَا

فانظر إليه وقد جعل ترك الخمر تبرأ من اللات وهى من آلهتهم المشهورة

كما مضى وذكر الشعراء الجاهليين للخمر فى كل موضع وخاصة فى مطلع القصيدة يدل على أنها كانت عندهم مستحكمة قد حفرت فى قلوبهم مكانا سويا .

فلما جاء الإسلام الحنيف ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم بغرس مبادىء الحرية الإنسانية فى الإنسان حيث جعله لا يعبد إلا الله ولا يؤمن إلا به . ثم هو فى حياطته لهذه طلب منه كثيرا من العبادات التى تنمى فيه هذه الروح وتغذيها ومن ناحية السلوك وسمو الروح وصفائها جاء يحرم عليه الخمر أم الخبائث ولكن الله الكبير المتعال الذى يعلم من خلقه ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ١٤ من الملك .

فالله يعلم أن الخمر قد تعلقت بها نفوس العرب تعلقاً شديداً جداً حتى أصبحت من مظاهر عصرهم التى يأتيها الكل بلا حرج ولا غضاضة .

نحن إذا استقصينا الآيات التى نزلت فى الخمر نجدها كالآتى :-

١ — يقول الله تعالى : ﴿ ومِنْ ثَمراتِ النَّخِيلِ والأَعْنابِ تَتَّخذِونَ منه سَكَرًا وَرِزْقاً إنَّ فى ذلكَ لآيةً لقَوْمٍ يَعقِلون ﴾ ٦٧ من سورة النحل .

٢ — ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ٢١٩ من البقرة .

٣ — ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَقْربُوا الصَّلاةَ وَأنْتُمْ سُكارَى حَتَّى تَعْلموا مَا تَقولُونَ ولا جُنُباً إلاَّ عابرى سَبيلٍ حَتَّى تَغْتسِلوا ﴾ ٤٣ من النساء .

٤ — ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنَّما الخمرُ والمَيسر والأنْصابُ وَالأزْلامُ رجْسٌ منْ عملِ الشَّيْطانِ فاجْتَنبوهُ لعلَّكمْ تُفْلحونَ . إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ

أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضاءَ فى الخمرُ والميْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عنْ ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتم مُنْتَهون ﴾ ٩١ من المائدة .

وبهذا تم علاج القرآن الكريم لمرض من أخطر الأمراض على المجتمع ، مرض تغلغل فى قلوب العرب حتى كان يباهى العربى بشربها ويذكرها فى شعره وخطبه وينسب إليها كل ما يريحه ويهدئ من أعصابه . ولكن القرآن الكريم انتهج منهجاً دقيقاً فى علاج هذا الموضوع يتضح فى الخطوات الآتية :

روى القرطبى فى تفسيره عن بعض المفسرين قال :

« إن الله لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة ومن كرامته أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة . . . فكذلك تحريم الخمر » جزء ٣ صحيفة ٥٢ من القرطبى .

ونحن الآن بصدد بيان تطوير تحريم الخمر وما جاء فيها من آيات بينات هى التى ذكرناها ... ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقاً حسنا ﴾ والآية الكريمة من سورة النحل التى تعدد نعم الله علينا فى الحيوان والمطر وإحياء الأرض بالنبات بعد موتها بالجدب وأنه خلق الأنعام حمولة وفرشا وأنتم تتخذون منه لبنا سائغا للشاربين لبن يخرج من بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ، ورزقاً حسنا إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وهذه هى المناسبة لذكرها هنا ملتئمة مع سابقتها ولاحقتها .

والسكر : ما يسكر ، وفى مفردات الراغب الأصبهانى السكر اسم لما يكون منه السكر ، واستشهد بهذه الآية وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت قبل تحريم

الخمر وأراد بالمسكر الخمر ورأى بعضهم أن السكر هو الخل أو العصير الحلو .

وقد اختار الطبرى أن السكر ما يطعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن فاللفظ مختلف والمعنى واحد أشبه بقوله تعالى : ﴿ أنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة الذى اختاره الطبرى لا يعرف لغة . قال ابن العربى ـ حكاه القرطبى : أسد هذه الأقوال قول ابن عباس .

وعلى ذلك فيكون المعنى الإجمالى للآية : ومن ثمرات النخيل والأعناب تمر تتخذون منه سكرا يسكر كالخمر ، ورزقا طيباً حلالا حسنا من خل وتمر وزبيب وما صنع على أى شكل ليس فيه إسكار .

كما قال الزمخشرى فى كشافه جمعت الآية بين العتاب والمنة . ولكن ما وجه جعلها أول آية نزلت فى تحريم الخمر .

وللعلماء فى هذا آراء منهم من قال أن السكر هو الخمر والآية منسوخة بآية تحريم الخمر صراحة والنسخ مردود هنا قطعا فإنه لا نسخ فى الأخبار . وبعضهم رأى أن السكر هو الخل أو هو الشراب الحلو حتى يخرج من أزمة النسخ وغيره .

والرأى عندى والله أعلم أن : هذه الآية أول الآيات التى نزلت فى تحريم الخمر وكما فهمنا أن القرآن الكريم له أسلوب تربوى دقيق فى معالجة الأمور المعقدة وفى تشريعه الخاص باقتلاع عادة قد تصل إلى الغريزة فتراه يترك الموضوع عدة طرقات بألوان مختلفة فى الدق والدفع والإيقاظ حتى يهيئ شعور الأمة لتقبل ماسيتلى عليها من حكم ، فما ترى نفسها إلا وقد انصاعت وأطاعت أمر ربها جل شأنه من حكيم عليم .

لقد ذكرنى هذا وما قرأته من أن دولة أمريكا قد بحثت بعقلها وعلمها فاهتدت إلى تحريم الخمر فحرمته بقانون ولم تراع النفس البشرية وما جبلت عليه ، فكانت النتيجة أن أصبح القانون هذا أضحوكة ثم اضطرت إلى إباحته ثانية لما عجزت عن تحقيق هذا .

وأما القرآن الذى يناجى العقل والروح ويسلك سبيل العلم السليم والتربية الصحيحة تراه يقتلع الجذور ولكن برفق وسياسة ولين . وإنه لمن دلائل الإعجاز فى القرآن أن يسلك هذا السبيل فى تحريم الخمر هذه أول آية نزلت فى شأن تحريم الخمر . وقد لمس القرآن مسألة الخمر وتحريمها لمسا خفيفا جدا لا يتنبه له إلا بعض العقول الناضجة وأصحاب النفوس الطيبة البريئة .

انظر إلى القرآن وعتابه الخفيف ـ كما ذكر جار الله الزمخشرى ـ عند تفسيره للآية وعرضه للآراء « لقد جمع الله بين العتاب والمنة . . . »

فالله يقول ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا . . . . ورزقا حسنا ﴾ .

وكم بين السكر . . . والرزق الموصوف بأنه حسن من تفاوت كبير وإن كان دقيقا إذ بين السكر بلا وصف والرزق بوصف كونه حسنا ولا خبث فيه ولا فساد ، ولا ضرر بون شاسع مع ملاحظة أن السكر وصف وصفا عن طريق التلميح بمقابلته الرزق الحسن وقد نسب إليهم اتخاذه سكرا من عندهم ، وهذا لا يتنافى مع الامتنان بأصل النعمة كما فى قوله تعالى فى سورة يونس آية ٥٩ :

﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ .

ألست معى فى أن القرآن لمس الموضوع ، ولكن لمسة الطبيب الماهر